السنون وحصادها..

مذكرات:

عثمان زين العابدين

تحرير: فتحي الضَّو

الطبعة الأولى ٢٠١٧

السنون وحصادها

مذكرات عثمان زين العابدين

تحرير:

فتحي الضو

faldaw@hotmail.com

تصميم الغلاف:

سامح الكاشف

التنسيق الداخلي:

جابي فايز غبريال

مراجعة:

صلاح شُعيب

تفريغ المادة المسجلة:

إبراهيم علي إبراهيم

تسجيل المذكرات:

إيمان زين العابدين

تدقيق:

سكينة عوض سعيد

الناشر:

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

الطبعة الأولى: ٢٥٠٦٧/ ٢٠١٧

رقم الإيداع: ٩٧٨-٩٧٧-٨٣٤-٠٢٩-٧

الإهداء...

- إلى زوجتي وأسرتي الصغيرة. .
- إلى والدتي ووالدي وأسرتي الممتدة. .
- الأحياء منهم والأموات. .
- تعلمنا منهم مُثلاً وقِيَماً وأخلاقا . .
- علمناها بدورنا لأبنائنا وبناتنا . .
- وتتواصل الأجيال. .

توطئة...

في البداية، أقر أن الصدفة وحدها جعلت من هذا العمل التوثيقي ممكناً. قبل نحو عامين، أو يزيد، كُنتُ قد التقيتُ بالدكتورة "إيمان" في ولاية فرجينيا، وهي ابنة "عثمان زين العابدين" صاحب المذكرات، وكان ذلك على هامش مؤتمر المنظمة السودانية الأمريكية للشُئون العامة، والمعروفة اختصاراً بمصطلح "سابا"، وأثناء تجاذُبنا أطراف الحديث، ولعلمها باهتماماتي التوثيقية، أفضت إلي مباشرة بأمرٍ علمتُ لاحقاً أنه أورثها هماً ثقيلاً، وكانت لا تدري كيفية نهاياته ولا تبعاته، أو بالأحرى، وفق السؤال الحائر: ثم ماذا بعد؟! قالت لي، إنها وثقَت تجربة والدها كمذكرات شخصية، وضمنتها عدداً كبيراً من "أشرطة الكاسيت" في حلقات وعلى مدى سنوات، وأنها لا تدري ماذا تفعل، لا سيما، وأن هذا الأمر مضت عليه سنواتٌ وهي تخشى أن يضيع سدى.

واقع الأمر، كانت مشاعري متباينة حيال حديثها ذاك. فأنا من جهة، مهموم أصلاً في كُل ما كتبتُ بمسألة التوثيق، واعتبره حجر الرحى في القضايا السودانية المختلفة. وضمن ما أرى، أنه لاقى إهمالاً شديداً من عموم السودانيين، والنخبة على وجه الخُصوص. وكنتُ أقولُ دائماً، إننا أصبحنا أسيري أحاديث الشفاهة المقيتة، الأمر الذي أورثنا ما سميته "الذاكرة الغُربالية" وهي الذاكرة التي تتسرب من خلالها الكثير من الأحداث التاريخية بكُل زخمها المألوف، كما يتسرب الماء من بين الأصابع.

كذلك كُنتُ أقولُ دوماً، إننا جراء ذلك، بتنا ندور حول أنفُسنا كما يدور الثور حول الساقية. ولذا، لم يكن غريباً أو

مدهشاً في أننا أصبحنا مثل الذين في كُل عام يرذلون. فـالأمم التي تريد الدخول في عتبات المستقبل لن تنفذ له بسلطان، إذا ما أهملت ماضياً تستلهم منه العبر، وحاضراً تقرأ منه السير. فلا غُرو عندئـذ أن أصـبحت مشـاكلنا السياسـية والاقتصـادية والاجتماعية والثقافية، تُعيد إنتاج نفسها، حتى مل القائل والمتلقي!

في الواقع، كان رد فعلي الطبيعي أولاً، الإفصاح عـن إعجابي الشديد بالفكرة، وأكبرتُ اهتمام "إيمان" بالفكرة التـي خصصت لها ساعاتٌ طوال، وعلى مـدى سـنوات متفرقـة ومتقطعة، بصبر لا يقوى عليه إلا الذين آمنوا بما أقدموا عليه. وذلك – بحسب علمي – أمر لا ينال اهتمام غالبية من هم في جيلها، أو الآخرين الذين أصبحت لديهم اهتمامـات متعـددة. فضلاً عن أن الذين جاءوا من صلبهم أنفسهم، ونعني آبـائهم، باتوا لا يولون مثل هذه الأمور اهتماماً يذكر. وعليـه، كمـا ذكرتُ عاليه، فقد أورثنا هذا التجاهل مـوارد الهـلاك التـي سودت علينا حياتنا، وتفرخت منها العلل التي نشكو منها الآن.

من جهة ثانية، انتابني شيء من الخوف والهلع ونقص في الثقة، من حديث السيدة إيمان، وذلك نتيجة عدم معرفتـي الشخصية بصاحب المذكرات المعني بالأمر، فأنا لم ألتقه فـي حياتي، بل أكاد أجزم أن غالبية القُراء لم يلتقـوه مـن قبـل، وبالتالي، فإن قليلاً من الناس يعرف عنه كبيـر شـيء. إلـى جانب أن السيدة "إيمان" أستاذة أكاديمية لا شأن لها بالقضـايا التوثيقية إلا من باب البنُوة والوطنية السودانية. لكن مثل هـذا الضرب من التوثيق، يحتم على كاتب السيرة، أن تكون لديـه صلة بما يستند عليها، لتعينه على معرفة الشخصـية المعنيـة بالأمر، حتى تسهل الكتابة التوثيقية.

قطعاً لدابر كُل هذه الهواجس، كُنتُ قد قررتُ أن أركب الصعب – كما يقولون – فطلبتُ منها أن تُرسل لي المادة، لعلني أجد فيها ما يحفزني على المضي قُدماً فـي طريـق المشـوار الصعب. وعندما أرسلتها لي وعكفتُ على سماعها، فذابت كُـل

التساؤلات السابقة أمام ناظري، كما يذوب لوح الثلج ذات نهـار قائظ. أدركتُ أنني أمام تجربة ثرة، وكُنتُ سألقي باللائمة علـى نفسي إن لم أولها اهتماماً. ومن ذاك المنطلق، بـدأت رحلتـي، مستعيناً بأصدقاء لا تقل اهتماماتهم التوثيقية وإحساسهم الـوطني بحتمية توثيق تاريخنا على المستويين العام والخاص. وهكذا بدأنا هذا العمل خُطوة بخُطوة إلى أن اكتمل، ونضعه بين يدي القُراء الكرام، آملين أن يؤتى أُكله ويحقق الهدف المنشود.

إن الذي استوقفني في مذكرات "عثمان زين العابدين"، هما أمـران اسـتراتيجيان. الأول، تعـدد ملكاتـه ومواهبـه الشخصية، فهو بغير مهنيته كجنرالٍ في الشرطة، ومن رعيلها الأول، أي منذ بداياتها التأسيسية في حقبة الاستعمار البريطاني على السودان، كان موسيقاراً بارعاً، حيث يسرد علينـا فـي المذكرات كيف تسنى له صقل هذه الموهبة بعـد أن كـادت تندثر، بسبب أستاذ الموسيقى الذي تسرع في الحكـم عليـه. الأمر الذي كان حافزاً له في خوض غمار التجربـة بمثـابرة وإصرار فريد. إلى جانب أنه كان شاعراً وملحناً، إذ أُختير في حقبة من الحقب رئيساً للجنة الألحان والنُصوص في الإذاعـة السودانية. وكان أيضاً لاعباً ماهراً في لعبة التنس الأرضـية. وهي على الرغم من أرستقراطيتها الشائعة لدى العامة، لكـن موهبته فرضت على الإنجليز تقبله وسطهم بلا منٍ أو أذى.

الأمر الثاني، الذي لفت انتباهي وسوف يلفـت انتبـاه القُراء بلا ريب، هو أنه بتعدد مهنه والتي انتهت به أخيراً في مصاف قُوات الشُرطة، كان جوالاً، طاف العديد مـن مـدن السودان باتجاهاته الأربعة. ولعل أكثرها إثارة بالنسبة له ولنا، تجربته في جنوب السودان. فقد قُدر له أن يكون شاهداً علـى الأحداث التي تناسلت حروباً أهلكت الأنفُس والثمرات، وذلـك منذ انطلاق رصاصتها الأولى، ومن ثم في علُوها وهبوطهـا سلماً وحرباً، بمثل ما سارت بها أهواء الحاكمين في السودان.

في تقديري، أن كُل ذلك هو في حقيقته، نتـاج البيئـة الاجتماعية والأسرية التي ولد ونشأ وترعرع فيها "عثمان زين العابدين". فهو من لدن أسرة تُعتبر مثالاً للتنوع الثقافي والإثني السوداني، بمثل ما فصلنا في بدايات هذه المذكرات. وهو ذات التنوع، الذي لم نُحسن كيفية تمازجه وقولبته وإدارة تبايناتـه المشهودة بما يمكن أن يؤدي لخلاص الوطن مـن موروثاتـه البالية. فعوضاً عن أن يكون لنا هذا التنوع معيناً في بناء أمة عظيمة ناهضة بكُل ذاك الإرث التاريخي، كان خصماً عليها، فأورثنا حروباً أخذت بعضها برقاب بعض، وتناسلت إلـى أن أصبحت كارثة تنبئ بزوال الوطن!

نحن لا نريد أن نجتر حديثاً فات زمنـه، ولا نـود أن نزدرد أحداثاً سبق ذكرها، ولكن في تقديرنا، أن ما أقدمنا عليه عبر هذا الكتاب، هو توثيقٌ لشُعور رجلٍ تفاني في العمل على رفعة الوطن وتقدمه، ومنى الـنفس برؤيتـه يتصـدر الأمـم والشُعوب، وظل يعمل طوال عمره من أجل هذه الغايـة فـي وطن تقاذفته الأنواء والمحن. ومن ثم، قدر ا له أن يعـيش محنته وهو يتخبط بين هذا وذاك إلى يومنا هذا، دون أن يبلـغ المرامي التي عمل لأجلها.. لهو في تقديرنا أعظم إيلاماً مـن وقع الحسام المهند.

القُراء الكرام، قبل الدخول لردهات هذه المذكرات، ثمة بعض الملاحظات التي أود أن أضعها بين أيديكم وأنتم تتابعون رحلة هذا الكتاب مع صاحبه، خُطوة بخطوة، فهـي محـض إضاءات قد تُعين على ما التبس أو تشابكت طلاسمه وعصـي فهمه، ونسلسلها في التالي:

- **أولاً:** لا يدعي "عثمان زين العابدين" في هذه المذكرات توثيقاً تاريخياً للفترات التي عاشها وتناولها، ذلـك لأن التوثيق التاريخي له ميكانيزماته المعروفة، التي تشـمل طرائقه وآلياته وسبل التحقق فيه. فصاحب المـذكرات

ذكر – دون أي لبس – إنها مذكراته الشخصية، والتـي تناولت سيرته الذاتية، متصلة بالقضـايا العامـة التـي تواصلت بها، وعليه فهي كما ذكر مذكرات شخصـية. تقع مسئوليتها على عاتقه قبل أي شيء، ولذا فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر المجتهد على الأقل.

- **ثانياً:** يقول "عثمان زين العابدين" إنه سرد هذه المذكرات من الذاكرة. وبالطبع جل من لا يسهو. فمـن المؤكـد أن بعض الأحداث التي ورد ذكرها، قد تعرضـت لعوامـل التعرية بحكم السنوات الطوال. ولذا فهو قد التمس العـذر لكُل من يمكن أن أصابه رذاذها. كما بذات القدر، طلـب السماح من الناس إن تجاوزت ذهنيته عن بعض الحقائق. علاوة على أنه قال، إن هناك بعض الشخصيات غابـت عن المسرح بحكم النسيان، وثمة أناس آخرون تشـابهت عليه أسماؤهم. بنفس القدر، كانت هناك أحداث تسـربت من الذاكرة بسبب ذات الظروف المذكورة.

- **ثالثاً:** من جانبي – أنا المحرر – التمس العذر أيضاً من القُراء في بعض الملاحظات.. منها ما تعذر علي ذكـر تواريخ بأيامها وشُهورها المعلومة على وجـه الدقـة. وذلك نسبة لذاكرة صاحب المذكرات. ولعـل القُـراء يعذروننا بسبب تقدم سن راويها. فنحن حينما شرعنا في كتابة هذه المذكرات، كان "عثمان زين العابـدين" قـد دخل في أطوار عقده التاسع، وذلك ربما كـان كافيـاً كعذر يستوجب الغُفران.

- **رابعاً:** في ملاحظة شكلية، وإن كانـت مهمـة، أيضـاً التمس العذر من القُراء في كتابة بعض الكلمات، فأنـا حيناً بحكم سرد صاحب المـذكرات، أكتـب مصـطلح "الاستعمار البريطاني" وأحياناً أخر يكـون المصـطلح "الاستعمار الإنجليزي"، وكما هو معـروف، فكلاهمـا

مصطلح يعبر عن مفهوم واحد. وكذلك بنفس المستوى، أكتب أحياناً "قُوات الشرطة"، وأحياناً أخـرى "قـوات البوليس"، وربما على هذه الشاكلة ثمة تعبيرات أُخر لا تغيب عن فطنة القارئ، وما نهدف إليه بحسب ما هـو متداولٌ بين الناس.

- **خامساً:** أعجبني، على عكس ما نهج عليه الكثيرون مـن قبل، أن "عثمان زين العابدين" لم يدع بطولة، ولم يجمـل مواقف يراها البعض لا تتسق مع معايير ذات البطولة التي يدعونها. فالمسائل – أياً كان هويتها – وكما هو معـروفٌ نسبية من حيث الكم والمقدار، والمذكور قد سرد الوقـائع بمثل ما عاشها، بدون تجميل أو تزويق. كما سرد الكثيـر من الأحداث ببساطة وعفوية عرف بها في حياته، ولعـل شجاعته التي تابعته كظله في مسيرة حياته، كانت معيناً له في قول كلمة الحق، والتي لم يخش فيها لومة لائم.

في الختام، تجدني آملاً في أن يجد القُراء ما يبتغونـه في هذه المـذكرات. وبطمـوح أكثـر، أن تشـجع الفكـرة المتقاعسين، حتى نستطيع أن نسد فراغاً رهيباً فـي المكتبـة السودانية، من أجل أجيالٍ قادمة يحق لها أن تتعـرف علـى تاريخ من سبقوها بكُل إيجابياته وسلبياته. وما من شك، أن هذا الحرص على توثيق رموزنا العامة لتجاربها سيعزز من فُرص معرفة ما جرى في الماضـي استشـرافاً للمسـتقبل. بـل إن الاعتبار من الـدروس السـابقة سـيكون مجـالاً للإصـلاح المجتمعي الذي نرنو إليه دائماً لخلق وطـن السـلام والعـدل والمساواة والتسامح.

فتحي الضَّو

شيكاغو: ديسمبر ٢٠١٧م

تقديم..

رجلٌ تقاذفته الأقدار.. من مهنة إلى ثانية.. ومن محطة إلى أخرى.. في حين نقف متأملين في مواهبه التي تعـددت، واتجاهاته التي تنوعت. ومنذ بدايـة حياتـه، دأب علـى أن يصطفي هذه الموهبة ثم ينتقل إلى أخرى.. ولكنه لـم يضـل الطريق أبداً، ولم يفقد الأمل والحلم.

أن يلوي المرء في بداياته على ما هو مقدم عليه، ذلك أمر صعب.. ولا شك أن كُل مقبلٍ على الحياة، يحتاج إلى من يساعده ويسانده، ولكن كيف يكون ذلك والبلاد كانـت أسـيرة المستعمر في بدايات الثلاثينيات؟! غير أنه كان من المؤمنين بإعانة النشء على المضي في طريق استعدادهم الفطـري، لا أن نقف حجر عثرة في طـريقهم، ونفـرض علـيهم مـا لا يطيقون. قال رسول ا صلى ا عليه وسلم: **«كُل ميسر لما خُلق له»**.

ختم العم الجنرال "عثمـان زيـن العابـدين" حياتـه بالشُرطة، قائداً ومديراً وإدارياً. وفوق كل ذلك، معيناً لقضـاء حوائج الناس.. تلك خصائص هيأتها لـه الأقـدار.. ورجـالُ الشُرطة "يفترض" أنهم ممن اختصهم ا لقضاء حوائج الخلق. ولا شك أن "العم عثمان" من زمرة هؤلاء الأخيار، بل يزيـد عليهم بالحكمة التي لا تتأتى إلا بالعلم والخبرة في الحياة. فهو قد تواصلَ مع العلم أينما حل، ونَهلَ منـه سـواء فـي كليـة غُردون، أو حتى ما حصده بالمراسلة وهو يرابط في سـهول كُردفان، أو بجوار نهر النيل في الشمالية، ثم إلى لندن في قلب أوروبا. وكان يحصل من هنا وهناك على شـهادات علميـة، الواحدة تلو الأخرى، وتلك بعض من مفاتيح نجاحه الباكر.

رجالُ الشرطة – كما نعلم – لا يستقرون على حـال، مثل بقية خلق ا . فقد كان "عم عثمان" يتنقل من بلد إلى آخر، في هدأة الليل ليلاحق المجرمين، وفي عـز راحـة الـنفس ليحرس النائمين.. فرجالُ الشرطة، يتبعون الضبط والـربط، وهذا هاجسهم الأول. وبالرغم مما في ذلك الرهق من سـلبٍ لحريتهم، إلا أن ديدنهم دوماً يكون متمحوراً حول الحفاظ على ترابط النسيج الاجتماعي، وبناء الأمة القوية لكي تحافظ علـى أمجادها. هكذا عمل "العم عثمان" وجيله من الآباء المؤسسين للوطن، رغم مرور مياه كثيرة تحت جسوره.

ظلت الشُرطة على الدوام رافداً من روافد الانصـهار الوطني، مثل مؤسسات قومية عديدة. ولعله إذا ما أحكم عملها ووجدت القيادات الملهمة، فإنها حتماً سـوف تـوفر الحيـاة الكريمة للمواطن، وتكون عوناً له لا عالة عليه، ويبقى رصيد خدمتها ذخراً للوطن لا عبئاً عليه.

هكذا تقاذفت الأقدار "عم عثمان"، مـن محطـة إلـى أخرى في زمنٍ عز فيه العلم.. وعزت فيه الحريـة.. لكنـه تمسك بالمبادئ التي لا تعرف المحابـاة ولا تعتـد بالجهويـة والقبلية، وكان ذلك عدته وعتاده، الذي خاض بها تلك التجارب المتنوعة والمختلفة عبر مسيرة حياته المتميزة. كُل هذا نجـده في ثنايا مسار عمله الشرطي. ونحن نتجولُ معـاً فـي هـذا الكتاب الشيق.

على الرغم من مشاق العمل الشُـرطي، إلا أن "عـم عثمان" تعلم الفنون وأبدع في الموسيقى والمسرح والرياضة، وكان أيضاً إدارياً لا يشق له غبار، ولاعباً موهوباً في كـرة التنس.

خاض "عم عثمان" غمار أحداث متلاطمة.. لكنه تمكن من السيطرة عليها.. وبرع في كبح جمـاح الكـوارث قبـل

وقوعها.. وهذا ما يؤكد أن الشرطة كما فهمها، هي علم وإدارة وحنكة، قبل أن تكون سيفاً أو رصاصة تُردي مجرماً.

ربما تبقى هناك أسئلة كثيرة عن الحريات وحقوق الإنسان في حاجة للتداول، وعلى رأسها: ما هو الدور المناط بالشرطي في ظل النظامين الديكتاتوري والديمقراطي، وفي كلاهما كان للسودان تجارب؟! نعم، الأمر في حد ذاته جد شائك بين الضبط والربط وسياسة الدولة المتعلقة بأي من النظامين.. ذلك بالنظر إلى التطور الطبيعي الذي ينبغي أن تنهل الشُرطة منه، لتمارس دورها الوطني، وحتى تصبح قوة فاعلة، وتكون سنداً للوطن وعوناً لتقدمه، لا حجر عثرة أمامه، مثلما يحاول أن يضع الساسة والحكام الشرطة في هذا المأزق على الدوام.

هل يبقى الأمر مرتهناً بإقرار الدستور الدائم الذي يحتكم إليه الجميع، حتى تعود للشرطة فاعليتها وهيبتها والمجد الذي كانت فيه وصنعه لها جيل عمنا "عثمان زين العابدين"؟!

هل يحتاج الأمر إلى إعادة دراسة المناهج في المدارس والجامعات والكليات الشرطية؟! أم يقتصر الأمر على تعليم كوادر الشرطة العلوم السياسية وحقوق الإنسان وعلم النفس، أي المواد التي تعينهم على أداء رسالة محدودة؟! ربما كانت الإجابات تحتاج إلى بحوث وكُتُب ومؤتمرات.

حملت السيرة الذاتية لعمنا "عثمان زين العابدين"، ضمن ما حملت من أشياء أخرى كثيرة بجانب هموم الشرطة وأوجاعها ومعاناتها وتضحياتها. لكنها على كُل حالٍ، هي مواقف تجربة عايشها العم "عثمان زين العابدين" وتتطلب إعادة النظر في دراسة أوضاع الشرطة ورعايتها وحمايتها، كي تكون هي القُوة الأولى المسئولة عن حماية المجتمع، ولا قُوة سواها..

إن رجل الشُرطة الناجح، هو الذي يعيش فـي قلـب المجتمع، يرهفُ السمع لنبضـاته، ويعـرف أحوالـه وسـبل استقراره لكي يكون آمناً مطمئناً. وأن رجل الشرطة النـاجح، هو الذي لا يجامل ولا يحابي أحداً على حساب القانون، مهما كانت صلاته النافذة. وأن رجل القانون الناجح، هو الذي يطور قُدراته الشُرطية عبر الثقافة والدراسة والإبداع، والتفكير فـي خُططه ومشاريعه الباحثة عن بث الأمن والأمان، لا أن يكتفي بالقانون وحده دون تفهمه، ولا الأوامر وحدها كما الأعمى.

هكذا كان "عم عثمان زين العابدين" من خلال سـيرته الذاتية التي نتعرفُ هنا على ملامحها من خلال هذا الكتـاب، الذي تضمخ بأريج تجربته، ولا شك أن سيرته هي جزء مـن التاريخ الاجتماعي والسياسي والثقافي السوداني، فـي حقبـة هامة من الحقب التي عاشها الوطن.

لا بد أن ثمة دروس عدة سيخرج بها القارئ، خاصـة ممن يعملون في مجال الشرطة.

لقد كان الاختيار صعباً بالنسبة لـ"عم عثمـان زيـن العابدين"، ولكنه عبر به إلى تحقيق طموحاته وأحلامه، بفضل عبقرية اتخاذ القرار السليم.

إبراهيم علي إبراهيم

USA

المقدّمة...

في البداية، يلزمني أن أوضح أنني أسرد هذه المذكرات من الذاكرة، ذلك لأنني في حالة اغترابٍ، بعيداً عن الـوطن، حيث توجد المعينات التي تساعد في عملٍ كهذا، مثل المراجع والوثائق والأسانيد، علاوة على أن هناك مـن مـد ا فـي أعمارهم وهم لا يزالون يتمتعون بـذاكرة متوهجـة، فكـان بالإمكان الاستعانة بهم إن دعا الداعي.

بما أن الجزء الأكبر مما سيرد ذكره من أحداث فـي هذه المذكرات، قد مضى عليها ما يزيد عن نصف قـرن، لا سيما، وقد ضعفت الذاكرة بسبب تقدم العمر، وعليه فقد فضلت أن أغفل ذكر التواريخ بشكلٍ عام بالنسبة لأي حدث، ما لم أكُن واثقاً ومتأكداً تماماً من صحته. وهنا ألتمس العذر من القـارئ بالنسبة لهذه المسألة المهمة، بأمل ألا تؤثر في المزاج العـام، الذي يمكن أن تُهيئه هذه المذكرات.

بما أنني "اللاعب" الأساسي – إن جاز التعبير– في هذه المذكرات، يكون بالضرورة أن كُل ما سأذكُره فيها، والذي يتعلق بحياتي بشكلٍ مباشر، فهو الحقيقة مجردة، حيث لا يمكن نسيانها. وأتحملُ المسئولية عنها كاملة. وفي هذا الصدد، سـوف أتعمـد إغفال بعض الأشياء التي حدثت بالنسبة لي أثناء مسيرة العمـر، وذلك نظراً لعدم أهميتها، كما قدرت. ذلك فـي مقابـل المهـم والأهم، الذي سنركز عليه بلا ريب. أما فيما يخص ما سـأذكره عن غيري من أخبار وأحداث، فقد استقيتُها أو سمعتُها مباشـرة

من رواتها، ومنهم أهلي الكبار – رحمهم ا جميعاً. وقد كـانوا أهلاً للثقة، لا يتطرق الشك لما أدلوا به.

مع كل ذلك أقول، سبحان من لا ينسى. لذا أرجو مـن القارئ الكريم، إن وجد في المذكرات هنات أو بعض ممـا لا يتفق أو يخالف ما يعرف، أن يجد لي العذر، ويمنحني علـى الأقل ما يستحقه المجتهد من نصيب.

قبل الدخول في مسيرة حياتي، سيجد القارئ مـوجزاً عن تاريخ الأسرة الممتدة.. أصولها وجذورها، فربما أفاد ذلك في التعرف على أسباب ما حدث، أو ما سيحدث فـي سـلوك وتصرفات أفرادها خلال مسيرة حياتهم. وإنني أعتز بأسـرة تُعد وطناً مصغراً لتعدد ثقافاته.

أيضاً، وبمثل ما سردتُ في المذكرات، كان انحيـازي الدائم للسودان وخدمته وخدمة مواطنيه. وأشهد إنني لم أفقـد حيادي بين القُوى السياسية المختلفة، ولم أتخل عن مهنيتي في خضم الصراعات التي كانت تحتدم من حين لآخر. وقد تطلب مني ذلك قدراً كبيراً من الصبر والمثابرة، حتى لا يظن طرف إنني أقف معه أو ضده. فأنا اعتز بعملي الـذي طُفـتُ فيـه الجهات الجغرافية الأربعة للسودان، ما أتاح لي ليس معرفـة تلك المناطق فحسب، وإنما طالت المعرفة الإنسان الذي يعيش على ثرى تلك المناطق. كما أن ذلـك جعلنـي أكثـر إيمانـاً بالتمازج الثقافي السوداني، وهو الذي يمكن أن يخطو بهذا البلد إلى الأمام، ويرتقي بها سلم التقدم والمجد والسؤدد.

عثمان زين العابدين

تكساس، أمريكا ٢٠١٧

الميلاد والنشأة

والدي هو زين العابدين كوكو عبدا ، تمتـع بسـيرة تاريخية عطرة. فهو نشأ وترعرع في منطقة ميري (تقع غرب مدينة كادوقلي، ولاية جنوب كُردفان) والتي ارتبطت سـيرتها تاريخياً بالفكي علي الميراوي، علماً بأنه لا ينتمي لها بحسـب النسب. ولكن قبيلة ميري نفسها ارتبطت بسيرة الفكي علـي، بحيث أنه كلما جاءت سيرة القبيلة، تتوارد لذهن النـاس ذكـر الفكي علي، والعكس صحيح أيضاً، إذ خلد ذكراها مثلما خلدت ذكراه. وقد عرف الفكي علي بلقب "ود المي" باللغة الدارجة، أي "ولد الماء"، ويروى أن سبب هذه التسمية أنه خلال غارة من غارات القبائل، وجده بعض المحاربين من القبيلة، وهـو رضيع، مستلق على حافة البِركة، فأخذوه وسلموه لأهله الذين كانوا قد افتقدوه، وبالتالي أطلق عليه ذاك اللقب.

في الواقع، يعود الدور البطولي الذي خلد اسـمه فـي سجِل القبيلة باعتباره قائداً تاريخياً فذاً، ومفجر الثورة الثانيـة بعد ثورة "ود حبوبة" المشهورة، والتي انـدلعت فـي العـام ١٩١٤م ضد الحكم الاستعماري الأجنبي (البريطاني) بسـبب التذمر من الضرائب الباهظة، والتي فُرضت علـى الأهـالي وأثقلت كاهلهم. وقد تزامنت تلك الثورة مع انـدلاع الحـرب العالمية الأولى، فشهدت البلاد ضنكاً فـي العـيش، لدرجـة استُورِدت فيها الحبوب من الهند، فصار المواطنون يسـمون تلك السنة "عام عيش الهند" للذكرى والتمييز.

قبل تلك الثورة، كان أهل قبيلة الميري، قـد دعمـوا الثورة المهدية بالعتاد والرجال، فهم أصحاب ثورة الجهاديـة. كان والدي قد حفظ القرآن في خلاوي كادوقلي، وأقـام فـي الأبيض من قبل ظهور الثورة المهدية بفترة طويلة. حيث افتتح

دكاناً للنجارة التي كان يجيدها إبان الحكم التُركي. وكـان قـد تعرف عليه "إلياس باشا أم برير"، ولفت انتباهه بإجادته تلـك المهنة، فعمل معه.

عندما جاء الإمام المهدي إلى الأبيض في بداية دعوته، نزل ضيفاً على "إلياس أم برير"، فصدق جدي دعوته، وانضم لجيش المهدية وحارب في معركة شيكان، وبعد عودة الجـيش تزوج من جدتي عزيزة بنت حماد، وهي من قبيلة "الضـباب" وهي قبيلة صغيرة تعيش في سفوح جبل الداير، والمعـروف الآن بجبل كُردفان، والمؤسف أن هذه القبيلـة علـى وشـك الانقراض، بحسب علماء الأنثروبولوجي. وقد عمرت جـدتنا هذه وماتت عن عمر تجاوز المائة بعشر سنوات.

عندما مارس البريطانيون نظـام السـخرة وفرضـوا ضريبة ما سمي بـ"الدقنية"، وهي ضريبة مهينة يدفعها كـل شخص بالغ عن نفسه، وكان قد فرضها الاسـتعمار التركـي أصلاً، تذمر الناس منها في كُل أنحاء السودان، وما لبـث أن تصدى لهم أهـالي ميـري، وتصـدروا التمـرد. وتعامـلَ البريطانيون معهم بقسوة، إذ أخذوا أبقارهم وماشيتهم، وتلـك الممارسات ولدت غُبناً وسط القبائل فـي منطقـة كـادوقلي، وتراكم الغُبن يوماً إثر يوم. ثم زاد الطين بلـة إثـر محاولـة البريطانيين بناء كنيسة ضد رغبة الأهالي، الـذين رفضـوها تماماً، وتلك كانت البداية في التوتر والتذمر، الـذي صـاحب العلاقة بين البريطانيين وأهالي ميري.

كان الفكي علي الميراوي رجلاً متديناً، ذهب الناس إليـه يلتمسوا مشورته. ولكنهم قُوبلـوا بـالمنع والقمـع والـبطش والتنكيل من قبل المحتلين البريطانيين، خشية أن يتمـدد نفـوذه، ففتح ذلك العنف باباً لاصطفاف القبائل التي في المنطقة كلهـا حول الفكي علي. أدى ذلك لحدوث صدامات متتالية، قُتلَ خلالها الكثيرين من المواطنين.

في العام ١٩١٤م، تجمع للفكي علي جيشاً قوامه ما بين خمسمائة إلى ستمائة مقاتل، قام بتدريبهم على نسق ما يعرف الآن بحرب العصابات. وعندما سرى الخبر، ونما إلـى علـم البريطانيين، قرروا إخماد الخُطوة في مهدها بقـوة صـغيرة. عندئذ سمع الفكي علي بتحركهم من مدينة كـادوقلي، فقـرر بخُطوة ذكية تنُم عن عبقريته القيادية ووطنيته وشجاعته، قرر أن يلاقيهم خارج المدينة، وذلك حفاظاً علـى أرواح الشـيوخ كبار السن والنساء والأطفال.

دارت معركة شرسة، اسـتطاعوا فيهـا إبـادة القـوة البريطانية بكاملها، وكان قوامها سبعون فرداً. وجـاءت قـوة أكبر على رأسها المفتش البريطاني نفسه، وكـان مصـيرها كسابقتها، فقد أُبيدت أيضاً وقُتلَ المفتش، فيما هرب اثنان وعادا إلى قاعدتهما في كادوقلي. ومن ثم انتهج الفكي علي أسـلوب حرب العصابات، أي الكر والفر، والذي غنم من خلاله أسلحة كثيرة من البريطانيين.

لم يكن ثمة خيار أمام الفكي علـي وجماعتـه سـوى مغادرة المنطقة والاتجاه نحو الأبيض. لكن الإنجليز لحقوا به وألقوا عليه القبض وحاكموه وأبعدوه إلى الدلنج كمنفى. كُنـتُ حينذاك صغيراً في السن لم يتعد عمري بضع سنوات، ولكنني ما زلتُ أتذكر تقاطيع وجهه المهيب وقامته الفارعة، ورؤيتـه عن قُرب تركت في نفسي انطباعات مؤثرة لم يمحها الـزمن بعد تطاوله. بل قد مثل لي مثلاً أعلى حينما شببتُ عن الطوق.

آنذاك، كان والدي يشغل وظيفة نائب مأمور الـدلنج، وكانت وقتها من الوظائف المرموقة والتي لا ينالها إلا ذو حظ عظيم. أذكُر أنه بعد فترة من نفي الفكي علي، خففت السلطات الاستعمارية البريطانية الحراسة حوله. كـان يمـنح حريـة الحركة بالنهار، فيأتي لزيارة والدي ويقضي سحابة يومه فـي

منزلنا، وعندما يجن الليل، يذهب للمبيت في الحراسة. وكـان الوالد يناديه بـ"عم علي" توقيرا واحتراماً.

نشأتُ في بيئة مليئة بالأجواء الروحانية وتراتيل الأناشيد الدينية والمدائح النبوية. ووجدتُ نفسي أعيشُ في أوساط أسـرة ممتدة وكبيرة. الكبار منهم كُنتُ أدعـوهم أجـدادي وأعمـامي، وسواء في المجاز أو الواقع، فهم كثيرون. أذكُر منهم على سبيل المثال، الخليفة الطيب (شقيق والدي زين العابدين) وكـان مـن المرشدين الأساسيين في الطريقة الختمية، وكان حسن الصوت. وشقيقاته هن: حسينية وكريمة وفضيلة. وهناك الشيخ عبدالرحيم الشامي، وكان من المرشدين في الطريقة الختمية أيضاً، والشيخ رجب من المرشدين في الطريقة الأحمدية، والشيخ عوض مـن المرشدين في الطريقة الأحمدية كذلك.

هناك تنوع جغرافي مميز في أوساط الأسرة الممتـدة. فجدتي أم والدي زين العابدين، هي عزيزة بت حماد، من قبيلة الضباب في جبل الدائر، جنوب كُردفان. ووالدتي هي عائشـة بت علي، من العالياب في الولاية الشمالية. وحبوبـة سـكرة والدة أمي من تقلي العباسية. كما أن الزوجة الثانية لوالـدي، حواء بنت جديد بن فرتاك، من منطقة راجا في الجنوب. أمـا زوجتي وشريكة حياتي، فهي سكينة عوض سعيد، من مدينـة الأبيض، وشقيقاتها هن: فطين ومريم وخدوم (زوجة العضـو المخضرم في الحزب الشيوعي السـوداني أحمـد بقـادي)، وزوجتي الأولى، هي بتول رجب، بنت عمي، فـي حـين أن حسن زين، هو أخي غير الشقيق. علماً بأن بعضهم سوف يرد اسمه مرة أخرى في سياق توثيق هذه المذكرات.

بيد أنني في ظل انتماءات بعض الأهل مـع الطـرق الدينية، بحسب ما ذكرتُ، كُنتُ منذ الصغر مغرمـاً بسـماع المدائح والأناشيد التي ترددها الطرق الصوفية المختلفة، وأداء طقوس الذكر مع هؤلاء، ولهذا ليس غريباً أن اكتشـف فـي

الكبر معناها، وقد ترسخت في ذهني وذاكرتي، وظل لسـاني يرددها دوماً بالرغم من جهلي بمعانيها. وكنتُ قـد درسـتُ الكُتاب (الخلوة) والوسطى في الأبيض بالقُرب من منزلنا.

الطريف في الأمر، أنني كُنتُ قد تعرفتُ في مدينة بارا على شيخ تبدو على سيمائه علامات الرزانة والوقار، واسـمه "الشيخ الدرديري"، جاء إلى جدي "كوكـو" وأنشـأ داراً فـي "الخلوة" التابعة له. كان جدي الشيخ رجب قد تعلم النجارة من والده، وكان نجاراً حرفياً ممتـازاً، يجمـع حولـه الحاشـية والعمال. وفي ذاك الوقت كان مهيمناً على مدينة الأبيض، لأنه كان مقرباً من "إلياس باشا أم برير"، الـذي يعـد أول حـاكم سوداني في عهد الاستعمار التركي تولى ذلك المنصب، وهـو ينحدر من قبيلة الجعليين، وكان غنياً ذي مالٍ وفير، ويمتـاز بالحنكة والمهارة في الإدارة.

كانت والدتي عائشة بنت علي قد حكت لي، أن جـدتي عزيزة بنت حماد، أي والدتها، قالت إن الإمام المهدي عنـدما جاء أول مرة استضافه "إلياس أم برير" في داره، وهو بدوره عهد لها بالاعتناء بملابس المهدي، وذلك بالطبع كان يعد شرفاً لا يضاهيه شرف، كما كانت تقرأ له راتب الإمام المهدي. وقد ظلت تحكي عن هذا التكليف، الذي بلغ حد التشريف، لفتـرة طويلة من عمرها، سواء سئلت أو لم تُسـأل. للدرجـة التـي أصبح فيها ذكر التكليفين مصدر فخرها ومحور حديثها بقيـة عمرها. لكن في واقع الأمر، إن ذلك ما كان ليحدث لولا قُرب جدي كوكو من "إلياس أم برير".

كان والدي زين العابدين كوكو، هو الاستثناء من بـين أقرانه وأبناء جيله، الذي دخل مدرسة نظامية بدء ممـا كـان يسمى آنذاك مرحلة "الكُتاب" وإستمر حتى السنة الثانيـة مـن المرحلة الوسطى، الأمر الذي أهله للعمل كاتباً في "دخوليـة" الصمغ، لأن خطه كان جميلاً. لكن أعتقد أن ذلك تم بناء على رغبته منذُ الصغَر، علاوة على نشاطه وطموحـه. وقـد تـم

إلحاقه من بعد بمدرسة "المآمير"، حيث درس فيها لمدة سـنة، ومن ثم تخرج نائب مأمور في العام ١٩١٩م ومعه آخـرون، أذكُر منهم محمود صابر وعبدالماجد أحمد.

والدي كان يعد غنياً بمقاييس ذاك الزمان، وإلى حد مـا كثير من أفراد الأسرة كذلك. أما الوالدة عائشة بنت علي، فوالدها أساساً كان يسكن منطقة العالياب شمال السودان، كمـا ذكـرت، وهو ينحدر من أصولٍ شايقية من منطقة القرير، اسمه علي أحمد الشيخ. كان يعمل في التجارة عندما اندلعت الثورة المهدية. ثـم حارب مع المهدية وتزوج الوالدة عائشة. ووالدتها الحاجة سكرة، وأهلها من منطقة تقلي العباسية، كان أخوها هو عم المك قيلـي، حاكم تقلي، وما زالت للعائلة امتداداتٌ هناك حتى اليوم. جـاءوا كلهم وسكنوا الأبيض. ومن بعد المهدية التي حاربوا جميعاً فـي صفوفها، سكنوا مدينة أمدرمان، أي بعد انتهاء حقبـة المهديـة. حيث امتلك الجد كوكو منزلاً كبيراً وواسعاً.

حدثتني الوالدة عائشة عن قصة درامية حدثت لها، قالت إنها عندما كانوا صغاراً، كانوا يلعبون في جدول قريب، وحدث أن مات كُل الأطفال الذين معها ولم ينج أحد من الموت سواها، وكُتب لها عمراً جديداً. أما أخوتنا أحمد فقير والنور فهم أخواننا غير الأشقاء. ووالدهم هو حسن أحمد شقة، وهم أولاد البخيـت. واعتقد أن والدي زين العابدين تزوج من والـدتي عائشـة فـي الأبيض سنة ١٩١٨ لأن ذلك تم بعد تخرجه من كلية المآمير في العام ١٩١٩، وكانت مهام خريجي كلية المآمير محصورة فـي الجوانب الإدارية والسياسية، وكان للمأمور بعـض السـلطات القضائية أيضاً، فهو يدير العمل بالمركز الذي يعمل فيه، ويكون تحت إشراف سلطات مفتش المركز البريطاني الجنسية، الـذي يفترض أن يكون أعلى رتبة من المأمور الذي يمنح "شـريطاً" واحداً، بينما المفتش يمنح "شريطين".

في واقع الأمر، لم أكُن أعرف في ذاك الزمان مأموراً سودانياً غير والدي، الذي رقي من نائب مأمور، وكـان قـد استمر في تلك الوظيفة إلى أن أحالوه للمعاش الإجباري فـي

العام ١٩٣٦، أي قضى نحو ١٩ سنة، وهي تُعد فترة طويلـة نسبياً. وسبب إحالته للمعاش، أنه ضـرب أحـد البريطـانيين العاملين معه، فهو كان كثير الشجار معهم، واتهموه بـأن لـه نشاط سياسي بحركة "اللواء الأبيض"، والتي تأسست في العام ١٩٢٤، لكن مع ذلك لم يجدوا عليه بينة، وأصـبح المفـتش البريطاني منذاك الوقت يضايقه بصورة دائمة، وهو من جانبه كان مصدر إزعاج بالنسبة لهم.

للتخاص منه، نقلوه إلى مديرية بحر الجبل (الاسـتوائية) وكان النقل للجنوب آنذاك بمثابة نفـي وعقـاب غيـر مباشـر للمغضوب عليهم، وهناك عمل أولاً في مركز شامبي، ومنه إلى مركز رومبيك، حيث شهد "ثورة النوير" التي حدثت في العـام ١٩٢٥ أو ١٩٢٦ والتي قُتل فيها مفتش المركز الإنجليزي مستر فيرجسون. ومن هناك، نقل إلى مديرية بحر الغزال، حيث عمل في مركز ديم زبير، ثم مركز راجا. وأخيراً عاد إلى منطقة جبال النوبة، وأقام في تلودي. وما لبث أن نُقلَ إلى سنجة، وبعدها إلى مركز دنقُلا، حيث اصطدم مع مفتش إنجليزي آخر اسمه "كان". وكان طاغية يتعمد إذلال الناس والإساءة لهم.

نُقلَ الوالد إلى مدينة ود مدني، وأوقف عن العمل، حيث عقد له "مجلس تأديب" والاتهام الموجه له، هو أن الديون التـي عليه زادت عن راتبه، وذلك يعتبر من الكبائر، التي تسـتوجب العقاب، ويطبق بصورة انتقائية على من يشاءون. فمنحوه ربـع المعاش الذي يستحقه كعقوبة له. ثم جاء إلى الأبيض كنـت قـد عرفتُ كل هذه الحقائق عندما أطلعتُ على الملف السري للوالـد في أضابير وزارة الداخلية فيما بعد. وهكذا كانت حياة والدي مع المستعمر مليئة بالمشاكل والاحتكاكات.

كذلك كان لديه نشاط في إطار مؤتمر الخريجين، فقـد درج على الاشتراك في الليالي السياسية والتظاهرات العامـة التي تندلع من حين لآخر. وكان نشاطه السياسي يصـب فـي اتجاه موالاته للحزب الاتحادي الديمقراطي لإيمانـه بمبادئـه،

ولمعرفته الشخصية بأقطاب الحزب إسماعيل الأزهري، بدوي مصطفى، خضر حمد ومحمد نورالدين، الذي كان مديراً للبنك الأهلي المصري بالأبيض.

أخيراً عوض والدي بفرق كبير في معاشه، أي منذ أن أحيل وحتى الاستقلال، وكان بالفعل مبلغاً كبيراً من المال منحه له السيد إسماعيل الأزهري، وجراء ذلك أصبح لا يعمل، إلى أن تم تعيينه في وظيفة قاضي أسواق، وكان ذلك في منتصف الخمسينات أو بعدها بقليل، وهي وظيفة تخول له أن يكون مسئولاً عن انضباط السوق بصورة عامة، وبسلطات قضائية محدودة، وقد استمر في هذه الوظيفة حتى بدايات السبعينات من القرن الماضي.

كان هناك مدير مديرية اسمه عبدا محمد الأمين، وهو من سبط التعايشة الموالين للمهدي، منح أذنه للوشاة، ومنهم واحد يسمى "حميدة"، قام ومعه آخرون بتأليبه على الوالد، وهم في الواقع حسدوه لأن أفقه واسع في بحور السياسة. فقام عبدا بفصله، وتبعاً لذلك جلس في المنزل عاطلاً عن العمل لفترة طويلة من الزمن. ولعل السبب في التطويل هذا يرجع إلى سماته الشخصية، فهو لا يحب ولا يجيد الركض وراء المسئولين للشكوى، ولكنه يحصر تعامله وراء المجاملات الاجتماعية واللقاءات الفردية الودية.

كُنتُ أنا أعلم هذه القصة التي حدثني بتفاصيلها الوالد، فاستقرت في ذاكرتي. ودارت دائرة الأيام، وبعد سنين عددا، جاء عبدا محمد الأمين إلى وزارة الداخلية يبتغي رخصة سلاح، وكان آنذاك قد فُصلَ من الخدمة. وكُنتُ أنا ضابطاً في الوزارة ومسئولاً عن رخَصِ السلاح. وعندما رأيتُه، تذكرتُ تعامله لوالدي وظلمه له، فأسمعتُه كلاماً قاسياً في الأخلاق، وقلتُ له: إنني بذلك آخذ بثأر والدي. فبكى وذرف دموعاً كثيرة.

أما أنا، فولدتُ في مدينة الأبيض في العام ١٩٢٥م، وعندما جئت مع الوالد إلى مدينة الدلنج، التحقتُ بخلوة "الشويحات"، وكُنتُ في الخامسة من عمري، وللمفارقة، هي

نفس الخلوة التي درس فيها الوالد وكُل أعمامي، أذكُـر أننـي حفظتُ من القرآن حتى سورة "تبارك"، وبعدها اُلحقتُ بالكُتاب (المدرسة الأولية) في مدينة الأبيض. وكان دفعتي في الفصل عبدالقادر المرضي. وكنا أصلاً معاً منذ فترة الخلوة. والحقيقة، لا أدري لماذا اُلحقتُ بمدرسة كُتاب الأبيض مـع أن مدرسـة كُتاب حي القُبة أقرب. أما مدرسة الأبيض الوسطى الحاليـة، فقد كان ناظرها هو عبدالرحمن بلال، أحـد رجـال التعلـيم الأفذاذ، وكان صديقاً لوالدي. واستمررتُ بصورة جيـدة فـي المدرسة، السنة الأولى، ثم الثانية، ثم نقلـت للسـنة الرابعـة مباشرة دون المرور على السنة الثالثـة، لأن مسـتواي كـان جيداً، وكُنتُ متفوقاً على أقراني التلاميذ.

أذكُر أن سبب دخُولي مدرسة الكُتاب في الأبيض، هو الشيخ محمد الحسن دياب، وهو أيضاً من كبار رجال التعلـيم آنذاك. وكان ناظراً لمدرسة الأبيض الوسطى، قابلـه والـدي وطلب منه ذلك، ولكن عندما جئتُ للمدرسة كان الشيخ محمد الحسن دياب قد نُقل من نظارة المدرسة، وخلفه أستاذٌ فظ القلب اسمه حسن الظاهر، كان بديناً ولونه يميل للحمرة، وكان يلجأ للضرب بسبب أو بدونه.

أذكُر أنه جلدني ذات مرة ١٢ جلدة من دون سببٍ، وهي المرة الوحيدة في حياتي التي اُجلد فيها، لهذا لـم أنسـها. وزاد غيظي أنني لم أرتكب خطأً أو جرماً يقتضي ذلك. وعندما انتهت الحصة، ذهبتُ وانتظرتُ أمام باب المكتبـة، وكنـت غاضـباً، وعندما خرج رآني، وسألني لماذا أقف هناك؟ فقلتُ له مباشـرة وبكُل جرأة: لماذا ضربتني يا أستاذ وأنا لم أفعل شيئاً؟ فاشـتاط غضباً، إذ كيف أساله مثل هذا السؤال، فأراد أن يصفعني "كف" ففلت منه ووليتُ راكضاً. والحقيقة لم أغفر له ذلك، حتى بعد أن كبرتُ وأصبحتُ ضابطاً في قطاع الشُرطة.

بعد سنوات، جاء ناظر آخر اسمه عبدالرحمن محمـد صالح خلفاً لحسن الظاهر. وكان على النقيض تمامـاً، حسـن التعامل ويتمتع بخُلق محترم. أما حسن الظـاهر، فقـد خلـق

عداوات كثيرة في كُل الأماكن التي عمل بهـا، ولا أظـن أن تلميذا كان يذكره بالخير. بل لقد سمعتُ كثيراً اسمه مصـحوباً باللعنات من التلاميذ وغيرهم.

أذكُر ذات يوم، وبعد سنين عدداً من تلك الفترة. كُنـتُ منهمكاً في عملي في مكتب الجنايات بوزارة الداخلية، فجاءني أحد أفراد الشرطة، وقال لي إن أحد المواطنين اشتكى حسـن الظاهر – بعد أن أحيل للمعاش – بدعوى أنه ضربه، وأُحضر للتحقيق. فطلبتُ من الشرطي أن يأتي به وكذلك الشاكي، ولكن قبل ذلك، طلبت منه أن يحمل الكراسي التي كانت في مكتبـي ويضعها خارجه، وقصدتُ بذلك ألا أعطيه فرصة للجلوس.

حينها تذكرتُ كُل ما كان يفعلـه بالتلاميـذ الصـغار. استمعتُ للشاكي، الذي كان اسمه "خميس"، ومن ثم طلبتُ من الشرطي أن يأخذ "حسن" خارج المكتب، فوقف لمدة سـاعتين على قدميه. وبعدها طلبتُ من الشرطي أن يأخذه إلى الحراسة إلى أن يأتي من يخرجه منها بضمانة. وعندما سـمع ذلـك، حاول الاحتجاج بقوله إنه إنسان معروف، فتجاهلتُه ولـم أول أدنى اهتمام لما قال. وحينها شعرتُ كأنني خلصـتُ حقـوق التلاميذ الذي تفنن في ضربهم.. الغريب في الأمر، إنـه لـم يتذكرني مطلقاً، وأنا من جانبي لم أحاول أن أذكره.

أذكُر أنني أعدتُ بناء منزلنا وهو "الحـالي"، بحيـث أضفتُ له عدة غُرف وديوان وصالة، كانت مكاناً أثيراً للوالد الذي يحلو له الجلوس في فنائه. بالإضافة لذلك، عكفتُ علـى بناء حوش آخر. وكانت هناك شجرة "نبق" كبيرة جداً ومعهـا شجرة "لالوب"، وكلتاهما كانت لثمراتها مذاقٌ حلو بشكلٍ غير عادي، وما زلتُ أتذكرهما، ولهذا كان يقصدهما كثيـر مـن الناس لقطف ثمارهما، ونحن كُنا سعداء لذلك.

تحدي الفشل

كانوا يدرسوننا في مرحلة الكُتّاب اللغة العربية والقرآن الكريم والحساب والجغرافيا بطريقة مبسطة. أما في مرحلة الوسطى فقد توسعت المواد، وأصبحنا ندرس العربي والحساب والجغرافيا واللغة الإنجليزية. كان الفصل يضم نحو أربعين تلميذاً. أذكر أنه في السنتين الأولى والثانية وسطى، كان ترتيبي متأخراً، وكان الحساب أصعب المواد بالنسبة لي، ولكن كان أدائي جيداً في اللغتين الإنجليزية والعربية، ثم تحسنتُ في الحساب عندما امتحنا من السنة الثالثة للرابعة، الأمر الذي رفع مستوى ترتيبي، حيث قفزتُ من المركز الثامن عشر إلى المركز الثاني، واندهشتُ جداً لذلك، وكذا الأسرة.

ثمة شيء أعتقد أنه ساهم في رفع مستواي، ذلك هو الموسيقى. دخلتُ الكشافة، وانضممتُ فيها إلى فرقة الموسيقى، وكنتُ أعزفُ على الصفارة، وكان يدربنا أحد مدربي فرقة الشرطة.. المفارقة، أنه بعد عدة شُهور، قال المدرب لأستاذي إنني لا أصلح في الفرقة الموسيقية، لأنه ليس لدي حاسة موسيقية، وبدوره بادر أستاذي وأخبر والدي. غضبتُ غضباً شديداً، وصممتُ على حلٍ بيني وبين نفسي، ولم أخبر به أحداً.

كان قراري استقطاع "مليم"، أو "مليمين" من مصاريف الدراسة، إلى أن أصبح ما جمعتُ يساوي قرش ونصف، فاشتريتُ صفارة حديد. وعندما عدتُ للبيت، بدأت في العزف عليها، ثم دربتُ نفسي على عزف إحدى مقطوعات المارشات الموسيقية، الأمر الذي أدهش عم عبدالرحيم، فناداني ذات يوم وقال لي مستغرباً: يا ولد إنت جنيت؟ كدلالة على دهشته. وركضتُ للشارع ولم تكن لدي مذاكرة دروس في ذاك اليوم،

فاستبقيتُ نفسي ودربتُها على العزف حتى بلغ عدد مقطوعات المارشات التي أجدتُ عزفها نحو سبع أو ثماني مقطوعات.

في صبيحة اليوم التالي، وفي حصة الكشافة، استأذنتُ من أستاذي، وقلتُ له: أريد أن أذهب لأستاذ الموسيقى، فقـال لي ألم يطردك من قبل؟ فقلتُ لـه: نعـم، ولكـن أريـده أن يختبرني مرة ثانية. وبالفعل أخذني نحو غرفة بعيـدة بعـض الشيء، وبدأتُ العزف بمصاحبة عازف آلة الترمبيت بصورة أدهشت الأستاذ أولاً، والذي من فرط دهشته طلب مني إعادتها أمام الفرقة، والذين بدورهم أبدوا دهشة لا تقل عـن دهشـة الأستاذ. بل حتى أنا شاركتهم الدهشة، وبدأتُ أسمع عبـارات الاستحسان تنهال علي من كُل حدبٍ وصوب.

شرع الجميع يسألونني عن الكيفية التي حدثت بها هذه النقلة. والحقيقة لم أكُن أملك تفسيراً أقوله لهم غيـر إرادتـي وصبري والتحدي. وهي ذات الآليات أو الملكات التي خُضتُ بها غمار تجارب كثيرة في حياتي فيما سيأتي ذكـره لاحقـاً. وأعطاني مدرس الموسيقي صفارة أفضل مـن التـي كانـت بحوزتي. وبعد شهر تقريباً، صرتُ أفضل عازف في الفرقة، لدرجة أنه عندما يغيب المدرب لأي سبب، أتولى أمر التدريب نيابة عنه.

بعد ثلاثة أو أربعة أشهر، أصـبحتُ رئـيس الفرقـة وأبديتُ رغبتي للأستاذ أن أتعلم العزف على آلة "الترمبيـت" فسمح لي، وبعد فترة قصيرة أجدته إجادة تامة. واسـتمررتُ على هذا المنوال، ولكن عندما وصلتُ مرحلة كلية غُـردون، قل اهتمامي بالموسيقى نسبة لمشـغولية الدراسـة، وأهملتُهـا بعض الشيء، ولكن كان ذلك إلى حين.

لكن قبل ذلك، حدثت حادثة مهمة، كان ذاك في احتفال يوم ١٧ يناير، ومناسبته أن الملك جورج الخـامس والملكـة ميري زارا مدينة بورتسودان لمدة ١٢ سـاعة فـي طريـق

عودتهما إلى بريطانيا قادمين من الهند، بعد أن شـهدا حفـل التتويج، الذي أقيم لهما في الهند، ومن ثم أصبحت سلطة الحكم الثنائي تحتفل سنوياً بذلك اليوم، والذي أصبح يسـمى "يـوم الملك المحرر"، وهو مناسبة مهمة تحتفل بها البلاد والمدارس خاصة.
تم تخطيط احتفال سنوي كبير في كُل المدارس بتشريف مدير المديرية، وفرقة الموسيقى، هي التي يفترض أن تقود الطابور. لكن الذي حدث، أن التلميذ الذي يعزف على آلة "الترمبيـت" مرض فجأة، والمعروف أنه أهم عنصر في الفرقـة. الشـاهد أنني قلتُ للمدرب: أنا سوف أعزف عوضاً عنه، فقـال لـي: كيف تعزف على الترمبيت، وأنت أساسـاً عـازف صـفارة؟ فتناولتُ آلة "الترمبيت" وبدأتُ العزف عليهـا، فلاقـى ذلـك استحساناً وارتياحاً لدى المدرب الذي أخرجته مـن ورطـة. والحقيقة حتى أنا لا أدري انفتاح أسرار الموسيقى علي بتلـك الصورة المذهلة وغير المألوفة، حتى للأساتذة.

بداية رحلة الألف ميل

عندما وصلنا مرحلة الرابعة وسطى، تقلص عدد التلاميذ من الأربعين لأسبابٍ كثيرة. فمن جملة أربعين تلميذاً، صار عددنا نحو ٢٢ تلميذاً. وهم الذين جلسوا لأداء امتحان كلية غُردون، فنجح منا أربعة فقط، وكُنتُ بينهم بترتيبٍ عالٍ جداً. والذين نجحوا معي، وقُبِلوا في الكُلية هم: يوسف عبدا من أهالي مدينة كوستي، إبراهيم سعيد من الأبيض من قبيلة الجعافرة، ومحمد عبدالرحمن عبدالرضي أيضاً من الأبيض، ورابع سقط اسمه من ذاكرتي.

في واقع الأمر، كان عدد المدارس الوسطى قليلٌ جداً في تلك الفترة. منها اثنان في العاصمة الخُرطوم، وواحدة في كلٍ من حلفا، الأبيض، مدني وبعض مدن أخرى، ومن جملة هذه المدارس كان يتم اختيار ستين تلميذا فقط لكلية غُردون، لهذا كانت المنافسة قوية جداً، فالذي يقبلُ في كلية غُردون يكون ذلك مدعاة لسلسلة احتفالات متواصلة، وقُبول هدايا من الأهل والأصدقاء. أذكُر بهذه المناسبة، أن أول هدية منحني لها والدي كانت كاميرا تصوير فوتوغرافي، وبعدها أصبح التصوير هوايتي المفضلة حتى اليوم، بعد أن بلغت من العمر عتياً. هذا إلى جانب هواياتي الأخرى بالطبع.

كانت الأوضاع في كلية غردون تختلف تماماً عن العالم الخارجي الذي نعيشه أو قدمنا منه. فالكلية تتسم بالنظام الشديد والصرامة في القوانين. مثلاً كان الميز "السكن" مقسم لداخليات بحسب الأقاليم، فهنالك الخُرطوم العاصمة، الشرقي، الغربي، الشمالي، وهكذا. آنذاك كان والدي يعمل في مدينة دنقُلا، الأمر الذي أتاح لي زيارته في العطلات، وتعرفتُ على

طلبة من مدينة دنقُلا يدرسون معي في الكلية، كان ذلك نحـو العام ١٩٣٥ ولذلك فضلتُ أن أسكن مع أبناء دنقُلا في الكلية.

واصلتُ الدراسة في كلية غُردون لعامين متوالين، وفي أواخر العام الثاني، أحيل والدي للمعاش، فعجزتُ عـن دفـع المصاريف التي كانت عبارة عن خمسة جنيهات، فاضطررتُ لترك الدراسة في الكلية. وحضرتُ للأبيض، وظللـتُ لفتـرة دون عمل، ولما كان معاش الوالد ضعيفاً للغاية، واجهنا ظروفاً قاسية في المعيشة، وتعبنا من أعباء الحياة الكثيرة.

في أثناء ذلك، كان لدينا جار اسمه محمـد رحمـة ا الهندي، وكان يعمل في شركة اسمها "فارس" وأصحابها مـن الشوام (يطلق الاسم على السوريين واللبنانيين) فقـاموا بفـتح فرع للشركة في تقلي، وأُوكلت إدارته لمحمد الهندي، فطلـب منه أهلي أن يأخذني للعمل معه فـي ذاك الفـرع. وبالفعـل، ذهبتُ معه وقرر أصحاب المحل منحني ثلاثة جنيهات كراتب. وكان يعد مبلغاً كبيراً. فواصلتُ العمل وخصصـتُ مـن ذاك المرتب جنيهين، أرسلهما لأسرتي، ورتبـتُ حيـاتي للعـيش بالجنيه الثالث المتبقي.

كان عملي في الشركة مزدوجاً بين الحسابات وترتيب البضائع، إضافة للبيع وأشياء أُخر. واستمر ذلك زهاء العـام تقريباً (نحو تسعة أشهر) وكُنتُ في غاية المسئولية والانضباط والسعادة. لكن بعد فترة بدأتُ أشعر بالملل، وتملكتني فكرة أن هذا العمل لا يروق لي، فتركته على الفور، وعدتُ للأبـيض. فانزعج الوالد، ولكنني أخبرتُه بهدوء بأن هذا العمل لا مستقبل له، فتقبل مني التبرير على مضض.

اقترحتُ على الوالد أن أذهب للخُرطوم، فطلب مني أن نذهب معاً. وهناك قصدنا متجر أحد أصدقائه الكثيرين، وهـو من أهالي مدينة ود مدني وكان تاجراً كبيراً، فطلب منه والدي أن يجد لي وظيفة معه، فأبدي ترحيباً بأن أكون معه، ووجـد

لي وظيفة لديه في المتجر. فعملتُ لعدة شُـهور ولكـن نسـبة لطموحي الكبير، كان كلما ظهرت لي فرصة في عمل آخر أقدم له طلباً، وكان آخرها في مدينة هيئة السكة حديد.. مدينة عطبرة.

كان لوالدي صديقٌ اسمه عزالدين مختار، وكان يعمـل مفتشاً بالسكة حديد، وهي وظيفة كبيرة، وفي ذاك الوقت كانـت الوظائف الكبيرة حكراً على الإنجليز. فكتب له الوالـد خطابـاً، ومن جهة ثانية، كان هناك العم خليفة خوجلي، وهو كاتب محكمة مدينة عطبرة. وكذلك العم صالح سليمان، وهو محاسب في السكة حديد أيضاً. كتب لي الوالد الخطاب، فأخذتُـه وذهبـتُ لمدينـة عطبرة، وقصدتُ العم عزالدين مختار، الذي استضافني ورحب بي ترحيباً شديداً نظراً لعلاقته الحميمة مع الوالد.

بدأ يبحث لي عن وظيفة، والتي وجدها فـي غُضـون أسبوعين فقط، حيث ظهرت وظائف في السكة حديد لمحاسبين وكتبة. فقدم لي طلباً، فعقدوا لي امتحاناً بعد ثلاثة أيام. كانـت المعاينة عبارة عن امتحان في مواد مختلفة حساب، عربـي، إنجليزي، وكانت المنافسة حادة لأن الوظائف محدودة، وهـي في الواقع لا تتعدى الخمسة، في حين كان عدد المقدمين نحـو ثلاثين شخصاً. عندما ظهرت النتيجة بعد يومين، كُنتُ ضـمن الخمسة الذين اجتازوا الامتحانات وقُبلت. كان المرتب ثـلاث جنيهات أيضاً، ومثلما فعلتُ في الوظيفة السابقة، بدأتُ أرسـل ثلثيها للأسرة وأعيش بالثلث المتبقي.

لاحت لي فرصة جيدة لتلبية رغبة دفينة، حيـث كانـت هناك مكتبة بجوار السكن الداخلي الذي أسكُن فيه مـع آخـرين. فبدأتُ أقضي فيها وقتاً كبيراً في المطالعة، ألتهم كثيـراً مـن الكُتُب بنهم شديد. والحقيقة كنتُ أجد متعة فائقة فـي قضـاء معظم الوقت هناك. وبعد سبعة أشهر من تعييني ظهرت وظيفـة تتطلب امتحاناً يشرف عليه السكرتير الإداري علـى مسـتوى السودان ككل، حيث يتم اختيار محاسبين ومترجمين من الدرجة الأولى. والمختارون أغلبهم من خريجي كلية غُردون، ومـن

يقع عليه الاختيار، يعين في الدرجة (٦-ل) براتبٍ قدره ستة جنيهات ونصف.

كان عدد الذين امتحنوا لتلك الوظائف كبيراً جداً نظراً لإغراء الراتب، وبالفعل ظهرت نتيجة المعاينات بعد نحو شهرين وربما أكثر قليلاً، وتم اختياري أنا من عطبرة، وواحد آخر اسمه عباس عبادي، الذي عمل مفتشاً في مشروع الجزيرة مؤخراً. تم استيعابي في وظيفة محاسب في الدرجة (ل) وخيروني بين البقاء في السكة حديد، وبين الكشف العام التابع لوزارة المالية، فاخترتُ الثانية، بالرغم من أن الزملاء الذين كنتُ أعمل معهم في السكة حديد طلبوا مني البقاء معهم، ولكني فضلتُ تجربة أخرى جديدة وأصبحتُ محاسباً في وزارة المالية.

قبل هذا، حدثت لي قصة مثيرة بعض الشيء، لأنه كان لوقعها معنى في حياتي، وهي من جهة ثانية تؤكد طبيعة المجتمع السوداني في ذاك الوقت. أي في الفترة التي سبقت انضمامي للسكة حديد، ومن ثم وزارة المالية. كان هناك شاب من شباب المجاد اسمه "بشير جودة"، وكان يعمل مراسلة في شركة "جيمس لينج"، وهي شركة إنجليزية تعمل كوكيل في مجال الصمغ العربي. كان "بشير جودة" في غدوه ورواحه بشارع منزلنا، الذي يقع بالقرب من منزل الشاعر الفطحل محمد عوض الكريم القُرشي، كنا نتجاذب أطراف الأنس مع بعض كلما رأيته أو رآني.

كان "بشير" شاباً طموحاً، ترك العمل في الشركة وأصبح "مكوجي"، إذ فتح محلاً لغسل ملابس الموظفين السودانيين والإنجليز، وعندما اتسع عمله، كان قد استأجر عدداً من العمال لمساعدته في العمل. كان آنذاك غسل الملابس يتم بالبنزين، إذ لم يعرف الناس الغسيل الجاف Dry clean بعد، وشاءت الصدف عندما حضرتُ للخرطوم أن التقيته، وكُنتُ آنذاك أبحثُ عن عملٍ، كما ذكرتُ من قبل، ولم

أجد مكاناً آوي إليه، ولم أشأ أن أسكُن في مدينة أمدرمان مع الأهل.

سألني "بشير" عن أحوالي، ولما علم أنني أبحث عن سكن، اقترح علي أن اسكن معه في "دكان المكوة"، الذي يملكه وكان بالقرب من المديرية، وتحديداً بالقرب من عمارة يطلقُ عليها "عمارة المجانين". كان هناك حوش كبير جداً خلف المحل، نقوم بنقل طاولات المكوة لننام عليها في ذاك الحوش. وفي الصباح، أبدأ رحلة البحث عن عمل، ونتناول وجبة الغداء معاً. استمر ذلك حتى لحظة مغادرتي الخُرطوم إلى مدينة عطبرة لأعمل في السكة حديد. لكن تلك الفترة أعتبرها مهمة في حياتي، بما فيها من معاناة جميلة.

للتدليل على ذلك، كُنتُ قد عدتُ للخُرطوم للمرة الثانية بعد أن أصبحتُ موظفاً في درجة محترمة "إسكيل جيه (ل)"، اتجهتُ مباشرة من محطة القطار إلى دكان "بشير"، فرحب بي ولم يصدق إنني أصبحتُ موظفاً كبيراً، ومكثتُ معه أياماً قليلة استعدنا فيها ذكريات تلك الأيام. وذات يوم قال لي "بشير"، طالما أنني أصبحتُ موظفاً كبيراً، فلا بد من أن أسكُن في منزل يليق بوظيفتي، فبحث لي عن سكن جماعي "ميز" مع أربعة موظفين، منهم من عاصرته في كلية غُردون، فسكنتُ معهم.

أيضاً، قال لي "بشير" ذات مرة، أنني لابد أن أرتدي بنطالاً وقميصاً بدلاً من الجلابية كزي "إفرنجي"، لأن ذلك – بحسب وجهة نظره – يليق بمكانتي الوظيفية، لكن حينها لم أكن أملك مالاً كافياً. قال لي: ليست هناك مشكلة، فأخذني لمحل الترزي الشهير "عابدين عوض"، وكان أيضاً صديقاً لوالدي، علاوة على ذلك، أوصاه "بشير" بي خيراً. فأختار لي ثلاثة بدل، وأربعة قُمصان، وحذاءين وجوارب، وكان مجموع ثمن ذلك ثلاثة عشر جنيهاً، كدين وعلي أن أسدده بالأقساط.

بالفعل، في أول راتب دفعتُ له ثلاثة جنيهات، ومن ثم خمسين قرشاً كُل شهر. وكُنتُ أرسلُ للأسـرة فـي الأبـيض جنيهين ونصف، وأدفع مشاركتي في السكن نحو مائة وخمسة وعشرين قرشاً (١٢٥) وأخصص لنفسي خمسـة وعشـرين قرشاً، وأوفر جنيهاً كُل شهر. ثم اعتدتُ على برنامج يـومي روتيني. كُنتُ عندما أعود من العمل، أغير ملابسي وأرتـدي الجلابية في المساء وأذهب لـ"بشير" في الدكان، وأجلس معه نتجاذب أطراف الحديث والأنس الجميل، حتى يحـين وقـت صلاة العشاء.

استمررتُ نحو سنتين في وزارة المالية، وبعـدها تـم نقلي إلى وزارة الزراعة محاسباً بالقرب من الهيئة القضائية. وهناك تغير نشاطي الاجتماعي، حيث أصبحت من رواد نادي الخريجين ودار الثقافة. فكُنتُ أقضي فيهما أوقاتاً طيبة، وكونتُ علاقات اجتماعية مميزة مع كثير من مرتادي المكانين. أمـا "بشير"، فقد حدثت له نقلة أيضاً. إذ تـرك الـدكان ومنحـه "الأفندية" القائمون على أمر دار الثقافة غُرفة فيها، وكان فـي غاية السعادة والقناعة.

هناك قصة أذكرها، لأن لها ما بعدها في سياق تسلسل ما نحن بصدده. عندما كُنتُ في وزارة الماليـة ذات صـباح، وتحديداً في الخامسة صباحاً، كُنتُ متجهاً نحو محطة السـكة حديد لمقابلة أخ قادم من مدينة الأبيض، وبينما أنا سائر فـي الطريق، وكانت العربات آنذاك محدودة يكاد المرء يحصـيها واحدة تلو الأخرى، بمعنى أن العربة السائرة في الطريق يكون منظرها غريباً. وبعض الناس يعرفون بعضهم مـن لـون أو ماركة عرباتهم، فكثيراً ما يتبادلون التحايا مـع المـارة فـي غدوهم ورواحهم.

عندها اقتربت مني عربـة، شـاهدتُ السـيد علـي الميرغني بداخلها، والحقيقة لم أره من قبل سوى في الصحف، وكذلك صورته التي كانت مطبوعة على زجاجة عطر يسمى

"بت السودان"، ونحن أساساً من أسرة ذات جذُور تنتمي لطائفة الختمية، فعزمتُ واتجهتُ مباشرة نحو السيارة للسلام على سيادته. وبالفعل، رفعت يدي للسائق، فتوقف على بعد نحو خمسة ياردات مني، فمسكتُ يد السيد علي وقبلتُها وقلتُ له: **«أنا فلان الفلاني، وعمي الخليفة الطيب كوكو الذي خلفته أنت، وأنا موظف جديد أطلب منك الفاتحة»**. فقال لي: **«ربنا يسهل عليك أمورك ويفتح لك أبواب الرزق ويبارك فيك»**.

الحقيقة، منذ تلك اللحظة لم يقف أمامي ما عثر مسيرتي في الحياة، ولا أدري إن كان بفضل دعائه، أم بمثابرتي واجتهادي، أم بتوفيق من رب العالمين. لكنني كسائر أهل السودان كُنتُ اعتقد أنه رجلٌ صالح ودعواه مستجابة، ولكن لا استطيع أن أغفل العامل النفسي كذلك.

بعد عدة شهور في وزارة الزراعة. كان هناك موسم سنوي للمحاسبين للعمل في طلمبات المديرية الشمالية (نوري ومروي والقرير ومنصوركتي) ويدفع لهم بدل سفرية بواقع سبعة جنيهات في الشهر ولمدة ثلاثة أشهر. فطُلب مني الذهاب، وتحركتُ نحو المنطقة في المديرية الشمالية، كُنتُ أحملُ شنطة حديد وضعتُ فيها ملابسي وكُل مستلزماتي. وهي منطقة بها مشروع زراعي ضخم، كذلك يوجد بها قصر كبير للسيد علي الميرغني، إلى جانب مزارع يمتلكها.

أثناء وجودي في المنطقة، حضر السيد علي لقضاء عطلة اعتاد عليها في كُل منطقة، ولم أكُن أعلم بها مسبقاً. فاحتشد الناس بصورة خيالية، وجاءوا من المناطق المجاورة زرافات ووحدانا، وكذلك من شندي وعطبرة وحلفا القديمة والخُرطوم وأماكن أخرى. كانت أعدادهم تُحصى بالآلاف، فتبعثروا في الشوارع كما النمل. جاء بعضهم راجلاً وبعضهم على ظهور الدواب، وكانوا يسهرون طيلة الليل على دقات الطبول والإنشاد والذكر على مدى ثلاثة أيام متواصلة.

جاء مدير المديرية ومعه مسئولون وبعض أعيان البلد، وبما أنني موظفٌ في المشروع، انضممتُ للوفد، وعندما رآني السيد علي الميرغني، تبسم دليلاً على معرفتي. وجلسنا معه جلسة خاصة، والذي أذهلني أثناء لحظة مصافحتي له أنه قال لي مباشرة: **«كيف حالك يا عثمان يا ابني؟!»**.. والحقيقة أنني دهشت، لأنني لم أكن أتخيل أنه سيتذكر اسمي من مقابلة عابرة في الخُرطوم ذكرتُها من قبل. ثم رفع يديه وهو يدعو لي، فانشرح قلبي لذلك وغادرنا مقره.

انتهت مأموريتي في ومنصوركتي. كان من المفترض أن استقل الباخرة بعد عودتها من مدينة دنقُلا، فوصلني تلغراف يفيد بأن المحاسب الذي يعمل في القرير توفي والده، وفيه توجيهات تقتضي أن أذهب لأحل مكانه حتى وصول بديلٍ آخر من الوزارة. وكان هناك مقابلٌ مادي يدفع للمأمورية، عبارة عن خمسة وعشرين قرشاً في اليوم. فذهبتُ وأنا سعيد بالعائد المادي، الذي سوف يحسن من أوضاعي المالية. ومن حسن حظي، وصل توجيه بعد قضائي شهراً في المشروع، وطُلب مني البقاء لمدة ثلاثة أشهر أخرى، وواصلتُ عملي في القرير وكان ذلك نحو العام ١٩٤٢ أو العام ١٩٤٣

هذه الفترة أحدثت تحولاً أساسياً في حياتي كلها، بعد أن طلبوا مني البقاء أكثر. كان العمل بسيطاً، وأصبح لدي فراغ كبير، ففكرتُ أن أملأه بشيء مفيد. كان معي في المشروع مفتشٌ إنجليزي اسمه "أرجيلينك"، وهو شاب صغير وخريج جامعي. فاتفقنا مع بعض، بحيث أعلمه اللغة العربية وهو بدوره يقوي من لغتي الإنجليزية. وذلك قادني للتفكير في دراسة منتظمة (من خلال الجرائد الإنجليزية التي تصله ويمنحني لها لقراءتها) وتسمى الدراسة International Correspondence School (ICS) "مدرسة المراسلة العالمية". فشاورته وشجعني على ذلك، فكتبنا خطاباً وأرسله للمدرسة، وبعد نحو أسبوعين تقريباً وصلنا الرد الذي يتضمن

الشُروط، والمصاريف للكورس، وجميع الأوراق التي تحتوي على امتحانات في الجغرافيا والتاريخ والرياضـيات لمعرفـة مستواي الدراسي. هنا يجب ملاحظة أن البريد كان منتظمـاً بين السودان وبريطانيا، ويسير بصورة عادية، رغم الحـرب العالمية الثانية التي كان يدور رحاها آنذاك.

أنجزتُ ما طلبوه مني وأرسلته، فجاءني الرد مرة أخرى بالقُبول، وقالوا لي إنهم حددوا مستواي وكـان الهـدف مـن الكورس، هو الإعداد لامتحانات كمبريدج، وكانت تكلفة الكورس ١٢ جنيهاً، بما فيها الكتب. ويمكن للطالب أن يبقى في الكـورس لأي فترة يشاء، إلى أن يشعر بأنه جاهز لأداء الامتحانات.

علي ذاك المنوال، بدأوا يرسلون لي مذكرات بصـورة منتظمة، وأقوم بالمطلوب، وكان المفتش يساعدني. كُنتُ طموحاً وأقبلتُ على الدراسة بشهية ورغبة كبيرة في الوصول للهـدف. وكنتُ في مراجعاتي أركز على المواد الثلاثة، وأرسلوا لي كُتُب أدب كذلك، وأصبحتُ أتحدثُ الإنجليزية بطلاقة، واستمر ذلـك لنحو عامين، أخبروني أنني أنجزتُ الكورس (إنجليزي، جغرافيا، تاريخ) وأرسلوا لي امتحاناً تمهيدياً صـغيراً، تهيئـة للامتحـان النهائي، والذي سوف يرسلونه لي عن طريق الدائرة الحكوميـة التي أعمل بها، وهي وزارة الزراعة.

بعد نحو شهر ونصف الشهر وصل خطاب من مـدير الزراعة، وكان بخُصوصي، وأفاد بأن أكون في زمان ومكان معين في الخُرطوم لأداء الامتحان. ومن حسـن حظـي، أن العمل كان قليلاً آنذاك، فـأخلوا طرفـي وذهبـتُ الخرطـوم وقصدتُ صديقي "بشير جودة". وفي الموعد المحدد، ذهبـت إلى كلية غُردون، وقدمتُ لهم نفسي، فأخـذوني إلـى قاعـة الامتحانات، حيث أديتُ الامتحان، والمفارقة أنني كُنتُ وحدي. وكان الامتحان في مظروف مغلق بالشمع الأحمر، تـم فتحـه أمامي. كان للأمر هيبة كبيرة. الامتحان كان عبارة عن ثلاثة ورقات، مدة كل ورقة ساعتان وبينهم نصف سـاعة راحـة.

كانت الورقة الأولى لغة إنجليزية وأديتُهـا بصـورة جيـدة. والثانية جغرافيا والثالثة تاريخ. وبعد أن فرغتُ، تم أمامي قفل المظروف بالشمع الأحمر كما كان من قبل.

ذهبتُ لوزارة الزراعة، ووجدتُ المفتش مستر كيـنج، مسئولنا المباشر وحكيتُ له ما حدث، فسعد سعادة بينة، وقدر مجهودي ذاك، باعتبار أنني أول موظف معه يخطو خُطـوات جادة في هذا الطريق. فمنحني أسبوعاً لكي أقضيه للترفيه عن نفسي في العاصمة الخُرطوم. وكان "بشير" قد حجز لي فـي "لكوندة المحطة" بالقرب من السكة حديد، بأجرة يومية للغرفة تبلغ ١٥ قرشاً. كان "بشير" دائم الاحتفـاء بـي، باعتبـاري صديقه الذي أصبح موظفاً كبيراً. وكان يقول لمن يعرفه، إنني سوف أكون "حاجة" كبيرة في هذا البلد. وكان يعزمنـي فـي نادي دار الثقافة خصيصاً للتباهي أمام معارفه. والحقيقـة أن ذلك كان يشرح صدري ويزيدني طولاً وفخراً بنفسي.

أذكُر خُطوة جانبية، ولكنها وضـعت بصـماتها فـي حياتي. إذ أعادت لي هواية سلبتها مني ظروف العمل. كانـت هناك شركة إنجليزية اسمها "لينيرز" تتعامل بطريقة حضارية راقية في ذلك الوقت. كانت تُروج لمنتجات عالمية كثيرة مـن خلال الكتالوج (دليل المبيعات) لمن يرغب On line، وذلـك باختيار المطلوب برقم خاص، يرسل إلى الشركة "كـاش أون ديلفري" (Cash on delivery) بواسطة البريد، أو البوسـتة، ويعطوا المشتري حافظة، وبعد دفع الثمن، يسـتلم المشـتري الطرد بعد الوصول. وكُنتُ أتعاملُ مع تلك الشـركة بطلـب شراء ملابس أحياناً، وأذكُر أن للجنيه السوداني قيمة معتبـرة بين العملات آنذاك. فقد كان أكبر سعراً من الجنيه الإسترليني، في حين لم نكُن نتعامل بعملة الدولار بعد.

للتدليل على رفاهية الشراء بالبريد، أذكُر أنني طلبـتُ مرةً آلة كمان "كمنجة" وكان سعرها خمسة وسبعون قرشاً أي

أقل من جنيه. ولعل ما حفزني وأغراني على شرائها، هو أنني كُنتُ أرى الدكتور محمد آدم أدهم، يعزف عليها أحياناً في مناسبات خاصة، فأعجبني ذلك. المهم، أن الشركة أرسلتها لي بعد أيام قليلة من إرسال طلبي. الغريب في الأمر ولسبب لا أدريه سوى اللامبالاة، هو أنني أهملتها بعد وصولها، وظلت لفترة طويلة دون أن ألمسها، بالرغم من أن معها كتيباً إرشادياً (كتالوج) للشرح وصافرة لوزن الأوتار.

ذات يوم تحمستُ وتحفزتُ للتدريب عليها. فبدأتُ بمحاولات كثيرة، من خلالها تعلمتُ كيف أعزف المقطوعة الوطنية الشهيرة "عازة في هواك"، ومنها انطلقتُ لعزف أي أغنية تأتي على بالي. بعد ثلاثة أشهر وصلت إشارة من مدير وزارة الزراعة للمفتش الذي يرأسني، وبدوره سلمني لها فوجدتُ فيها تهنئة لي منه ومن وزير المعارف، بنجاحي في الامتحان الذي أديته. فكانت تلك دفعة معنوية كبيرة. حينها كتبتُ لوالدي وزففتُ له خبر اجتيازي الامتحان ونجاحي، فرد علي بضرورة حضوري إلى الأبيض. قال لي: يكفي اغتراب، ولسوف ينقلني إلى الأبيض، فلديه أصدقاء في وزارة المالية يستطيعون ذلك.

لكن قبل أن أغادر، يجدر بي أن أذكر قصة طريفة حدثت لي في منطقة منصوركتي.

منصوركتي والوسواس الخناس

تلك قصة درامية طريفة حدثت لي في منطقة منصوركتي. كُنتُ قد نزلتُ ضيفاً في الاستراحة التي كانت تُخصص لكبار الموظفين. فأعدوا لي غرفة، وكانت هناك حديقة شبه مهجورة في الاستراحة. لم يكن ثمة أي شخص معي، غير خفير كان يقضي معظم يومه معي، ويغادر لمنزله في المساء، أي حوالي الساعة الثامنة. ودرجتُ على تناول وجبة الغداء مع المحاسب الأول واسمه علي طالب ا . وهو

من أهالي منطقة القطينة، والذي أصبح له باع كبير في تأسيس حركة الإخوان المسلمين لاحقاً.

كان الخادم الذي يعمل مع طالب ا ، يأتي إلي بطعـام العشاء والرتينة (المصباح) حيث أعكفُ على القـراءة حتـى يداهمني النوم في ساعات متأخرة. مضت الأيام الأولى علـى هذا النحو، وبعد بضعة أيام تناولتُ عشائي بعد أن فرغتُ من القراءة كالعادة، أغلقتُ باب الغرفة وآويتُ إلى فراشي. وفجأة رأيتُ قطة صغيرة تُصدر صوت مواء متواصل، فانتهرتها ولم تتحرك قيد أنملة، فتركتُها لعل وعسى يداهمها النوم مثلي. لكن فجأة، رأيتُ القطة الصغيرة تكبر وتكبر، وصارت تحدق فـي وجهي ملياً. أقشعر بدني وسرى الخوف في قلبـي، فتناولـتُ المصحف وبدأتُ أقرأ وأتلعثم دون جـدوى. عندئـذ تركـتُ الغرفة راكضاً نحو منزل علي طالب ا ، وأمام المنزل تعثرتُ وسقطت، وفجأة شعرتُ بشيء يرفعنـي لأعلـى، فتحسسـته فوجدتها يد علي طالب ا ، وكُنتُ ألهـثُ وأتصـبب عرقـاً، فحكيتُ له القصة، وكانت القطة قد اختفت بعـد مطـاردتي، فاقترح علي طالب ا أن اقضي معه الليلة، وإن لم يغمض لي جفن حتى مطلع الفجر.

في الصباح جهزوا لي غرفة أخرى من بيوت العمال، وقالوا لي، إن الغرفة التي سكنتُ فيها مسـكونة (أي يسـكنها شياطين وجن)، وأن ما حدث لي الليلة الماضية كان قد حدث لآخرين قبلي. وصارت الروايات تنهال من متبـرعين كُثُـر، بعضها أصحابها ذوو خيالٍ جامح. وهناك من قال لـي مـن الأهالي، دعنا نبحث لك عن أحد من الفقراء الصـالحين فـي المنطقة ليكتب لك "محاية"، لكنني لم أتحمس للموضوع، ولكن منذاك الوقت، لم أعد لتلك الاستراحة مرة أخرى.

ختام قصتي في المديرية الشمالية، وبعد أن تم نجاحي كما ذكرت، حملتُ كمنجتي واتجهتُ صوب الأبيض، بحسـب طلب الوالد.

حياة أخرى جديدة وهوايات متعددة

عندما وصلتُ الأبيض، أخبرني والـدي أننـا سـوف نذهب للخُرطوم لنقصد أحد المفتشين الإنجليز الذين عمل معهم في مدينة سنجة وأسمه مستر ديفيز. كان مفتش مركز، (مـن مفتش في السلك الإداري إلى مفتش في السلك المالي)، وكـان يعمل معه خادم سوداني اسمه "السر"، والذي أصـبح يلقـب بـ"السر ديفيز"، وهو من أهالي منطقة الكاملين. كانت وظيفة الخادم هذه تُعد وظيفة كبيرة لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم. وذهبنا معاً للخُرطوم، وذات يوم اقترح علي الوالد أن نـزور مسـتر ديفيز في منزله الكائن في أمدرمان غـرب البوسـتة، وهـي منطقة يقطنها عدد كبير من المسئولين البريطانيين.

سلم "السر" على والدي سلاماً حميماً يدل على عمـق العلاقة، وبعدها سرد عليه والدي قصتي بتفصيلٍ دقيق، إلى أن وصل إلى ختامها في أنني حصلتُ على شهادة "كامبريـدج"، ولا زلتُ أذكُر إنه قالها بفخر واعتزاز بائنين. وبالطبع كـان ذلك شعوري أنا أيضاً، وإن لم أفصح عنه. وطلب منه والدي أن يخبر مستر "ديفيز" لإيجاد وظيفة تتلاءم ومؤهلي الجديد.

أبدي "السر" موافقته الفورية، ووعدنا أن يحدثه حـال خروج مستر ديفيز مساء للجلوس في الحديقة لتناول الشـاي، وتلك طقوس إنجليزية معروفة. في اليوم التالي، عـدنا وقـد أنجز "السر" وعده مع مستر ديفيز، واستلمنا منه خطاباً بنقلي إلى مدينة الأبيض، حيث بدأتُ حياة أخرى جديدة، وإن كانـت قديمة.. لأنها مدينتي.

رجعتُ إلى مدينة الأبيض وشغلتُ وظيفة محاسب في المديرية، واستقريت في منزلي. أقبلتُ على الحيـاة الجديـدة بحيوية، حيث بدأتُ نشاطاً اجتماعياً مكثفاً، وكذلك برعتُ فـي

عزف الكمان، وصرتُ أجيده بصورة ملفتة للنظر. وكانت هذه هي الفترة التي ارتبطتُ فيها بالشاعر الكبير "محمد عوض الكريم القرشي"، أو "ود القُرشي" كما كنا نناديه، وهو رجلٌ رقيقٌ دمث الأخلاق ومرهفُ الأحاسيس. فبدأت أشترك معه في تلحين بعض قصائده، وكُنتُ قد اخترتُ ثلاثة من بينهم "وطن الجدود"، والتي طبقت شهرتها الآفاق لاحقاً.

كان "ود القرشي" مرتباً، ولذلك كان لديه نظام ثابت، وهو نظم القصيدة شعراً، ومن ثم تلحينها، ولكنه كان يحتاج للمسات فنية، فأقوم أنا بمساعدته متى ما طلب مني ذلك. أما الفنان عثمان الشفيع، فجمعتنا معه نفس العلاقة، وقد ارتبط فنياً مع "ود القرشي" كما هو معروف. فقد كان يحضر إلى الأبيض دورياً، وبالذات في فصل الخريف، ويجد بعض القصائد منظومة وملحنة، فيأخذها من "ود القرشي" ويعود بها، ليقدمها من خلال إذاعة أمدرمان، وتحديداً في سهرة الخميس من أول كل شهر.

دخلتُ بعمق في حياة المدينة بعد أن كنتُ قد نذرتُ نفسي في المديرية الشمالية للقراءة والحياة المحدودة. فوجدتُ فرقة موسيقية أفرادها من المتطوعين للحرب العالمية الثانية، والتي كان يدور رحاها آنذاك. فانضممتُ لها متطوعاً. ذلك كان يعني الخُضوع لتدريبٍ بدني شاق، يبدأ في الساعة الرابعة صباحاً حتى الساعة الحادية عشر. وبعدها أذهب إلى المكتب لتأدية عملي العادي في المحاسبة.

بجانب ذلك، انخرطتُ للمشاركة في أنشطة الجمعيات الأدبية بإسهامات كبيرة. وشهدت هذه الفترة أضخم حدث، وهو انعقاد دورة مؤتمر الخريجين الثانية في مدينة الأبيض. والجدير بالذكر، أن مدينة ود مدني شهدت ولادة الفكرة باقتراح من السيد أحمد خير المحامي، فقد كان قائداً فذاً ومتحدثاً لبقاً، وسياسياً محنكاً. وهو من وضع لبنات فكرة المؤتمر تأسياً بحزب المؤتمر الهندي، وأحمد خير نفسه كان

متأثراً بالنهج الغاندوي. وكانت أفكار الجمعيات الأدبية في حد ذاتها وسيلة من وسائل التمويه، عوضاً عن الهوية السياسـية السافرة غير المسموح بها للأندية. فكانت المدينة مقراً لانعقاد الدورة الثانية للمؤتمر، وازدهرت به!

تسنى لي في ذاك المؤتمر في دورة انعقـاده الثانيـة، تقديم دراسة وكانت بعنوان: "مستقبل الشيوعية في السودان".. كان ذلك البحث قد أخذه مني السيد محمد أحمد محجوب بعـد أن أبدى إعجاباً به، وكان المحجوب يشغل وظيفة قاضي فـي مديرية الخُرطوم، ويعد أحد أهم حاضري المؤتمر والمنظمين فيه. ولكن الذي حدث، أن دراستي تعرضت لبتـر مقتطفـات منها "سنسرة" بعدما سلمها المحجوب إلـى منسـوبي اللجنـة المنظمة، فغضبتُ واحتججتُ، لكن دون جدوى. الأمر الـذي دعاني لأن أنساها زهداً، ولم أعد أتذكرها غضباً.

إلى جانب هواياتي الأدبية والفنية، كانت لدي اهتمامات رياضية أيضاً، هذا بالرغم أن مهنتي الأساسية كانت في مجال المحاسبة. في نفس الوقت، كان البريطانيون ينضوون تحـت لواء تنظيم اجتماعي، ولهم ناد وفريق تنس، وكانوا يـدعوننا للعب التنس معهم. فأصبحتُ عضواً في النادي ومعـي مـن السودانيين أمين عمر التنَي فقط، وكان يعمل كاتباً بـالوزارة، أما بقية أعضاء النادي فكلهم من البريطانيين. كـان النـادي مخصص للطبقة الارستقراطية البريطانية، وهم أولئك العاملين الذين دأبوا على حضور أنشطته، وخاصـة متابعـة تمـارين ومباريات لعبة التنس.

المحزن أن ذلك كان مدعاة لأن يتهمنا بعـض النـاس بأننا أصبحنا عملاء للبريطانيين. لعله بدافع الغيرة، ولكننا لـم نكن نأبه لذلك، لأن وطنيتنا ليست في موضع اختبـار. لكـن الذي زاد من توجسات بعض الناس، أن كان معنا اثنان مـن المفتشين البريطانيين العاملين في الرئاسة (لم أعد أتذكر اسـم أحدهما) وقد طلبا منا، أي أمين التنَي وشخصي، أن نُدرسهما

اللغة العربية، وشرعنا في ذلك بكُل طيب خاطر. المفارقة، أن أحدهما بعد أن انتهي عمله في الأبيض وغادرها إلى إنجلترا، عاد مرة أخرى بعد الاستقلال وعين سفيراً لبلاده، وتزامن ذلك مع عملي ضابطاً في وزارة الداخلية.

أما الآخر، فهو مستر "فـوكس"، والـذي حـدث أن أضطلع على ملفي الوظيفي، فاكتشف أنني الوحيد في مديرية كُردفان الذي يحمل تلك الدرجـة التـي نلتهـا مـن جامعـة "كامبريدج". فأبدى اهتماماً واضحاً واعتناء بشخصـي، ذلـك مثل سماحه لي بالجلوس في مكتبته الخاصة، وكان يقول لي: اقرأ ما تشاء. بالفعل انغمستُ في أجواء القراءة فـي مكتبتـه الخاصة تلك، وصرتُ ألخص بعض ما أقرأ.

أثناء ذلك، حذقتُ لعبة التنس وصنفت كلاعب درجـة أولى. وكان "فوكس" نفسه يدربني على أصول اللعبة. الـذي حدث، هو أنه توفي أثناء الخدمة. وكان البريطانيون يعدونـه أحد ممن يسمونهم "أبناء دوغلاس نيوبولد"، السكرتير الإداري في السودان (١٩٣٩-١٩٤٥)، وأيضاً خلفه الذي حل محلـه، وهو جيمس روبنسون كان من نفس الدفعـة. وهـؤُلاء هـم خريجو جامعة أكسفورد العريقة، التي تخرج فيهـا دوغـلاس نفسه. والحقيقة أن مستر "فوكس" كان باهتمامه الشديد بي في لعبة التنس، يقول لي دوماً، إنه يرى مستقبلاً باهراً ينتظرنـي فيها، ذلك الشيء نفسه الذي حبب اللعبة إلى نفسي.

كُنتُ أسكُن في منزل قريباً من النادي، وهـو كأغلـب المنازل في المدينة، عبارة عن قطية يحيط بها حوش واسـع. كنا مجموعة من الموظفين "العزابة"، وبينهم صـديقي أمـين. حدث ذات يوم، أن تعرضتُ لسرقة كُل مـا أملـك، وتمـت السرقة أثناء حضوري احتفالات المولد النبوي. عندما عـدتُ للمنزل، وجدتُ كُل أغراضي قد سرقت، بما في ذلك ملابـس التنس، ولم يترك لي اللص سوى الكتب. فكان لزاماً علـي أن انقطع عن تمارين التنس مؤقتاً.

ذات أمسية، التقيت مدربي مستر "فوكس"، وسألني عن دواعي انقطاعي من النادي والتمارين، فحكيتُ لـه الروايـة، فأبدى تأثراً واضحاً وتفهم سر غيابي. وبعـد بضـعة أيـام، أوصى لي أحد زملائي بضرورة حضوري لمقابلته في النادي. وبعد أن انتهي التمرين وذهب كل الحضور إلى منزله، وطلب مني وكذلك أمين أن نأتي معهم.

هناك تحدث الرجل في الجمع عن قصة سـرقة كُـل ممتلكاتي، وقال لي: **«يا عثمان، نحن أصدقائك.. تبرعنا لـك بهذه الأشياء»**. وأعطاني ثوب دبلان ودمورية وأقمشة بِـدل وقُمصان وأحذية، ومضارب تنس ثم مظروفـاً فيـه خمسـة وعشرين جنيهاً، وقال لي إنها قيمة حياكة هذه الأشياء، ذلـك كان ما يقارب جملة أربعة أشهر من مرتبي الشهري، والـذي كان يبلغ آنذاك سبعة جنيهات. شكرتُهم جميعاً، وكدتُ أطيـر من الفرح، إذ رب ضارة نافعة، كما يقـول المثـل العربـي السائد.

كانت تلك الفترة في منتصف الأربعينيات تقريباً. فإلى جانب ما ذكرتُ، كان التمثيل من ضـمن هوايـاتي أيضـاً. وحاولنا تقديم أنشطة ثقافية مختلفة في إطار الجمعية الأدبية في مدينة الأبيض. فأخرجنا عدة مسرحيات، كان الممثلـون هـم شباب الموظفين العاملين في الإدارات المختلفة، ومعنا أيضـاً بعض العمال. وكانت تلك الأعمال تلقى رواجاً وتؤثر كثيـراً في قضايا الناس الحياتية المعاشة. وعندما لمسنا ذلك، قررنـا أن نطوف بالمسرحيات بعض المدن القريبة، مثل تلودي، وكنا نجد ترحيباً واستقبالاً باهراً، وكنا نحصد مردوداً مالياً لا بأس به، نُسير به أنشطة الجمعية الأدبية.

ولعي بالقراءة بصورة عامة جعلني أهتم بقراءة مراجع الاقتصاد السياسي تحديداً، وهو مجالٌ قد يبتعد أو يقترب مـن مهنة المحاسبة التي أعملُ بها. ولكن كان لدي شعور قوي في

أنني لن استمر في هذه المهنة طـويلاً. حاولـتُ أن أجـذب صديقي أمين التنَي إلى هواية القراءة، ولكنه أبى واستعصـم بمهنة المحاسبة، وقال لي بصورة واضحة، إنه ليس من هواة وجع الرأس بالقراءة، وإنه سيكون محاسباً إلى أن يرحل مـن الدنيا. وللأسف لم يكن أمين التنَي طموحاً، على عكسي تماماً، وتباين الاهتمامات هذا كان سبباً في أن يذهب كُلٌ منـا فـي طريق.

كانت هنالك مكتبة ضخمة في المديرية، تعـج بكتـب ومراجع متنوعة في الأدب والتاريخ والاقتصـاد والجغرافيـا والسياسة. كان مستر "فوكس" قبل رحيله وبعد أن التهمتُ كل مكتبته، كان يتابع اهتمامي بالقراءة ويلحظ تواجدي بالمكتبة في معظم الأوقات. فصار ينتقي لي كُتُباً بعينهـا ويطلـب منـي قراءتها. وأخرى يطلب مني قراءتها وتلخيصـها، والحقيقـة أشعرني بأنه يرمي إلى شيء ما، لم أكن أعرف ماهيته. وذلك ما شجعني على المضي قُدماً في طريق القراءة، واعتقد إننـي استفدتُ استفادة كبيرة منها. لقد فتحت لي القراءة آفاقاً واسعة، وزادت من طموحي في ارتياد مجالات أخرى.

الحزب الجُمهُوري

كما ذكرتُ، كانت الجمعيات الأدبية هي واجهة لنشاط سياسي غير معلن. في تلك الحقبة، ظهر الحزب الجمهوري برئاسة الأستاذ محمود محمد طه. بدأ بدايات قوية في انتقاد مظاهر اجتماعية ودينية، وشرع يتحدث علناً حول ضرورة إنجاز مسألة الاستقلال عن طريق مكافحة الاستعمار بالوسائل السلمية. وكان برنامج الحزب نفسه يركز على ضرورة تقسيم السودان على أسس فيدرالية، يكون الحكم فيه جمهوري على نسق الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي. ولا يحكم مركزياً، نظراً لاتساعه. كان ذلك الطرح جاذباً للكثيرين، وأنا منهم.

كنتُ قد انضممتُ للحزب الجمهوري وفق تلك البدايات، وكُنا ننادي بالاستقلال، ولكن ليس بصورة سافرة. لم تكُن الشقة كبيرة أو بعيدة بين الأحزاب الشمالية والجنوبية، فالسياسيون الجنوبيون تراهم مندمجين في الأحزاب، لكنهم كانوا كثيري التنقل من حزب إلى آخر. ولعل ذلك كان أكثر سلوك يسيء للديمقراطية الوليدة في السودان بعد الاستقلال، فقد تفشت ظاهرة استغلال بعض الأحزاب للسياسيين الجنوبيين، بشراء ذممهم عن طريق الرشوة، وهي ممارسات كان يقوم بها سياسيون بعينهم.

بعد فترة من انضمامي للحزب الجمهوري، لاحظتُ أن عضويته بدأت تتخذ منحى صفوياً. لأن الأستاذ محمود نفسه بدأ يغلب الجوانب الفكرية في إلقاء المحاضرات الدينية، والتخفيف من الحديث المباشر في الشئون السياسية، الأمر الذي أثر في عدد عضوية الحزب، وأظن أن ذلك يدل على ولع السودانيين بالسياسة منذ ذاك الزمن المبكر.

من الإخوان الجمهوريين الناشطين الذين أذكُرهم فـي تلك الفترة، كان هناك أمين صديق، وهو شقيق علي صـديق، شخصية سياسية مهمة، كان له صيتٌ كبير في الجزيرة، وكان ينوب عن الأستاذ محمود محمد طه في بعض اللقاءات العامة. وفي الأبيض، كان هناك صـديقي أمـين التنَـي، عبـدالقادر المرضي، إبراهيم أحمد عمر. وعندما التحقتُ بالبوليس، كـان حتماً علي أن أتخلى عن الحزب الجمهوري.

تلودي

في تلك الفترة، بينما الأمور تسير بذلك الـنمط الـذي ذكرت، حدث أن توفي والد المحاسب الذي كان يعمـل فـي مدينة تلودي. فطلبوا مني أن أذهب لأحل مكانه لمدة ٤٥ يوماً ريثما يجدوا بديلاً آخر. فحزمتُ أمري وذهبت، ولكن عوضـاً عن تلك الفترة التي حددوها، بقيت في تلودي لسـتة أشـهر. فالمدينة تمتاز بطبيعة خلابة وغاية في الجمال، وكـان لـدينا مفتشٌ إنجليزي، اسمه "دونالد"، والذي سوف تأتي سيرته لاحقاً عندما ذهبتُ إلى ملكال في وظيفة ضابط شُرطة.

في تلودي تلك، حدثت أحداث طريفة، منها أنـه كـان لدينا التصفيات النهائية للتنس في رشاد، وكان أحـد منافسـينا محاسب اسمه محجوب كرم ا ، فتآمر عليه بعض الأصـدقاء وعزموه وأعطوه خمراً لكي لا يؤدي المباراة بصورة جيـدة. ذلك ما أسر به إلي باشكاتب مركز رشاد مصطفى عمر التنَي، وعلى الفور أخبرتُ زميلي، وكسبنا المباراة ونلنا الكأس.

هناك في شرق جبل مرة، التقيتُ العم المك آدم قيلـي، وهو أكبر المكوك في تقلي. فأصر على أن أزوره وأن يقابـل الناس الذين كانوا معي لإكرامهم. فذهبتُ للعباسية للمرة الثانية ووجدتُ الكثيرين الذين أعرفهم ويعرفونني، وكانت تلك فرصة طيبة استعدنا فيها كثير من الذكريات الجميلة.

أيضاً من الذكريات التي ينبغي الوقوف عنـدها تـأملاً عندما ذهبتُ لاستلام منطقة "أم روابة" من المحاسـب. كـان هناك مستر لوريمار مفتش شرق كُردفان بأم روابة، وحدث أن عاد لعمله بعد عطلة قضاها في بريطانيا. والحقيقة إنـه كـان رجلاً غريب الأطوار. ومما عرفته عنه إنه كان طيـاراً فـي الحرب العالمية الثانية، ولذا صار موسوساً ومدمناً على شُرب الخمر. وعملياً، هو في الأساس محاسب يشغل وظيفة المفتش عندما يغادر الأخير لقضاء إجازة.

لكن عبدالقادر حاج الصافي، والذي كان يشغل منصب مساعد مفتش المركز، ومعه أصـحابنا عبدالسـميع غنـدور مساعد نائب المأمور، وعبدالرزاق عبدالعزيز المحاسب، وهو نائب مدير المركز الذي قدموا لي أول نصيحة غالية للتعامـل مع لوريمار. قال لي عبدالقادر حاج الصافي، وهـو صـديقٌ لوالدي كذلك: أسمع يا عثمان، الخواجة ده مجنون، لكن أنـت لازم تكون منظم. أي شيء يجب أن يكون في رأسـك معـد سلفاً، ولا تقول له أريد الرجوع للأرقام أو الدفاتر. كُل شـيء يجب أن تكون شايله في دماغك.

عندما عاد مستر لوريمار من الإجازة، جاء المكتب في اليوم التالي، وكُنتُ وفقاً للنصيحة أعلاه قد أجريتُ مسحاً كاملاً على المكتب، الذي خضع لنظافة شديدة، وتغيير في الـديكور وطليناه بالبويات وأحضـرنا زهـوراً ووروداً. كـان معـي محاسبان هما: عبدالرزاق عبدالعزيز الذي ورد اسمه عاليـه وأحمد بشير، وارتدينا كلنا ربطات عنُق. فناداني في المكتـب وسأل عن الحسابات والأوضاع والربط (كان لدينا أكثر مـن أربعين عمدة، كل واحد لديه ربط، وهو مبلغٌ محدد من جباية العشُور والرسوم، مقابل الخدمات والمباني والإضاءة)، وكان يسجل أي كلام قلته له، ثم راجع الدفاتر، ووجد كل شيء تمام، وكان ذلك مدعاة لأن يثق في، وخطوة أولـى لبدايـة علاقـة طيبة، على عكس الآخرين.

لوريمار اسكتلندي في الأصل، ولدية آلة "قربة"، وكان لديه منزلٌ وسط أشجار بمنظر يشابه غابة صغيرة، لاحظـتُ إنه يعزف القربة عنـدما يهطـل المطـر. ويرتـدي الـزي الاسكتلندي الذي يشابه "الرحط" قديماً في الحيـاة السـودانية. ألفتُ ذلك المنظر الذي شد إعجابي، ولعله كان يلاحظني.

عندما اتجهتُ صوب أم روابـة فـي مهمـة انتـداب صغيرة، كان لدينا هناك فرع للجمعية الأدبية في نادي المدينة، ولهذا الفرع نشاطات بارزة في المجالات التي سبق لي ذكرها. واجتماعياً كان النادي ملتقى كبيراً لكل الأعضاء من التُجـار وكبار الموظفين. وحدث أن كان هناك حفلٌ كبيـر، فقررنـا دعوة لوريمار وحرمه.

ألقى رئيس النادي كلمة الحفل، وذكر أنني سوف أقدم معزوفة موسيقية، وكانت هنـاك أيضـاً مسـرحية. فـدخلتُ المسرح وأنا أحملُ كمنجتي، وكانت تلك المرة الأولـى التـي يعرف فيها مستر لوريمار إنني أعزف الكمان. ولمزيـد مـن الإدهاش، عزفتُ "مارش اسكتلندي" فوقف محييـاً شخصـي وصفق كثيراً وهنأني.

كان الحدث هذا قد فعل العجب العجـاب فـي نفسـه. فصار وثيق الصلة بي، وكان يستشيرني في كُل شيء. فكلانا يحب الموسيقى، وهي بغض النظـر عـن كونـه مسـتعمراً لمستَعمر، فالموسيقى تكسر الحواجز، إذ لا وطن لها!

عدتُ إلى تلودي، وبعد أن انتهت مأموريتي بها، والتي كانت قصيرة لا تتعدى الشهر ونصف، رجعتُ مباشـرة إلـى الأبيض، ورجعتُ للحياة الروتينية العادية. الجديد فقط في ذاك الوقت، انضمام مدير حسابات جديد لنا وسمه عبدا محمـود، ومن الصدف إنه كان صديقاً للوالد وعملا معـاً فـي مدينـة سنجة. لكن هنيهة بعد عودتي، حدث مـا سـميناه "الزلـزال

الوظيفي"، وذلك ممثلاً في صـدور كشـف التـنقلات بـين العاملين، ويتضمن مفاجآت غير سارة لبعض الناس.

المعروف أنه كان يوجد في المديرية واحد وعشـرون محاسباً. هناك نحو تسعة عشر منهم من الأبيض، ولأسـبابٍ عجيبة، عن للمدير أن ينقلهم جميعاً، بدعوى أنهم من الممكـن أن يتآمروا عليه. هناك اثنان منهم كانوا من المعينين محليـاً، وهؤلاء لا يمكن نقلهم. وبالفعل صدر كشف التنقلات السنوية، وإذا بالمدير ينقل التسعة عشر محاسباً، وكُنتُ مـن ضـمنهم. كان المفترض أن أذهب إلى الإقليم الجنوبي بمدينة جوبا على وجه التحديد. وكانت التنقلات كلها بتعليمات صارمة، لا بـد للمعنيين بها تنفيذ أمر النقل مهما كانت المعاذير.

مأمورية أم تآمر

عندما أزمعتُ الذهاب إلى جوبا تنفيذاً للأوامـر التـي صدرت بالمأمورية، جهزتُ نفسي وأعددتُ تصاريح السـفر. ثم أخذتُ عطلة لمدة أسبوعين كنتُ أود الـذهاب فيهـا إلـى الخُرطوم. وكان لابد أن أطلع عبدا محمود نائـب المـدير، فقلتُ له إنني حضرتُ لوداعه، وأخبرتـه بتفاصـيل فحـوى زيارتي الخُرطوم. ولما كانت العلاقة بيننا طيبة، طلب مني أن أذهب لوزارة المالية عند وصولي هناك، وأخبرني أن أقابـل مفتشاً بريطانياً اسمه مستر "روبي مان"، وهو مفـتش شـرق كُردفان (أم روابة) وأعطاني خطاباً وطلب مني أن أسلمه له، بل أوصاني بضرورة أن أعطيه له في يده شخصياً.

كُنتُ قد علمتُ منه، أن هذا الرجل مهم للغايـة، لأنـه كان ينتدب عندما يغيب السـكرتير المـالي لأي سـبب مـن الأسباب ليعمل مكانه، وذلك ما يوضح أهميته. وقال لي: **«هو رجلٌ ممتاز، لكنه مكشكش بعض الشيء»** (مكشـكش، كلمـة دارجة تستخدم لمن به هذر أشبه بمسٍ من الجنون، ولكنـه لا يرقى لمستوى الخُطورة والحاجة للتطبيب النفساني المعـروف

– المحرر)، وقال لي إن سبب كشكشته تلك، تعود إلى أنه سقطت به طائرة في أثناء الحرب العالمية الثانية، والتي كانت قد توقفت آنذاك.

حملتُ معي الخطاب وذهبتُ من محطة القطار إلى وزارة المالية مباشرة، وهناك كلما أذكُر اسمه لأحد زملائي، كان يتحوقل ويتشهد، وجميع من سألتهم قالوا لي إنه إنسان صعب المراس، وقاسي القلب، ولهذا كان الجميع يهابونه. لكن بالطبع ما كان ذلك ليثنيني عن مقابلته، فأنا أحملُ خطاباً له، وهذا كل ما في الأمر. بل حتى عندما دخلتُ المكتب وطلبتُ من سكرتيره الخاص أن أقابله، بدأت علامات الاستهجان تظهر على محياه فيما يشبه الاستنكار. وعندما قُلتُ له إنني أحملُ له خطاباً شخصياً، وطلب مني أن أعطيه له ويوصله نيابة عني، فرفضتُ بإصرار. فدخل عليه في المكتب بتوجس بائن، وبعد لحظات خرج وسمح لي بالدخول.

في واقع الأمر، لم تكن انطباعات الناس خاطئة. فحينما دخلتُ ورأيتُه، كانت تبدو على مظهره سيماء الأرستقراطية الإنجليزية، ذلك على الأقل من السلسلة الذهبية التي كانت تتدلى من عنُقه، وذلك مما لا يألفه الناس كثيراً في ذاك الزمن. طال وقوفي أمامه لأكثر من خمسة دقائق وهو مستغرقٌ في أوراق كان على طاولته، وبعدها رفع رأسه متثاقلاً، فمددتُ له الخطاب وقلتُ له: من مدير كُردفان، فقال لي نعم، وشكرني، والحقيقة، حتى تلك اللحظة لم أكن أعرف محتوى الخطاب.

غادرتُه وبدأتُ في قضاء عطلتي التي حضرتُ من أجلها للخُرطوم واستمتعتُ بها. ثم غادرتُ الخُرطوم على أمل قضاء جزء من العطلة مع أصدقائي علي عبدالباسط وأمين التنَي في مدينة شندي، فقررتُ أن أمكُث معهم أربعة أيام. لكن الذي حدث كان غير متوقع، وعلى عكس ما خططت، فعند الساعة الحادية عشر، وأنا في مدينة شندي، جاءني عربي مأمور المركز، وهو يركض وقال لي: إن مفتش المركز يريد

مقابلتك عاجلاً. وعلمتُ منه أن هناك إشارة وصلت له. ذهبتُ معه بعربته إلى المركز لمقابلة مستر كريس، والذي علمتُ منه أن الإشارة تفيد بالبحث عن محاسب اسـمه "عثمـان زيـن العابدين"، والنشرة صادرة ومعممة لكُل المحافظات، وقضـت بضرورة حضوري على جناح السرعة إلى وزارة المالية في الخُرطوم، ونسبة لأن موعد القطار لم يحن ذاك اليوم، طلبـوا مني الركوب في قطار بضاعة مع أحد العمال.

وصلتُ الخُرطوم واتجهتُ لوزارة الماليـة مباشـرة، وأطلعوني في قسم شُئون الموظفين بأن مستر "روبـي مـان" يريد مقابلتي. وأنا في الطريق لمكتبه، قابلت مدير الحسـابات وكُنا نناديه بـ"عم عبدا "، فقال لي بين المازح والجاد: وا يا عثمان، طالما الزول ده عايزك، إما إنك عملت كارثـة أو إنك كارثة تمشي على قدمين. فضحكنا معاً والواقع كأنني كُنتُ أداري قلقي.

عندما دخلت على مستر "روبي مان"، قال لـي علـى الفور: أمر نقلك إلى جوبا قد ألغي، ويجـب أن تعـود إلـى الأبيض حالاً. وشكرتُه وغادرتُه دون أن أسأل عن الأسـباب بالطبع. وإن كنتُ قد أضمرتُ رغبتي فـي معرفـة حيثيـات القرار بعد عودتي للأبيض. وذلك ما حدث في اليوم التالي، إذ كُنتُ الوحيد المستثنى من كُل الزملاء، فواصلتُ ما انقطع من الروتين اليومي في العمل والحياة العامة في مدينة الأبيض.

بوابة الشرطة

شدني الطموح المزمن في شخصيتي إلى أن أخطو خُطوة جديدة تطلعاً لمهنة جديدة. كان ذلك تقريباً في العام ١٩٤٧.. وصل إلى مكتب المدير منشور يطلب ممن يرغبون العمل، أداء امتحانات كلية الشرطة والإدارة. فقدمتُ على الفور طلباً وقُبل، وكذلك فعل أمين التنَي، بالإضافة إلى ثلاثة زملاء آخرين. وكانت الامتحانات تُؤدى في الخرطوم.. عهدذاك، كان مفتش المعارف هو المرحوم شيخ محمد حسن دياب الذي ذكرته في بداية سيرتي الحياتية هذه، وقلتُ إنه الذي أدخلني الكُتاب. وكان هو المشرف على الامتحانات.

عندما نظر في ورقتي، قال لي: يا عثمان يا ابني ما شاء ا عليك. أنت شاب ممتاز، وليس لدي أدنى شك في أنك سوف تُقبل في هذه المعاينة. لكن ما حدث كان العكس تماماً، حيث ظهرت النتيجة بعد نحو شهرين، وقبلوا أمين التنَي ولم أُقبل أنا، والحقيقة أنني غضبتُ غضباً شديداً، فذلك أول فشل يواجهني منذ أن خطوتُ في مضمار الحياة الدراسية والعامة. والحقيقة، كُنتُ على يقين أنني أديتُ الامتحان بصورة أفضل من الآخرين، وكُنتُ اشعر بأنني مؤهلٌ أكثر من التنَي صديقي والبقية، لكني قبلتُ بالأمر الواقع. ونسبة للصداقة والزمالة التي تجمعنا، لم أبد ذاك الشُعور مطلقاً.

عدتُ إلى الأبيض حزيناً مهيض الجناح، وكنتُ قد وضعتُ في ذهني أنني لن استمر في مهنة المحاسبة. لم أكن مرتاحاً ولا سعيداً بذلك. وبعد النتيجة التي ذكرتها، حدث لي نوع من الاكتئاب، فلم أذهب للعمل لعدة أيام. فكرتُ أن أسافر إلى مصر للدراسة هناك. وذات يوم ذهبتُ للمركز وقدمتُ استقالتي لرئيس الحسابات، وعندما وصلت الاستقالة إلى نائب

المدير عبدا محمود، حجزها عنده، وطلب أن أحضر له مع سائقه الخاص، واسمه محمد زايد.

حضر محمد زايد لي في المنزل باكراً في اليوم التالي، وبطلبٍ وحيد من المدير، هو أن أحضر بصحبته. وحين وصلته في المركز، قال لي: «**يا عثمان أنا آسف للأسباب التي دفعتك للاستقالة، ولكن على أية حال، أطلب منك ألا تتعجل، وأنا لن أقبل هذه الاستقالة، وسوف أمنحك عطلة عشرة أيام من عندي**». وختم حديثه بقوله: «**على أية حال السكرتير الإداري مستر دوغلاس روبرتسون يزمع زيارة كُردفان، ويمكنك الاستفسار منه عن السبب الذي لم تُقبل به في المعاينة**».

وقع حديثُ المدير في نفسي موقعاً حسناً، وكان رجلاً ودوداً، أكن له تقديراً واحتراماً كبيرين، وكان يبادلني المشاعر نفسها. بالفعل حضر سير روبرتسون إلى الأبيض. وأُعد له استقبالٌ باهر، احتفالات ومهرجانات احتفاء بمقدمه. جاءني أحد العمال في المكتب ذات يوم، وقال لي: نائب المدير عبدا محمود يريدك، فذهبتُ إليه ووجدتُ معه مستر روبرتسون، وهو يعرف والدي، لأنه سبق أن عمل معه في مدينة سنجة، وكان ملفي الوظيفي أمام نائب المدير.

أخبروني بالأسباب التي لم أقبل بسببها في المعاينة (الاختبار) وهي أن مستر ميلر المدير الإداري أصدر قراراً بوقف المحاسبين، لأن أفضل المحاسبين أخذوهم في الإدارة، ولذلك أمر ألا يأخذوا محاسبين جدد، بمعنى عدم التفريط في من تبقى. وقال لي بما يشبه تخفيف وقع القرار علي: «**على كلٍ، دعنا نرى السنة القادمة، وأخرج مذكرة صغيرة وكتب عليها معلومات ربما للتذكير، وطلب مني أن استمر في عملي**».

في نهاية السنة، قال لي المفتش: أريدك أن تذهب أنت وعبدالسميع غندور إلى الأبيض لأداء امتحان الإدارة. وقال لي

أيضاً أنا وصيت عليكم. بالفعل ذهبنا معاً وأدينـا الامتحـان، وعدتُ إلى أم روابة. وبعد شهرين، وصلت إشارة من الأبيض تفيد بأنه تم اختياري للمعاينة ورفض عبدالسميع. فذهبتُ إلـى الخُرطوم لأداء المعاينة في وزارة الداخلية، والتـي حضـرها أكثر من مائة شخص، وذلك ما يوضح ضراوة المنافسة. فـي اليوم الأول للمعاينة، لم ينجح أكثر من أربعين ممتحناً، ورسب أكثر من النصف. وكذا في اليوم الثاني، لم ينجح أكثـر مـن ثلاثين ممتحناً. أما أنا فقد واصلتُ نجـاحي لليـوم الثالـث، واستمرت التصفيات إلى أن بلغ عدد المتبقين نحو أحد عشـر شخصاً، ثم أصبحنا ستة فقط، ولما كانت المسألة مرهقة للغاية، طلبوا منا أن نعود لأماكن عملنا علـى أن تسـتمر الأسـئلة بالمراسلة. ذلك ما حدث، وانتهت الامتحانات، ولكن ظل القلق مستمراً، فقررتُ الذهاب للخُرطوم.

في الطريق نحو الخُرطوم من الأبيض، حصلت حادثة وضعتني الأقدار في طريقها، ليكون لديها تأثير فيما أنا مهموم به. ويجدر بي أن أسرد تفاصيلها لما لها من انعكاسات على ما ذكرتُ من وقائع. كان القطار قد توقف فـي تنـدلتي للتـزود بالماء لمدة نصف ساعة، وخلال ذلك، كان الركاب يتجولـون بمحاذاة الرصيف، وكنت أنا كذلك، وعندما أصـبحتُ علـى مقربة من عربات القطار المخصصة للنوم، كان هناك أطفـالٌ ينظرون من خلال النوافذ، وفجأة رأيتُ أحدهم يقفز من النافذة، فقفزتُ تجاهه وأنقذته من موت محقق، ووقعنـا معـاً علـى الأرض، وكان منظراً مثيراً للمارة. هنيهـة وحضـر والـده فشكرني. وبعدما تحرك القطار، جاء الكُمساري وهو يصـيح بأعلى صوته ويسأل عن الأفندي الذي أنقذ الطفل، وعندما قلتُ له أنا. قال لي إن والدته ووالده يريدان تقديم الشُكر لك.

سألني والد الطفل عن وظيفتي، فقلت له إنني محاسب في طريقي للخُرطوم. فأخرج مذكرة صغيرة من جيبه وكتـب اسمي كاملاً عليها. المفارقة الغريبة أنني عندما ذهبـتُ لأداء

المعاينة، وجدتُه هو مقرر اللجنة. وعندما دخلتُ، نظر لي أعضاء اللجنة نظرة غريبة وابتسموا، حينها أدركتُ أنه ربما حكى لهم ما حدث. كذلك نظرتُ إلى ملفي الشخصي الموضوع أمام اللجنة، فتبينت اسم والدي مكتوب على واجهته. مع ذلك، أديتُ المعاينة ولم أكُن متيقناً من القُبول، بل جاءني إحساس أنني لن أقبل بحسب أنني رأيتُ اسم والدي في الملف، وقلتُ ربما يعود ذلك للمشاكل الكثيرة التي حدثت له مع البريطانيين، وسبق أن حكاها لي. وزاد من شكي في القُبول سريان إشاعات بين الناس، تفيد على أنه لا يريدون إداريين جدد في ذاك العام.

قُلتُ إننا أصبحنا ستة من جملة الذين حضروا. وفي الخُرطوم، كُنتُ في ضيافة حسين حمو، والذي مكثت معه لمدة أسبوع. خلاله لم يظهر جديد، فقررتُ المغادرة إلى أم روابة، ولكنه أصر علي أن أبقى قليلاً، نزولاً عند رغبة بعض الأصدقاء والذين يريدون الاحتفاء بي. فقضينا بضعة أيام في الاحتفالات، التي تخللتها دعواتٌ متعددة. وبالطبع لم استغرب ذلك، لأنني كُنتُ اجتماعياً بطبعي وأحب الناس. وبعد مضي الأسبوع دون ظهور أي شيء، أيقنتُ أن الموضوع قد فشل. فقلتُ لحسين حمو إنه من الأفضل أن أذهب إلى بيتي، وأباشر عملي المكتبي. ورغم ممانعته الشديدة، أصريتُ على ذلك.

استقليتُ القطار، وعندما وصل أم روابة، وجدت أناساً يعرفونني في المحطة، فبدأوا ينهالون علي بالتهاني والتبريكات. فسألتُهم مستفسراً عن السبب، فقالوا لي إنهم سمعوا اسمي في إذاعة أمدرمان، وأنني تم اختياري في كلية البوليس. فحملوني على أكتافهم كما يحدث في التظاهرات. الحقيقة أنني كنتُ في غاية السعادة، وبدأت تحدوني آمالٌ عراض، بعد أن كادت تتحطم إثر الشائعات التي انطلقت في المدينة، وأشارت بأنه لن يقبلَ أحد ذلك العام. وامتدت الأفراح حتى الأبيض، بعد أن وصلتُها، واستمرت لأكثر من أسبوع.

في واقع الأمر، لم أكن أول شخص من الأبيض يدخل كلية الشرطة، فقد سبقني السادة محمود بخاري وحسين حمـو وأمين الصاوي وآخرين. وعندما دخلتُ الكلية كنـت مسـئولاً ومعي النور حامد عن الموظفين (١٧٥). كان هناك امتحـان تحريري لأي مرشح، والذين اجتازوا الامتحان كانوا نحو ٨٠ شخصاً، واختاروا أفضل سـتة مـنهم بالتصـفيات، وبعـدها استقرت التصفيات على اثنين، النور حامد وشخصي. ودخلنـا كلية غُردون، التي أصبحت جامعة الخُرطوم فيما بعد، وبقيـة العدد من الممتحنين حولوهم إلى المدارس العليا المتفرقة.

درجت العادة على أن المختارين للشُـرطة يأخـذون دراسات مكثفة في الأنشطة الشرطية، والمختـارون لـلإدارة يبقون في الجامعة. كُنا ستة من الشرطة، وانضم إلينا ضـابط من الصومال الشقيق، وكان بدبورتين (نجمتين) ولكنـه غيـر مؤهل بشكلٍ جيد. والواقع أنني تفوقتُ عن البقيـة فـي كُـل الأنشطة، بما في ذلك ضرب النار وتفكيك وتركيب السـلاح. وذلك لسببٍ وجيه، وهو إنني تطوعتُ أصلاً من قبـل، كمـا ذكرت. بالرغم من أن التدريبات كانت شاقة للغاية تحت إمرة مدرب صارم جداً، كان شاويشاً تم تحويله من الجيش للشُرطة، فاصطدم به الطلاب كثيراً، وكانت طريقته في التعامل صعبة للغاية. وتركزت المشاكل بينه وبين طالبين من دون الآخرين، ويبدو أنه أضمر لهما شيئاً وهو ما ظهر في نهاية الفترة عنـد التخريج. حيث أعلن نجاح الأربعة وسقوط الاثنين اللذين كانا في حالة مشاكل دائمة معه. نادى عليهم في الطـابور وسـرد عليهما سجلهما كاملاً وفيه الوقائع بالتاريخ. ويبدو أنـه كـان يفعل ذلك يومياً تحسباً لهذا اليوم. وقال لهما: بناء على ذلـك، أنتما لا تصلحا للشرطة، لأنه ليس لـديكم قـوة احتمـال ولا تطيعون الأوامر. فكان الخبر كالصاعقة عليهمـا، إذ انهـارا وذرفا الدموع مدراراً، فقد ضـاع عليهمـا مجهـود سـنتين كاملتين.

كنا في داخلية الشرطة (مكانها الآن مسجد النيلين، عند ملتقى النيلين الأزرق والأبيض) والخُروج يوم الخميس فقـط. وكان اليوم يبدأ في الساعة السادسة صباحاً، حيث يسـتوجب على الطالب الوقوف في وضع "انتباه" على أن يكون ممسـكاً بالبندقية في طابور الصباح، والذي يمتد حتى الساعة الثامنـة صباحاً، وتدريب آخر حتى الساعة التاسعة، ومن ثـم نُمـنح بعض الوقت للإفطار. وبعدها محاضرات حتى الساعة الواحدة بعد الظهر. أحياناً في الكلية وأحياناً أخر داخل المبني. وبعدها نتناول وجبة الغداء، وفي السـاعة الرابعـة يبـدأ الطـابور والتدريب حتى الساعة السادسة مساء. حيث نتنـاول بعـدها وجبة العشاء والمذاكرة لأن هناك امتحانات دورية باستمرار، ومن ثم نخلد للنوم.

من الأشياء التي لفتت أنظار من في الكلية أن مسـتر أوليفر وزوجته (نقل من مفتش شرق كُردفان إلى مفتش مركز أمدرمان) كانا يركبان الخيل كُل يوم سبت للتنزه، ولكنهما دأبا على أن يمرا على الكلية للتحية والسؤال عن حـالي، وكيـف تجري أموري في الكلية، وذلك نسبة للعلاقة التي ذكرت نذراً منها سابقاً. فكانت لفتة إنسانية معبرة منهما، وفي نفس الوقت لها مردود نفسي كبير علي.

كانت الدراسة نفسها شاقة جداً، خاصة فـي القـانون وفروعه. والقانون الجنائي تحديداً، الذي كـان مـادة جديـدة بالنسبة لنا، كذلك أخذنا كورساً لمدة شهر لدراسـة الخُطـوط العامة للطب البيطري للاعتناء بخيول الكلية، ذلك أنـه ربمـا يعمل أحد الطلاب في مركز من المراكز التي توجد بها خُيولٌ أو أي نوع من أنواع الحيوانات ذات الصلة بعمل الشرطة.

أثناء الدراسة في الكلية كانوا يمنحوننـا راتبـاً نحـو العشرة جنيهات، وبالطبع كان يعد مبلغاً كبيراً. وبعـد قضـاء ستة أشهر، خرجنا للشارع ونحن نرتدي الزي الشُرطي، لكن بدون رتب. وتم توزيعنا على العاصمة المثلثـة: الخُرطـوم،

أمدرمان والخرطوم بحري. وكانت نصيبي الخُرطوم. وكانت تلك فترة مهمة، بدأنا نتعرفُ فيها على الأعمال الشُرطية من أفراد عساكر عاديين، وهم من لم يخضع لدراسة وتدريب طويل الأمد مثلما فعلنا.

هؤلاء يتم تخريجهم كُل ثلاثة أشهر، كنا نتعلم منهم أشياء كثيرة، وكانت هناك دروس تمثيلية لمعرفة أساليب الرشوة والمحاباة مثلاً، كأن يرشي أحد أحداً كدروس عملية، سواء بالمال أو بأشياء عينية مثل الخُضروات أو أي شيء يبتاع من المتاجر، أو خدمات تقدم بلا مقابل وهكذا. وحينها على الخريج الجديد تسجيل كُل هذه الأشياء. كذلك كان العمل يمضي بنظام الورديات (نوبات العمل)، وأصعبها وردية الليل من العاشرة مساء وحتى الساعة السادسة صباحاً. وكانت أحياناً تصادف البرد القارص، وما عليك سوى التحمل لأن هناك من يراقبك أثناء المرور كل ساعة.

من القصص التي لا أنساها، كانت ورديتي في تلك المنطقة على شارع النيل، وهي منطقة معظم الذين يقطنونها من البريطانيين، ولذلك ما أن يدخُل المساء تتوقف حركة المارة في الشارع العام. أثناء مرورنا في منتصف الليل تقريباً، وجدنا شخصاً مختبئاً، وعرفنا أنه لص ولكنه كان ينكر، فأخذناه لنقطة الشُرطة وكان هناك شاويش معروفٌ بأنه فظٌ غليظ القلب، ذو بأس شديد. فبدأ في استجواب الشخص الذي تمسك بإنكاره لصوصيته، فقال له الشاويش: طيب إنت منو؟ فقال له: أنا شخص يائس من الحياة. فقال له الشاويش: لماذا تختبئ في بيوت الخواجات، إذا أصلاً أنت يائس من الحياة، لماذا لا تقفز في النيل، وتريحنا من هذا العذاب؟!

المفاجأة التي لم يتوقعها أحد، هي أن الرجل بدأ يردد في حديث الشاويش. ثم وجه له الكلام وقال له: طيب ما دام قلت كده، هاك شوف. فركض بأقصى سرعة ونحن من خلفه، إلى أن قفز في النيل ووقفنا مندهشين والحقيقة لم يجرؤ أحد

منا على القفز من خلفه. الحقيقـة، أنـا شخصـياً لا أعـرف السباحة ولا علاقة لي بالنيل، كما أنني لم أكُن أدري شيئاً عن الآخرين. وعليه، ظلينا على الشاطئ نُحدق في الماء، فلم يكن ثمة مفر من الانتظار ولفترة طويلة.

بعد انتظار ساعتين، أدركنا أنه غرق، فعـدنا للنقطـة وأخبرنا الشاويش. فقال لنا الحدث ده حسابه عسير جداً علينا، ولكن لا توجد طريقة لنسيانه غير أن نلـزم الصـمت كلنـا. وطلب منا جميعا ألا نأتي بسيرة الموضوع بتاتاً. ثم أحضـر أحدنا مصحفاً وأقسمنا جميعاً على التكتم على الحدث. والحقيقة ليس تبريراً، ولكنني أذعنتُ لكُل ما سمعت نظراً لأنني غرير. وبالفعل لم يذكر أي منا هذا الموضوع إلا بعد سـنين عـددا، وذلك من باب حكي الذكريات. أما جثة الرجل فقد ظهرت في مكان آخر قرب شواطئ مدينة أمدرمان.

أيضاً كنتُ ذات يوم أعمل في وردية شاويش نبطشـي ومسئولاً من الحوادث، اتصل بي شـرطي حـوالي السـاعة التاسعة مساء من نقطة المقرن وقال لي إن هناك جريمة قتل، فكلفت المتحري ومجموعة مـن الشـرطة بالـذهاب لموقـع الجريمة والبحث في ملابسات ما حـدث. وعنـد وصـولهم، اكتشفوا أن القتيل هو الفنان الشهير "فضل المـولى زنقـار". وكان قد قُتل أثناء محاولاته التوسط بين شخصين اشتبكا معاً، أحدهما كان صديقه، وحاول طعن الآخـر ففلـت وأصـابت السكين الفنان زنقار. بالرغم من أنه سارت روايـاتٌ كثيـرة، لكنها كانت شائعات ليس إلا.

جولة حول المدن الكبيرة

بعد ذلك ذهبنا لأداء كورسات عملية فـي المـديريات المختلفة. كان أمين أحمد حسين هو حكمدار "مقدم" المديرية، ولاحقاً أصبح "كومندان" ونُقل لمدينة بورتسودان، وكذلك نُقلت

أنا أيضاً. وكُنتُ برتبة نقيب. ولكن حدثت مشاكل كثيرة بيننـا وتنقلت بين المديريات والمراكز.

أولاً، ذهبتُ إلى مدينة عطبرة وكان المأمور فيها حسن قرين، ومساعد المفتش كان الفاتح البدوي. وحسن قرين قابـل أمين أحمد حسين الحكمدار وقال له: عثمان ده ود بلدي، كنت عايزه ينزل معاي. قضينا في عطبرة أسبوعين، في العمل مع شُرطة السكة حديد وشرطة المدينة. حدثت لي قصة طريفـة آنذاك. كان السيد علي الميرغني في طريقه إلى مصر، وجاء في قطارٍ خاص، وكان الناس في المحطة عبارة عن خلية نحل نسبة لهذا الحدث، وتوزعنا على طول رصيف القطـار، ولا أحد يعلم أين يكون السيد علي في ذاك القطار، وعندما توقـف القطار انفتحت النافذة التي أمامي مباشرة، فإذا به السيد علي، فتبسم في وجهي ومسك يدي وهزها، وكانت صـدفة جميلـة بالنسبة لي، رفعت من معنوياتي، وهي المرة الثانية بعد الأولى التي سردتها من قبل ولم أصدق أنه عرفني.

استمر طوافنا على مدن شرق السودان. فمن عطبـرة ذهبنا إلى بورتسودان وعملنا لفترة مع شرطة الميناء، والحقيقة أن عمل شرطة الميناء يختلـف تمامـاً عمـا سـواه. ومـن بورتسودان ذهبنا إلى مدينة كسلا، حيث قضينا فيهـا حـوالي عشرة أيام تفقدنا فيها طريقة العمل الحـدودي فـي محاربـة ومطاردة الشفتة الذين كانوا ينشطون في تلك المنطقة ويعملون في التهريب.

ثم اتجهنا بعدها نحو مدينة القضارف، وآنذاك كانـت تعد أكبر منطقة بها نسبة كبيرة من الجرائم في السـودان. إذ كانت تعج بخليط من البشر الذي يأتون من مناطق عديدة أثناء موسم الزراعة، فتحدث جرائم النهب والسرقة والقتل، بـل أي نوع من أنواع الجرائم تجده فيها. وهنـاك وجـدنا محمـود بخاري، وكان برتبة نقيب. ومن ضمن البـرامج التـي كـان

ينبغي علينا إنجازها، الذهاب إلى منطقة القدمبلية، والتي يوجد بها أكبر مشروع زراعي مطري في السودان. ولهذا فيوجد به نسبة كبيرة من المزارعين، حيث إن سوادهم الأعظم جاءوا من غرب السودان، وبعض بلدان غرب أفريقيا. ولهذا كانت هناك نسبة عالية من الجرائم المختلفة في المنطقة.

هناك فُوجئتُ بالمفتش البريطاني أرجيلينك، الذي سبق أن التقيته في الشمالية في بلدة القرير، ولكنه لم يعرفني نسبة لأنني أضع الكاب (طاقية الشُرطة) على رأسي، وكذلك لأنني أرتدي زي الشُرطة الرسمي، وكنتُ قد عرفته منذ الوهلة الأولى. وبعد عدة ساعات، أزجيتُ له السلام وخلعتُ الكاب فعرفني وتعانقنا. وكان هو الشخص الذي ساعدني في ملء فورمات التقديم للامتحان، كما ذكرت آنفاً، وقال لي إنه يتوقع لي مستقبلاً باهراً، وهي العبارة التي حفزتني وشجعتني على قطع هذا المشوار الصعب.

بعد القضارف، تحركنا نحو مدينة ود مدني، وكان الحكمدار هناك هو خليفة محجوب، ويعد من أعظم الرجال الذين مروا على قطاع الشرطة في السودان، وكان هو وأمين أحمد حسين دفعة واحدة. وبصورة عامة كنا قد قضينا وقتاً طيباً في المدينة، مررنا فيه على كُل أقسام الشرطة، وخلال ذلك حدث لي حدثين: الأول، كنا ذات يوم نجلس في المساء في مقهى عام، وآنذاك كان الشيوعيون في قمة نشاطهم السياسي المعارض لوجود الاستعمار. وأثناء ذلك، جاء شخص يقود عجلة بسرعة ورمى بكمية من المناشير في الطريق، فقفزتُ نحوه وحاصرناه حتى تم القبض عليه.

أما الحادثة الثانية، فقد حصلت جريمة قتل في منطقة من مناطق الجزيرة، وهي مركز السيد الشريف يوسف الهندي. كان هناك جزار قتل صاحبته "عشيقته" بصورة غاية في البشاعة. فكانت تلك أول مرة نشهد فيها جريمة جنائية،

وهي فرصة لنا لمعرفة كيفية التحري في جرائم القتل، وكـان معنا الطبيب الشرعي وهو سوداني الجنسـية، وعنـدما فـتح غطاء الجثة أحصى الطبيب ٢٩ طعنة كان المنظـر بشـعاً، فبعض منا فقد وعيه وكانت المرأة بدينه. ونظراً لأن مثل هذه الجرائم نادرة الحدوث في ذاك الزمن، ثابرنا وواصلنا باجتهاد شديد لمعرفة الجاني، وهو ما حدث بالفعل في فتـرة زمنيـة قصيرة. وكانت تلك أول فرصة بالنسبة لنا لمعرفـة أسـاليب التحري.

بعد ذاك اتجهنا نحو مدينة الأبيض، ولم أشأ الجلـوس في الاستراحة التي أعدت لنا، فذهبت ومعي الزميل الصومالي (محمد فرح) إلى منزلنا، وكُنا قد عقدنا معه صـداقة جميلـة باعتباره شخصاً غريباً والسودانيون دائماً يحتفون بالشـخص الغريب في طقوسهم المضيافة. وسأعود إلـى قصـة زميلنـا الصومالي هذا لاحقاً.

ضمن برنامج العمل، زرنا السجن وبه زنازين كثيرة، بعضها لمساجين وأخرى لمجانين، وفي أثناء مرورنا جاء أحد المجانين يحمل سكيناً فطعن بها الصـومالي عـدة طعنـات، فأسعفنا الصومالي ومن حسن حظه لم تكـن السـكين حـادة، وبالتالي كانت الطعنات سطحية، لكن الموقف كان صعباً علينا جميعاً نسبة لأن الرجل غريب.

كذلك في السجن كان هناك سجناء سياسيون أذكر منهم حسن عبدالقادر، وهو من الحزب الـوطني الاتحـادي. مـن الأشياء المهمة كانت الأبيض تشكو من شُح المياه "العطـش"، وكانت هناك محاولاتٌ للحلول بترحيل بعض النـاس لتقليـل الكثافة السكانية وكذلك الماشية. التقينا مفتش المركز واسـمه السير ونس، وشرح لنا الصعوبة التي يواجهونها في الحصول على الماء، وكانت تلك أكبر المشاكل التي تواجه المدينة.

كما ذكر لنا، أن هناك مقترحات لمعالجة المشكلة، منها شق ترعة من كوستي إلى الأبيض، ولكنـه قـال إن تكلفتهـا عالية، والحكومة قالت إنها لا تستطيع تنفيذ المشـروع لأنـه يكلف نحو ٧٥٠ ألف جنيهاً، وبالرغم من أنه مبلغ كبير فـي ذاك الزمن. لكن المشكلة ظلت مستعصية، والمؤسف أنه لـم ينجز أي مشروع خاص بالمياه في غرب البلاد منذاك الـزمن وحتى الآن!

انتهى الكورس بزيارة المدن التي كانت تعد الأكبر في السودان، عطبرة، بورتسودان، كسلا، القضارف، ود مـدني، الأبيض. ثم عدنا للخُرطوم، كانت غرفتي ما تـزال موجـودة. وتبقى لنا من التخريج نحو شهرين. واستمر العمل لمدة شـهر كامل صباحاً ومساء، وكان أصعب مادة بالنسبة لي هي مـادة القانون (١٢ فوليوم) وبعد أن انتهينا من الامتحانات منحونـا عطلة لمدة أسبوعين، وبعدها تحدد لنا يوم التخريج. كنا نحـو ١٦ طالباً في الدفعة. والحقيقة حتى لحظة النطق بالأسماء لـم يكُن أحد منا يعرف مصيره، إلا في تلك اللحظات حينما بدأوا سرد أسمائنا.

كان الحد الأدنى للمرور هو ٨٠%، وهي نسبة عاليـة مما يدل على صعوبة التنافُس. كان أول الدفعة عمـر عـديل زميلي في الجامعة وصديقي، الذي حصل على نسـبة ٩٢% وكنت الثاني بنسبة ٩١% ومن ثم بقية الدفعة بالتدريج حتـى نسبة ٨٠% ولم يسقُط سوى الصومالي الذي نال نسـبة ٦٠% ومنح درجة خاصة Special case نسبة لأن الصومال كانـت مستعمرة بريطانية كذلك. وكان السـكرتير الإداري (الحـاكم العام) هو من شرف حفل التخريج وأدينا القسم أمامه.

عند تخرجي، أذكر أن العم بابكر الـديب كـان فـي المباحث، ونسبة لأنه صديق الوالد، أبدى اهتماماً بالغاً بي منذ دخُولي الكلية، وأثناء الدراسة والتدريب، وشكل حضوراً فـي

لجنة التخريج، وبعد انتهاء المراسيم، طلب مني الحضور إلى مكتبه، وهناك أسر على مسمعي نصائح غالية، استفدتُ منهـا كثيراً في حياتي العملية، وما زلتُ أذكر منها نصيحتين:

- **الأولى:** قال لي يجب أن تعرف أن السلطة حـارة زي الإنسان البكون ماسك ليه جمرة. فاتق ا في الناس ولا تظلم أحداً ولا تُهمل في عملك.
- **الثانية:** قال لي سوف تقابل أنواع شتى من البشر، فيهم الشرير، وفيهم الأسوأ من الشيطان، ولكن فيهم الإنسان الجيد، وقال لي مثلاً دارجاً: "البلاقيك متقشـط لاقيهـو عريان"، وقد عملتُ بتلك النصائح طوال عمري.

غير أنه كان يرغب في أن أكون معه في المباحـث، وقال لي إنه تحدث مع مستر كوتس مدير البـوليس. واتفـق الاثنان معاً على أن أتخصص في المباحث. وظن الـديب أن تلك خدمة تقديراً منه للوالد. فقلتُ له أنه سيعترض، ولكنه بثقة شديدة، قال أترك لي الموضوع. وعندما علم الوالد بذلك اتصل بي منفعلاً، ورفض رفضاً باتاً لدرجة أنه قال لي: **«إذا أصروا على ذلك، أخلع لهم بدلة الشرطة وأرميها لهم»**. والحقيقـة، كان والدي لا يحب عمل المباحث، وبالتالي صرفتُ النظر.

الجدير بالذكر، أنه بعد إعلان الاسـتقلال فـي العـام ١٩٥٦، اختار السيد إسماعيل الأزهري رئـيس أول حكومـة وطنية في السودان، بابكر الديب كسفير للسودان في جمهورية مصر، في حين أنه كان معروفاً لدى الكثيرين أن الديب أثنـاء عمله الشرطي قام باعتقال الأزهري لقيادته مظاهرة ضد الحكم البريطاني في العام ١٩٤٨، وقُدم لمحاكمـة قضـت بسـجنه شهرين في سجن كوبر بالخُرطوم بحري. غير أن الأزهـري الذي سئل لاحقاً عن ملابسات ذلك، قال إنه اعتبـره ضـابطاً يؤدي واجبه، وهذا لا ينتقص من وطنيته شيئاً.

بعد التخرج، منحونا عطلة لمدة أسبوعين، فغادر كُـلٌ منا إلى أهله فرحاً جزلاً، وعند وصـولي إلـى منزلنـا فـي الأبيض، انتظمت سلسلة من الاحتفالات مع الأهل والأصدقاء. ذهبتُ إلى مركز شرطة الأبيض وقابلتُ الزملاء الذين احتفوا بي، وذهبتُ إلى المديرية، وقابلتُ مستر مكس ديـرس وهـو المدير الذي سبق وأن أوصى باستيعابي في الشرطة. وذهبتُ إلى قسم المحاسبة فوجدتُهم كما تركتهم، وبينهم صديقي عبدا محمود.

بعد ذاك عدتُ للخرطوم، وفي الداخلية وجدنا معلمنـا "الشرير"، والذي كان فظاً غليظ القلب في التعامل معنا، وكُنتُ قد ذكرتُ في صفحات سابقة، كيف أنه أقصـى اثنـين مـن الزملاء وفصلا من الكلية نهائياً. وما أن رآنا حتى وقف وأدى لنا التحية العسكرية المعهودة، وبعدها قال لنا بتأثر بـالغ إنـه متأسفٌ على كُل المعاملة التي تلقيناها منه. وقال لنـا: **«كـان هدفي أن تتخرجوا رجال أشداء ومسئولين فـي مراكـزكم»**، وبعدها استلقى على الأرض دليلاً على الندم، وطلب السـماح منا، فتأثرنا جميعاً لهذا المشهد من رجلٍ كبير في السن بغض النظر عن الرتب الشرطية، وقلنا له سامحناك وليس في قلوبنا ضغينة تجاهك.

بعد ذلك تم توزيعنا على المديريات المختلفة، أنا وعمر عديل استبقونا لتصحيح الامتحانات فـي كـورس البحـوث Research course وهو يعقد لضباط يحضرونهم مـن كُـل المديريات، من أجل أن يأخذوا كورسات للتجويـد، وبعـد أن أنجزنا ذلك، تم اختياري للمديرية الشمالية للالتحاق بشـرطة السكة حديد بمدينة عطبرة، وعمر عديل بقـي فـي مديريـة الخُرطوم. وبعد أن نفذتُ أمر النقل، كانت قد حدثت لي تنقلات سريعة وكثيرة، حيث لا استبقي نفسي في مديرية إلا وأذهـب لأخرى، فذهبتُ إلى ود مدني، ثم دارفور، ثم الخُرطوم مـرة أخرى لمدة سنتين، ثم الرئاسة ثم كوبر.

زيارة الصّاغ صلاح سالم

في سنة ١٩٥١، حدثت أشياء كثيرة، خاصة أنني كُنتُ سريع الاندفاع، ومتطلعاً لحياة أفضل. كان راتبي يعتبر كبيراً بمقاييس تلك الفترة الزمنية، وهو ١٣ جنيهاً، ويعد من الرواتب الكبيرة في تراتبية وظائف الدولة، فمثلاً كان المهندس يمـنح ١١ جنيهاً وضابط الجيش ١٢ جنيهاً. عملتُ في قسم الجنايات وبرزتُ فيه، لأن رئيسي كان هو "أمير الصاوي"، وكان برتبة نقيب. لكن على العكس، كان لدينا كومندان إنجليـزي سـيئ السمعة (نسيت اسمه)، وأظن لهذا السبب سـقط اسـمه مـن ذاكرتي، فبحسب تجربتي في الحياة، أن الأشرار لا يستقرون في الذاكرة!

مكثتُ في الخُرطوم لمدة سنتين، ونُقلتُ من التخصصي إلى الجنايات. وكُنتُ قد سكنتُ في منازل الشرطة بالقُرب من سينما الخُرطوم غرب. لم تكُن الخُرطوم العاصمة قد توسعت آنذاك. فحدودها الجغرافية محدودة. مـثلاً أذكُـر أن أحيائهـا آنذاك، كوريا وبري المحس وبري الشريف وبري أبو حشيش، لم تكُن هناك المناطق المستحدثة مثـل الخرطـوم اثنـين أو الخرطوم ثلاثة أو الأحياء الطرفية الحالية.

لعل من أكبر المناسبات التي طافت علينا آنذاك، هـي زيارة بلغنا أن من سيقوم بها هو الصاغ صلاح سالم، عضـو مجلس قيادة ثورة ٢٣ يوليو المصرية. كان ذلك علـى وجـه التقريب في يناير من العـام ١٩٥٢، وكـان برفقتـه وزيـر الأوقاف الشيخ حسن الباقوري، وصحفي اسمه صلاح هلال، كان يشغل منصب نائب رئيس تحرير مجلة 'آخـر سـاعة'. وكانت الأجواء متوترة من جميـع الاتجاهـات بـين القُـوى السياسية السودانية المختلفة، وخاصة الحزبين الكبيرين، الأمة

والاتحادي الديمقراطي من جهة، وكذلك بين الجنوبيين من جهة أخرى.

لكن الاتحاديين أنفسهم كانوا منقسمين. مثلاً جماعة السيد علي عبدالرحمن كان رأيهم الذي تمسكوا به، هو ضرورة حضورنا الاجتماعات كلها كممثلين للشُرطة، وهو ما حدث جزئياً. لكن المهم أنني شخصياً حضرتُها كلها. كان الراحل "بوث ديو" في قمة مجده، وهو سياسي محنك. جاء ليزورنا في المديرية، ويومها استدعاني خليفة محجوب لاجتماع، وقال لي: **«صلاح سالم وصل والإنجليز ما بيثقوا فيني، وقالوا لي خلي عثمان يمشي، والتقرير يأتي مباشرة للمدير، فشوف شغلك مع الناس ديل»**. وعندما أردتُ أن أعقب، قال لي بلغة حازمة: هذه أوامر. فلم يكن ثمة مناص من الانصياع لها بحسب قوانين الشُرطة.

بناء عليه، تفرغتُ لزيارة صلاح سالم، والذي دخل في نشاط مكثف من خلال الليالي السياسية، والتقى عدداً كبيراً من السياسيين الجنوبيين. بالطبع كان لشيخ علي عبدالرحمن وصحبه دور في توجيه تلك الأنشطة. وكنتُ عندما أعد التقرير نجلس معاً أنا وخليفة محجوب ونعمل له غربلته أي تنقيته Filtration بالحذف والإضافة، ومن ثم نطبعه ونسلمه. إذ مثلاً حز في نفسي طريقة تعامل الصاغ صلاح سالم مع القُوى السياسية، كان فيه استعلاء مخلوطاً بشيء من الفهلوة المصرية. وآلمني أكثر إنني شاهدته يمنح ظروفاً لبعض السياسيين، كان بديهياً أن بها مبالغ مالية، ومنذاك اليوم فقدوا احترامي.

زيارة الصاغ صلاح سالم، امتدت وفق ما كان مقرراً لها لمدة ثلاثة أيام. بذلنا فيها كشرطة جهداً خرافياً للعمل على استتاب الأمن، وعدم تعريض حياة الضيف لأي خطر، في أجواء ملبدة بالمشاكل. لكننا نجحنا ومرت الزيارة بهدوء، ما

عدا بعض المخاشنات الطفيفة. لفت نظري أن الصاغ صـلاح سالم عندما تحدث في الاجتماعات مع القُوى السياسية، كـان خطابه خطاباً تحريضياً ضد الإنجليز. قال إنهم أناس متسلطون واستعماريون وقد تأذوا منهم فـي مصـر. وحـاول تأليـب السياسيين السودانيين، بتكرار القول إن السودان بلد السودانيين وينبغي أن يحافظوا عليه. لكن وقتها لا يعلم الضمائر إلا ا .

انتهت اجتماعات الصاغ صـلاح سـالم مـع القـوى السياسية باتفاق مكتوب وقعوا عليه جميعاً. ومن ثم اتجه نحو الجنوب. وهي الزيارة التي تابعناها بقُلوبٍ واجفة من البعـد، ليس لأن التمرد لم يبدأ بعد في الجنوب، ولكن لأننا لـم نكـن نعلم على وجه الدقة كيف سيستقبله الجنوبيون؟ وهل يمكن أن يخدعهم بكلام لا يفهمونه؟ وما تأثير الزيـارة علـى خُطـى استقلال السودان؟ وأسئلة أخرى كثيرة من هذا القبيل.

المهم، أن الصاغ صلاح سالم زار مديرتي الاستوائية وأعالي النيل، وأكثر لقاءاته أهمية كانت مع رث الشُلك، وهو الشخصية المهمة والمفتاحية في الجنـوب. وهنـاك شـارك الجنوبيين الرقص عارياً، ونُشرت له صورة فـي الصـحف المصرية باعتبارها عملاً جميلاً، ذلك على عكس ما تناولتـه الصحف البريطانية، وكذلك بعض الصحافيين في السـودان، ممن كانوا مناوئين للموقف المصري، فـأطلقوا عليـه لقـب "الصول الراقص"، أو "الميجور الراقص". خلاصة الأمر، في رحلة الصاغ صلاح سالم، كنا نعلم أنه كان يهدف إلى توقيـع القُوى السياسية اتفاقاً يقوي موقف الحكومـة المصـرية فـي مفاوضات تقرير مصير السودان مع بريطانيا، وقد تحقق لـه ذلك، وهذا الاتفاق هو الذي أدى إلى اتفاق ١٢ فبراير ١٩٥٣، الخاص بتقرير مصير البلاد.

على هامش تداعيات ما ذكرت أعلاه مـن ملابسـات صاحبت زيارة الصاغ صلاح سالم، أذكُر أثناءها حدثت مشكلة بين خليفة محجوب وأحد المفتشين الإنجليز، وأنا كُنتُ أتـابع

من بعيد. كان مدير المديرية قد وقف إلى جانب المفتش وساندة، فما كان من خليفة إلا أن خرج عن طوره، وجرت الدماء الحارة في شرايينه برغم وداعته التي كنا نعرفها عنه، فكال السباب للجميع ولم يستثن أحداً، فقد بلغ به الغضب مداه.

تفاقمت المشكلة بسرعة صاروخية حتى وصلت الرئاسة. وقرروا أن يحضر شخص برتبة كبيرة، وبالفعل حضر مدير عام الشرطة، وعقد اجتماع عام في المديرية وكان يرمي في اتجاه تهدئة الخواطر. والحقيقة، أن هذا كان هدفي شخصياً من البداية لعلمي بشخصية خليفة، وما لم يكن يعلمونه، هو أنني نظراً لهذه المسألة، لعبت دوراً في الخفاء دون أن أبوح به.

يبدو أن ذلك طرق آذان مدير الشرطة، الذي أشاد بشخصي الضعيف في الاجتماع العام، وبالدور الذي لعبته، وهنأني على ما قُمتُ به. مع أنني لم أكُن أشعر بأنني فعلتُ شيئاً يستحق كُل ذلك. وفي واقع الأمر، رفَعت الإشادة من أسهمي كثيراً، وأشعرتني بالفخر تجاه ما قدمت. وجراء كُل ذلك، منحني المدير العام النجمة الثالثة. تلك ترقية أعطتني مزية التقدم على زملائي، وبذلك سبقتهم بسنة كاملة أي تدرجتُ في وظيفتي قبل أن يحين أوان ذلك.

لكن ثمة كلمة حق لا بد من أن تُقال في شخص كومندان خليفة محجوب. فهو بالفعل يعد من أبرز ضباط الشرطة في السودان، ورجلٌ له مقدرات مهنية هائلة، وكان من الدفعة الثانية. وكان أيضاً على خلاف دائم مع سياسات الإنجليز وينتقدها علناً. كما أن له نشاطاً سياسياً لا يخفيه، ذلك أنه ينتمي للحزب الوطني الاتحادي، بالرغم من أن الاشتغال بالسياسة من المحرمات، وبالذات في جهاز الشرطة، إذ يعد جريمة كُبرى في ذاك الوقت، وهناك تعليمات واضحة لكُل منسوبي جهاز الشرطة بعدم العمل أو حتى الاقتراب من السياسة.

لكن خليفة لم يكن يتردد أو يتوانى.. من حسن حظي، كنتُ أعرفه منذ أن كُنا معاً في مدينة الأبيض. حينذاك كُنتُ أعملُ في قسم المحاسبة بوزارة المالية ولم انضم لجهاز الشرطة بعد، ولذا كانت العلاقات بيننا وطيدة. فقضيتُ معه نحو سنة ونصف في وئام تام. واستفدتُ منه مهنياً بدرجة كبيرة، ذلك بحكم أنه إنسان قدير في كُل شيء، الأمر الذي ساعدني في مستقبل حياتي المهنية.

بورتسودان.. المهمّة الشاقة

بعدئذ تم نقلي لمدينة بورتسودان، أو ثغر السودان الباسم كما كُنا نقول. كان ذلك في العام ١٩٥٤م على وجه التقريب. وهناك وجدت نفسي مسئولاً عن الميناء، وهو عملٌ ضخم بكُل المقاييس.. هناك وجدتُ محمد حامد الفيل وكان مدربنا وأستاذنا في مدرسة الشرطة. وعند قدومي، كان يرأس اتحاد كرة القدم في بورتسودان. كانت المدينة تعد الثالثة في لعبة كرة القدم بعد الخرطوم ومدني، ومعلوم مدى الشعبية التي تحظى بها هذه اللعبة دون سائر أنواع الرياضة في السودان.

كانت المنافسات في بورتسودان تصل أحياناً لدرجة الجنون، إلى جانب أن اللعبة خلقت أنشطة اجتماعية قوية، وتعتبر حجر الزاوية في ذلك المضمار، ولهذا كان من الطبيعي أن تكون مرتبطة بالحالة الأمنية في المدينة، إن لم يكن في البلاد كلها. استلمتُ الميناء من محمد حامد الفيل، والحقيقة قبل الدخول في التفاصيل، اعتبر أن العمل في الميناء هو أشق مهمة أديتها في حياتي العملية، لكن ما تعلمته من خليفة أفادني كثيراً.

كذلك وجدتُ الكومندان البريطاني، الذي التقيته في مدرسة الشُرطة، وكان آنذاك مدير مدرسة البوليس. وهو أستاذي في المدرسة واسمه "تلكم".. رحب بي كتلميذه، ووجدتُ معه أيضاً عبدالقادر محمد الأمين وبلال العوض

ومحمد طه الملك. وعموماً، كانت الأوضاع في الميناء في حالة تردٍ شديد، بل آخذه في التدهور بشكلٍ مريع، رغم وجود هذه النُخبة المهنية. ويعود الأمر إلى تعقيدات الواقع داخل الميناء، وارتباطات ذلك بمجريات الأمور خارجها، أي خارج المدينة. وأستطيع أن أوجز المشاكل التي جابهتنا في همين اثنين، وباختصار شديد:

- **أولاً:** السرقات التي فاقت التصور، وكانت تحدث بصورة رهيبة، للدرجة التي امتنعت فيها شركات التأمين في الخارج عن تأمين أي بضاعة تصل ميناء بورتسودان.
- **ثانياً:** موضوع دوري كرة القدم، والذي كان متوقفاً منذ ما يزيد عن الشهرين. وكانت لهذه المسألة تأثيرات بالغة الأهمية، بل سالبة على المجتمع في بورتسودان بصورة عامة والنواحي الأمنية بصورة خاصة. وفي الواقع أبدت السلطات البريطانية الاستعمارية اهتماماً مكثفاً بهذه المسألة، نسبة لتأثيراتها على النواحي الأمنية في البلاد، كما ذكرت. فأرسل اتحاد الكرة مفتش المكتب مستر "بل"، وهو من البريطانيين الذين لهم وضعية خاصة وكلمتهم مسموعة. بعد وصوله إلى بورتسودان، قال على الفور للكومندان: **«أريد أن اجتمع مع عثمان زين العابدين»**. وأخبرني الكومندان بدوره، وعندما سألته عما إذا كان يعرف السبب، قال لي باختصار: **«موضوع كرة القدم»**.

ذهبتُ للاجتماع، وهي المرة الأولى التي أقابل فيها المعتمد مفتش المكتب ومعي الكومندان، فرحب بي وعرف أثناء تجاذُبنا الحديث، إنني كُنتُ رئيس اتحاد الكُرة في دارفور، بما يعني أن لدي خبرة لا بأس بها. فطلب مني بعد ذلك أن أفتح دار الرياضة "الإستاد"، ووعدني بأنه سوف يوفر لي كل التسهيلات اللازمة والضرورية.

واقع الأمر، أصبحت القضيتين شُغلي الشاغل: السرقات وكرة القدم. عقدتُ اجتماعات يومية مع مدراء الأقسام في الميناء، وكذلك مع كبار العاملين، وأغلبهم من البريطانيين، بينهم اثنان سودانيان فقط، ذلك بالإضافة للشغل اليومي الروتيني.. بلاغات، سرقات، حوادث، مشاكل مختلفة، وشعرتُ بأنني محاصر بكُل هذه الحمولة من الأعباء، لدرجة اختصرت ساعات نومي وأنشطتي العامة، وبت لا أنام سوى ساعات قليلة.

بدأت في وضع في الخُطط والبرامج لأحاصر موضوعات السرقات في الميناء كأولوية لها علاقة بباقي المشاكل. فاستحدثتُ حملة تفتيش كبيرة، وجدنا فيها عمالاً وكذلك أفراد من الشرطة متورطين حتى النُخاع. كان القاضي هو مبارك المدني، وهو رجلٌ معروف بالشدة والصرامة والعدل. طلبتُ منه أن ينزل عليهم أقصى أنواع العقوبات وفقاً للقانون، باعتبار تلك كانت أول قضية، ليتعظ الآخرون، وسرتُ على هذا المنوال لفترة، حتى أصبحت ظاهرة الأحكام المشددة حديث المدينة، الأمر الذي ولد الحذر والخوف في نفوس الكثيرين، وبذا أعدنا للقانون هيبته.

كانت قوة الشرطة في الميناء تتكون من ٤٨٠ فرداً، نقلتُ منهم ٨٠ فرداً إلى أماكن أخرى، وحوكم ١٦ فرداً بعقوبات مختلفة. حينذاك بدأت السرقات تقل تدريجياً، وكان ذلك بمساعدة ضابط جيد جداً اسمه "محمد مساعد". كانت التحريات قد أثبتت أن اثنين من موظفي المخازن، زائداً اثنين آخرين من أفراد الشرطة متورطون ولهم ضلع كبير في كُل السرقات. وبالتالي، أصبح الوصول إلى رأس الحية سهلاً جداً، واختصر كثيراً من مشوار الضبط والربط الذي بدأناه في الميناء.

تفرغتُ بعدئذ لمشكلة اتحاد كرة القدم، الهم الأكبر. كان رئيس الاتحاد رجلاً ذي نفوذ واسع ومركز اجتماعي مرموق. من جانب آخر، كان معي في الميناء موظف اسمه أحمد السواكني يحب الكرة حد الوله، ومعه آخر (نسيت اسمه). وكان رئيس فريق حي العرب، وهو من الفرق الكبيرة والمحبوبة في المدينة. فاستعنتُ بهما في محاولة لمعرفة خلفيات المشاكل، وبنفس القدر، استعنتُ بآخرين. استمعتُ لهم جميعاً، منهم رئيس الحكام، واثنين في الميناء كانا أيضاً يعملان كحكام (قبرو، وهو حبشي سوداني، ويسن يوم القيامة. والأخير سمى بهذا اللقب نظراً لميل بشرته نحو البياض).

كان معظم الحكام قد توقفوا نسبة لأن الجمهور اعتاد التعدي عليهم عقب أي مباراة يهزم فيها فريقهم. فقررتُ أن أشكل للحكام حماية جيدة، فأغرتهم الخُطوة بالعودة مجدداً لحلبة الكرة ومباشرة مهامهم. كذلك اجتمعتُ مع رؤساء الأندية وتعرفتُ منهم على جوانب أخرى من المشكلة، واتضح لي في خلاصة تلك الاجتماعات، أن الجميع راغب في إعادة فتح دار الرياضة، نسبة للضيق المادي وكذلك الترويحي والترفيهي. فأعدتُ تشكيل مجلس الاتحاد، وأدخلتُ فيه وجوه جديدة، وأصدرتُ تعليمات صارمة لرؤساء الفرق تقتضي بعدم حدوث أي شغب، على أن يساءل أي فريق عن مشجعيه إذا ما بدرت منهم أي بادرة عنف.

اجتمعتُ مع مساعدي، وقررنا فتح الدار في غُضون أسبوع واحد. وكانت كل الفرق ترغب في أن تكون طرفاً في ضربة البداية بعد الافتتاح، نسبة للدخل المالي الذي يمكن أن تدره المباراة الأولى، فاتفقنا على إجراء عملية القرعة، ومن المفارقات، جاءت بأكبر فريقين بينهما مشاكل مزمنة، وهما حي العرب والشبيبة.

عند بداية المباراة، وبكُل هذا الزخم الذي ذكرت، كُنتُ في حالة قلق شديد. أصابنا التوتر جميعاً بالرغم من

الاحتياطات الأمنية الكبيرة التي اجتهدنا فيها. فقـد خصصـنا أكثر من مائتي رجل شرطة، بعضهم على ظهور الأحصـنة (سواري) ومزودين بالغاز المسيل للدموع، بل كل مستلزمات الحماية ومنع الشغب. وكان داخل الإستاد أكثر مـن خمسـين رجل مباحث، وجهزنا عربات لنقل كُل من تُسول لـه نفسـه بإحداث شغب ومشاكل. لم تكُن تلك مباراة بقدر ما هي معركة حامية الوطيس!

كُنتُ قد اتفقتُ على أن يحكم المباراة الحكـم الملقـب بـ ـ"يسن يوم القيامة"، ويعاونه في الخط الحكم قبرو الحبشي وآخر. وحضرتُ مرتدياً زي الشُـرطة الرسـمي. وسـارت المباراة بصورة جيدة رغم التوتر، ومن حسن الطـالع انتهـت بالتعادل. وكان حصيلة الذين تم إلقـاء القـبض علـيهم مـن المشاغبين في ذاك اليوم نحو ٢٣ فرداً، وعقدت لهـم محكمـة فورية. حكَم القاضي على كُلٍ منهم بالجلد ٢٥ جلدة و٣٠ جنيه غرامة وشهر سجن.

بالفعل، كانت تلك عقوبة رادعة، لكن القاضي قَصـد منها أن تكون عبرة وعظة للآخـرين. وكُنـتُ قـد منعـتُ الوساطات منعاً باتاً فيما يخص الأحكام. وبالفعـل كـان قـد جاءني الكثيرون في المكتب طلباً للتوسـط، لكنـي صـرفتهم جميعاً بحزم وصرامة. فأرسل القاضي المشاغبين إلى السجن، والذي كان مأموره آنذاك هو عبدا عبدالهادي مـن أهـالي الأبيض.

عندما كثُرت الوساطات بعد الأحكام، قلتُ لكُـل مـن جاءني متشفعاً، دعوهم في السجن لبعض الوقت. ثم اختفيـتُ من الصورة لبعض الوقت قطعاً لسيل الوساطات تلـك التـي انهالت علي. وعندما فاض بي الكيـل، قلـت لهـم تطييبـاً لخواطرهم دعوني أتحدث مع القاضي. والذي عندما قابلته، لم أثن على أحكامه فحسب، بل قُلتُ له دعهم في السـجن قلـيلاً

حتى يرعوي الآخرين. فوافقني القاضي الرأي، ثم قال لي بعد ذلك، دعهم يقدموا استرحامات. وذلك ما حدث بالفعـل، وتـم إطلاق سراحهم. لكن عموماً، كانت الخُطوة قد أتت أُكلها فـي بسط القانون وإعادة هيبة الشرطة.

أقيمت المباراة الثانية بنفس الانضباط والترتيبات الأمنية، وكان للأحكام أثرها البالغ في سير كُل شيء بصـورة جيـدة. وهكذا إلى أن استتب الأمن في المباريات، وأصبحت الأمـور تسير بصورة طبيعية دون حدوث ما يعكر الصـفو، ومـن ثـم تفرغتُ للمهام الأخرى، ومنها استمرار ضـبط الميناـاء مـن السرقات. وكان لما حدث في المباريات انعكاسـاته الإيجابيـة عليها. فلاحظنا اختفاء السرقات تدريجياً، بل ثمة انطباع بعـدم عودتها. حدوث التقدم على كلا الأمرين، وفي فترة وجيزة، أعاد الثقة لشركات التأمين. فباشرت مهامها، ولكـن ظهـرت لنـا مشاكل من نوع آخر.

كان الحكمدار "محمد طه الماك" رجلٌ خلوق ويتمتـع بكل الصفات الطيبة والنبيلة، وفوق ذلك من أسرة ممتـدة ذات بصمات في التاريخ السوداني، مع كُل هذه الصفات، آلمني أنه بدأ يتأثر بحديث الناس المكثف عن شخصي وإنجازاتي. ولعـل الغيرة اللعينة أصابته واشتعلت نيرانها في نفسه، ذلـك كـون أن هناك شخصاً صار يزاحمه النجومية في وضـعه الاجتمـاعي. على الرغم من أننا سبق أن عملنا معاً في مديرية الخُرطوم في بداية حياتي العملية، وكان هو آنذاك يضع ثلاثة نجـوم علـى كتفه.

بدا لي الأمر وكأنه استند على ماضٍ، رغم أنني نسـيته ولكنه لم ينس. إذ استند الأمر برمته – وفق تقـديراتي – علـى مشكلة حدثت بيننا من قبل في الخُرطوم قبل فترة طويلة مـن ذاك الحدث. تلك المشكلة تعالى فيها صوتينا، لدرجة اشـتبكنا فيها بالأيدي. وللأمانة، ونظراً للتفاوت بين قامتينا، كُنـتُ قـد

ضربته ضرباً مبرحاً، لزم على أثره بيته لأكثر مـن عشـرة أيام. لهذا كان حدسي أنه لم ينس ولم يغفر!

بدأت المشاحنات تظهر حين شـرعنا فـي انتخابـات الجمعية التعاونية التابعة للشرطة، وهي حدث كبيـر بعـض الشيء. وقد كان "الملك" يطمح في أن يكون رئيسها بالتعيين، في حين أن قانون الجمعية يشير إلى أن المجلس يتم اختيـاره بالانتخاب. ورضخ لذلك بثقة أن الانتخابات سوف تـأتي بـه للرئاسة، باعتباراته الشخصية. والحقيقة، لم أكُن أنا شخصـياً أتطلع لتلك الرئاسة، لكن أجبرنـي الـزملاء علـى خـوض التجربة.

عندما عقدت الانتخابات السرية، وجدتُ نفسي قد حزتُ على نسبة ٩٠% من الأصوات، الأمر الذي فاجـأ "الملـك"، وقال على الفور إنها زورت ولن يعترف بهـا. وقـد شـايعه بعض الناس وانضم له بعض الضباط الموالين، وبعـد لغـط، تقرر إعادتها بعد أسبوعين. وكانت المفارقة حـدوث النتيجـة نفسها، وكانت فوزي بـ ٩٣صوتا ونال هو ٧ أصوات فقـط. فطلبني الكومندان في مكتبه مباشرة بعدها. وقـال لـي: **«يـا عثمان، أنا أفضل أن تستقيل قبل أن تمارس سلطاتك»**. وبرر لي رغبته بطرق عديدة، علّه يثنيني. فقلتُ له: لـن أسـتقيل، ولكن لديك السلطة في حل الجمعية وتعيين من تريد، أما أنـا فلن أخذل الذين انتخبوني. وظل يحاول لفترة طويلة من الزمن وعاندتُ بشدة، فشاع أمر رفضـي بـين النـاس، فـآزروني وعضدوا من موقفي، وطالبوني بعدم الاستقالة. وقلـتُ لهـم: المشكلة إنني لا أستطيع أن أنـاطح الكومنـدان. مـع ذلـك، شاورتُ آخرين مثل محمد أحمد علي، الذي أصـبح وزيـراً للصحة فيما بعد، وكذلك محمد إبراهيم النور رئيس القضـاء فيما بعد أيضاً، وكان رئيس المحكمة العليا، فأشاروا علي بألا أستقيل كذلك.

استمررتُ في أداء واجبات رئاسة الجمعية التعاونيـة، لكن حدثت مشكلة ثانية، فالمشاكل في ذاك الموقع كانت تأتيني تباعاً من حيث لا أحتسب. وتمثلت المشكلة الجديدة في ازدياد نشاط التهريب بين المملكة العربيـة السـعودية والشـواطئ السودانية، وذلك بواسطة "السنابك"، والشاطئ السوداني طويل كما هو معروف، ولدينا – أي الشرطة – سنابك أيضـاً فـي منطقة فلمنجو، والتي تبعد عن مدينة بورتسودان بحـوالي ١٢ كيلومتر. وكُنتُ أذهب لتلك المنطقة في الثانية من صباح كـل يوم لأتفقد الأوضاع.

شاءت الصدف ذات يوم – وكان معي سائقي الخـاص وهو مسلح ببندقية وأنا بمسدس – أن لاحظتُ أشباحاً تتحـرك في الظلام، فإذا بهم ثلاثة أشخاص أو أربعة خـارجين مـن البحر، وافتكرت في البداية إنهم صيادون، فاتجهـتُ نحـوهم بتلقائية، ولكن الغريب في الأمر أنهم بمجرد أن رأونا فـروا هاربين. فركضنا خلفهم وأطلقتُ طلقة من المسدس في الهواء، فتوقفوا. والحقيقة لو وقفوا من البداية ما كان يمكن أن أشك في أمرهم.

قلتُ للسائق كُن في حالة استعداد، إذا قاوموني أطلـق علـيهم النار فوراً. وقلتُ لهم: لماذا هربتم، فأنا أريد أن اشترى مـنكم سمكاً؟! فوقفوا واجمين ولم يفتح ا عليهم بكلمـة. وعنـدها اتجهتُ نحو القُفاف "السلال" وفتحـتُ الأولـى وبـدأتُ فـي فحصها. فلاحظتُ أن السمك كان طافياً على السـطح، ولكـن بتوغل يدي داخل السلة، وجدتُ قوالب دهب.. حصرتُها ومن ثم قدرناها فيما بعد فكانت نحو ٥٥ كيلو دهب.

بعد أن اعتقلناهم، قال لي أحدهم مستعطفاً: **«ربنا أمـر بالستر»**. وأضاف مرغباً: **«خذ النصف وأترك لنـا النصـف الباقي»**. ودون أن أجيبه، قلتُ بيني وبين نفسـي: إن هـؤلاء القوم يائسون، وفي نفس الوقت هم مسلحون. بما يعني أن أي مقاومة أو رفض لن يجدي شيئاً، بل لسوف يعـرض حياتنـا

للخطر. فقررتُ على الفور استخدام الحيلة. فأبديتُ لهم موافقتي الفورية، أولاً على العرض الذي تقدم به، ومن ثم قلت لهم: **«دعونا نذهب معاً حتى لا تتعرضوا لمشاكل، ومن ثم سوف نقتسم الذهب في مكان آخر»**. والمدهش بالنسبة لي، أنهم وافقوا فوراً. وتأكيداً لذلك ركبوا معنا في عربتنا وتوليتُ قيادتها، والسائق الأساسي نفسه أصبح حارسهم. وبعد ذلك، اتجهتُ مباشرة إلى مركز الشرطة وكانت الساعة حوالي الرابعة والنصف صباحاً، ولم يستيقظ الناس بعد. فأدخلناهم الزنازين واتصلتُ بكُل المسئولين، بدء من مدير الميناء وآخرين، هرعوا إلينا في المركز بعد أن تسرب الخبر ليشهدوا الحدث الضخم!

كان يوماً عصيباً قضيناه في تلك القضية التي شغلت الناس وعمت المدينة نسبة لحجم الذهب المهرب. وسرت أخبار همساً بأن هؤلاء المهربين سيقتسمون بعض غنائمهم مع آخرين من المسئولين في المدينة، ورويداً رويدا سرى حديثٌ عن أن "الملك" و"الكومندان" متورطين في ذلك، ولكنها كانت محض شائعات لا يوجد عليها دليل أو برهان، وا أعلم!

بالرغم من أنني بعد فترة قليلة من تلك القضية تم نقلي إلى إقليم دارفور، لكن عندما حان موعد محاكمة أولئك المهربين، طُلب مني الحضور، وبالفعل وصلتُ بورتسودان وحضرتُ المحاكمة التي تابعتها المدينة بشغف وإثارة. وقد قضت المحكمة في نهاية الأمر بسجنهم لمدد مختلفة وطويلة.

كانت النجاحات والإنجازات التي حققتها، سواء في تحجيم السرقات في الميناء أو ضبط النشاط الرياضي، علاوة على قضية الذهب المهرب بذلك الحجم الكبير، كلها أسباب أوغرت صدور البعض نحوي. فبدأوا في استثارة "الكومندان" نحوي، والذي بات يحضر كل أسبوع لتفتيش المعسكر والمركز دون سابق ترتيب أو موعد مضروب، وعلى عكس ما مضى، حيث كان هذا الأمر يتم لماماً.

ذات مرة جاءوا فجأة دون إخطـاري، وقـالوا إنهـم يريدون تفتيش الحراسات. كانت هناك ثلاثة مواسـير تُـوزع المياه على المعسكر، ويحضر العساكر لحملها. وعندما جاءوا وجدوا تسريب في واحدة من تلك المواسير، وكان يمكـن أن يمر الأمر بصورة عادية، إلا أنهم تعنتـوا واعتبـروا الأمـر إهمالاً، ولم يثنهم قولي إن الذي سيأتي ليحل محلي في النوبـة "النبطشية" سوف يقوم بإصلاح الأمر، فلم يقبلوا حديثي.

في اليوم التالي، سلموني خطاباً للاسـتعداد لمجلـس تأديب بثلاثة اتهامات: الإهمال، عدم إطاعة الأوامـر وتهمـة ثالثة هامشية ليست بذي بال. وفي اليوم المحدد للقضية، جـاء الحكمدار والكومندان وشخص ثالـث، هـو بـلال مسـاعد الحكمدار. ضحكتُ لأنني أدركتُ إنني مقصود لذاتي، فلم أُبـد شيئاً، إذ وقعتُ على الأوراق المعدة سلفاً. فهمس بلال في أذني قائلاً: **«ديل يا سعادتك مستقصدنك يا عثمان يا ابني»**، فقلـتُ له: لا بأس. وتبع ذلك تضييقٌ آخر، حيث أصدروا لي أمـراً بعدم استخدام عربة الميناء خارج حدود الميناء، وكُنتُ أحيانـاً استخدمها لتفقد نشاط اتحاد كرة القدم.

عالجتُ أمر العربة هذه بطريقة أوغـرت صـدورهم بصورة أكبر. وذلك بفضل مدير شئون الموظفين إبراهيم حسن طنطاوي، الذي أغضبه الأمر وقال لي بحكم معرفته بالمسائل المالية، إن هناك بنداً في المالية يخولُ لـي الحصـول علـى عربة. وبالفعل اتصل بشركة "برسيميان"، وأجرى الخُطـوات اللازمة نحو شرائها، وكان سعرها نحو ٥٠٠ جنيهاً، اسـتلمتُها من مندوب الشركة في الميناء بعد عشرة أيام فقط، فـازدادوا حنقاً وغيظاً.

علمتُ أن خليفة محجوب تم نقلـه مـن ملكـال إلـى الخُرطوم ليصبح مديراً لكلية الشرطة. ولما كانت العلاقة بيننا طيبة، كما سردت من قبل، اتصلتُ به تلفونياً ذات يوم بعد أن

بلغ بي الضيق مداه من تصرفات تلك المجموعة التي أوغلـت في السوء. وأخبرته بكُل التفاصيل والمؤامرات التـي حيكـت ضدي، فقال لي مباشرة: **«ده "الملك"، وأنا عارف وسخه»**. وكان خليفة ينتمي لحزب الوطني الاتحادي كما ذكرت، وكان ضمن المجلس العشريني في حزب الأزهـري، بمعنـى أنـه أصبح شخصية نافذة.

اتصل بي مرة ثانية، وقال لي سوف يصلكم واحد من الخُرطوم، دعهم في تآمرهم الخبيث وغير المجـدي. والـذي حدث أن شيخ علي عبدالرحمن والآخرين، كانوا على درايـة تامة بكل تفاصيل القصة. وعلمت أن الكومندان قال لهم إننـي خبأتُ أشياء كثيرة عند زيارة الصاغ صلاح سالم.

كان خليفة قد اتصل بالحزب، والذين قرروا اسـتدعاء أمين أحمد حسين، الذي أصبح مديراً للشـرطة. وحـدث أن استدعوه في رئاسـة الـوزراء وسـألوه عمـا يحـدث فـي بورتسودان، فأبدى عدم معرفته بالحاصل، فسردوا عليه كافـة التفاصيل بيني وبين "الملك" و"الكومندان"، لكنه بالفعل لم يكُن يعلم، فاتصل بـ"الكومندان" في بورتسودان، وقال له: **«يجب أن توقفوا أي شيء حدث مع عثمان فـوراً إلـى أن يـأتيكم مندوب من طرفنا»**.

على إثر ذلك، بدأت المحاولات للالتفاف على الأمـر، فطلب مني "الملك" تسليم الأوراق التي بحوزتي، ورفضتُ إذ لاحظتُ أن نبرة حديثه تغيرت، وقال لي بشيء مـن المـزاح المبطن: **«يا عثمان، نحن نريد أن نحصـر الموضـوع فـي الإطار المحلي، فإذا به يصل الخُرطـوم»**. وأردف بـالقول: **«مافي داعي يا أخي»**. فاشتشطتُ غضباً، وقلت لـه مقسـماً بأنني سوف أريهم "النجوم في عز الضهر". وحدث جدالٌ بيننا في تسليم الورق، وصممتُ على الرفض، وبعدها بيومين جاء موفداً من الحزب، هو "محمد خليل بتيك"، وهو نائـب قائـد

المديرية الشمالية وهو من أعوان الحزب الوطني الاتحـادي، بل هو متعصب لانتمائه، وفي نفس الوقت صديقي.

استضافه محمد أحمد علي المفتش الطبي، الذي أطلعه بدوره على القصة بكامل تفاصيلها، إذ كان يعلم كما ذكـرت. وبناء عليه، قام في اليـوم التـالي بـالتحقيق مـع "المـاك" و"الكومندان"، ولم يجد عندهم أي شيء لإدانتي. وفي نهايـة الأمر، حاول أن يصلح بين الأطراف، على دعوة غداء فـي منزل محمد أحمد علي. ورفع تقريره بأن هؤُلاء الناس لـيس لديهم أي شيء يدينني، وبالتالي انتهى الموضوع.

أذكُر عندما كُنتُ في مدينة بورتسـودان، كـان لـدينا صديق اسمه محمد عبدالجواد، وبالرغم من أنه أصبح وزيـراً للمواصلات فيما بعد، إلا أنه كان رجلاً بائساً فقيراً، ليس لـه من حطام الدنيا أي شيء سوى مكتب صغير، ولكنه كان نشطاً سياسياً بشكلٍ مثير وملفت للانتباه، كـان يلقـي محاضـرات سياسية في أي مكان، حتى في أوساط عمال الميناء. وبالرغم من أنني أكون أحياناً أحد حضور ندواته، لكن ذلك لا يمنعنـا من اعتقاله بواسطة أفراد من البوليس، ليلقوا به في الحراسة.

في اليوم التالي، حينما يقتادوه للمحكمة، وعندما يحكُـم عليه القاضي بمبلغ صغير، كان يتحجج دائماً، ويقول للقاضي: **«وا يا مولانا أنا معلم ا »**، فيقوم أحد الحضـور ويتكفـل بجمع تبرعات، وأنا شخصياً كُنتُ أشارك فيها، بل في كثيـر من الأحيان، يكون القاضي نفسه مشارك في التبرعات! ولكن في الخَفَاء.. فالناس كانت على سجيتها، وهناك تقدير للـدور الذي يقوم به أي فرد في مناهضـة الاسـتعمار، حتـى مـن العاملين في جهاز الدولة أمثالنا.. مع الحفاظ على هيبة القانون والعملية العدلية تحت كل الظروف.

كانت إحدى الخُطوات المهمة قُبيل الاستقلال، عمليـة إجراءات "السودنة"، وقد بدأت خلال الفترة ١٩٥٤ – ١٩٥٥،

وكان مسئول لجنة السودنة هو صديقي "عثمان أبـو عكـر"، وكنا قد عملنا معاً في ملكال. وعندما وصلت اللجنـة مدينـة بورتسودان، كان من الطبيعي أن أستضيفه ليقضي معي الفترة التي سيقضيها بالمدينة لإنجاز المهمة.

كان بعد عودتهم قد صدر أول قرار من اللجنة بسودنة وظيفة "الكومندان" البريطاني فوراً. وقد استجاب "الكومندان" ورحل خلال ٤٨ ساعة، نظمنا له فيهـا حفـل وداع وغـادر بالباخرة من الميناء. وأثناء وداعه لنا، قلت لـه: This is my country I am staying here (هذه بلدي، أنا باق فيها)، وذلك نتيجة لما كان بيننا من مشاحنات، وأردتُ أن أغيظه.

بعد ذلك، صدرت قوائم الترقيات والتنقلات في غُضون عشرة أيام بعد قرار السـودنة، فتمـت ترقيتـي إلـى رتبـة "حكمدار" ونُقلتُ إلى الفاشر بدارفور، ونُقِلَ "الملك" إلى جوبا، ونُقِلَ "أبارو" من كسلا إلى بورتسودان، وكان يرغب فـي أن أبقى معه بإلحاح، لكنني رفضت.

في الفاشر، حضرتُ عملية التسليم والتسلم.. إذ تسـلم علي أبو سن من المدير البريطاني. وكان "الكومنـدان" هـو محمود بخاري، وكُنتُ أعرفه جيداً بحكـم أنـه مـن أهـالي الأبيض. لم أعمل لفترة طويلة، ولكن برغم قصر الفتـرة، إلا أنها كانت تجربة ثرة بالنسبة لي في العمل مع أمثال هـؤُلاء. فقد كان العمل جيداً للغاية، رغم حداثة التجربة بعـد سـودنة الوظائف، ومغادرة الإداريين البريطانيين.

في تلك الفترة، كانت البلاد قد أصـبحت شُـعلة مـن النشاط السياسي من قبل الأحزاب والأفراد، وكان الزمام قد بدأ يفلت من سلطات الاحتلال البريطانية. إذ لم يعد ذاك التشدد في تحريم العمل السياسي قائماً كما كان بالأمس. وبدا واضحاً أن

الإرادة الشعبية كانت تتجه نحو إنجاز عملية الاستقلال بـأي صورة من الصور.

ملكال.. مهمّة قصيرة

على الرغم من أنني لم أباشر عملي بصورة كاملة في الفاشر، وإن كانت المدينة ليست غريبة علـي، لكـن جـاءت إشارة بأن أغادر لفترة مؤقتة إلى ملكال. وقد تزامن وصـولي للمدينة مع حادث مأساوي أدمى القلوب.

أثناء تواجدنا في مناسبة اجتماعية، ومعي كثيـر مـن المسئولين، جاءنا خبر يفيد بغرق باخرة في النيـل. فتحركنـا لموقع الحادث، وبالفعل وجدناها قد غرقت تماماً، وهي واحدة من ثلاثة بواخر كانت تابعة للمديرية. وغرق كُل من فيها مـا عدا مفتش تعليم بريطاني غرقت زوجته وأطفاله. وما أن وجد نفسه خارج النيل، أصيب بهستيريا كادت أن تـذهب بعقلـه، فنقلناه للمستشفى حيث تمت العناية به. واستمررنا في البحـث عن الجثث حتى صباح اليوم التالي. وكان في مقدمتنا مسـتر لونج مدير المديرية، وأرسلنا برقية للخُرطوم بالحادث بعد أن وارينا الجثامين الثرى.

لم يكن لدي فكرة كبيرة عن العمل في المديرية، فهنـاك مثلاً الفايلات السرية (هذه تحتوي على مشاكل القبائل تحديـداً) ومفاتيح الخزانة والكاميرا والأموال المحفوظة وأشياء أخر. وفي غياب الكومندان، طلب مني المدير أن أعمل معه مباشرة، كمـا طلب مني أيضاً أن أقرأ كل الملفات لكي اكتسب خبرة.

وقفتُ على كثير مـن التفاصـيل باجتهـادي الخـاص وبالقراءة المكثفة للملفات من أجل تسيير العمل الروتيني اليومي. وكان عدد العاملين في المديرية نحو ١٢٠٠، بجانـب السـلاح والخيول، وهو عدد ضخم يتطلب إدارة حكيمة، وطالـت فتـرة الكومندان ولم يحضر لعدة شُهور ناهزت العام، لكني اسـتطعتُ أن أسير العمل، حيث استفدتُ من خبرة المحاسبة والإدارة.

كان معي صرافٌ في المكتب يتـولى أمـر الشُـئون المالية، وعندما يحضر لي الكشوفات لكي أوقع عليها، اكتشفتُ بخبرتي المحاسبية أن هناك فرقاً يبلغ نحو مائتي جنيه، وعندما لفتُ انتباهه، قال لي إنه سوف يعدله. لكن عوضاً عن ذلـك، تكرر الأمر نفسه في الشهر التالي، فلفت انتباهه مرة أخـرى، لكن واقع الأمر بدأ الشك يساورني. وعزمتُ على أن أضـع حداً للموضوع إن تكرر الأمر للمرة الثالثة، لاسيما، وأن مـن طبائع البريطانيين قلة الصبر في المراجعة. وبالفعل تكـررت المسألة واتجه المدير نحو الخزانـة فوجـدها خاويـة علـى عروشها. فتم اعتقال المحاسب المذكور، وطلبنا فريق مراجعة حيث اكتشفوا أنه اختلس أكثر من ألف جنيه، فتمت محاكمتـه بعد اعترافه بالسجن عشر سنوات.

قضيتُ ما يناهز العام على ذلك الحال، وكانت الأمور تسير بانضباط شديد.

من جانب آخر، فقد سعدتُ لفترة قصيرة حينما عـدتُ إلى الفاشر بالتعرف على شخصية فريدة، هو "الشـيخ علـي عبدالرحمن"، أو "الشيخ الأحمر" كما كـانوا يطلقـون عليـه لاحقاً. وهو القاضي الشرعي، وكان ينتمي للحـزب الـوطني الاتحادي. كان رجلاً صعب المراس، لذا فقد كان البريطانيون يتعاملون معه بحذرٍ شديد. توطدت علاقتي به، وإن لـم تكُـن لفترة طويلة، حيث كُلفتُ بمهمة مؤقتة أيضاً، بالاتجاه جنوباً.

جوبا وبداية الشرارة

بينما كانت البلاد كلها تعيش زخـم الاسـتقلال الـذي اقترب حدوثه، فجأة حدث ما لم يخطر على البـال آنـذاك. إذ اندلعت مشكلة التمرد في جنوب السودان، وكان ذلك تحديـداً في شهر أغسطس من العام ١٩٥٥، فتم اختياري في إحـدى فرق التحري في الأحداث. ووصلت برقية تفيد بأن أحضر من الفاشر إلى الخُرطوم فوراً لهذا الخُصوص. وفي واقع الأمـر، وصلت متأخراً بعض الشيء، لأفاجأ بأن الضباط المختـارين

معي في مهمة التحري، اختاروا مناطق جيدة نسبياً لمباشـرة عملهم في الجنوب، ولم يتبق سوى مركـز "كبويتـا"، وهـي منطقة سيئة جداً، ولكن لم يكـن ثمـة مفـر مـن الـذهاب، واصطحبتُ ثلاثة ضباط صغار سناً ورتبة. ومنحنـا طـائرة تابعة للقوات المسلحة من طراز 'داكوتا'، اكتشفنا حينما دخلنا في جوفها، إنها ليست بها مقاعد، وذلك يوضح صعوبة الرحلة التي تنتظرنا. وبالفعل قضينا وقتاً صعباً بداخلها، وهي تتأرجح يمنة ويساراً، إلى أن وصلنا مدينة ملكال.

كان أمين أحمد حسين مدير الشرطة، ومسـاعده هـو مكي حسن أبو. وكان قد مضى على التمرد نحو عشر أيام. ثم تحركنا نحو جوبا، وكان الكومندان بالإنابة هو "محمـد طـه الملك"، الذي بيننا ما صنع الحداد منذ أيام بورتسودان، وكُنتُ قد أصبحتُ رئيسه بالترقية التي نلتُها. كان "الملك" قد أقام حفل عشاء في منزله لوفود التحري التي قدمت للمدينة، ومع ذلك لم أذهب، وكُنتُ مقيماً في فندق صغير، وأثناء الحفل افتقـدوني، ونسبة لأن أمين أحمد حسين كان ملماً بالمشكلة بينـي وبـين الملك، أرسل لي مساعده مكي حسن أبـو، وطلـب منـي أن أحضر برفقته مهما كانت أعذاري. وقال له: **«هذه أوامر»**.

على كلٍ، لم يكن ثمة بد من الرضوخ لرغبته، وذهبتُ مع مكي أبو. وحين وصولي، قال لي أمين مباشرة: **«الموقف لا يحتمل، وأريد أن أصفي الخلافات بينكما الآن، وما حـدث في الماضي يجب أن تنسوه، وأنا أتكلـم باعتبـاري أخـوكم الأكبر، وليس من منطلق وظيفي»**، فطيب النـاس خـواطر الطرفين، وهكذا تصافينا في تلك الأمسية.

بدأنا العمل وكنا مجموعة من الضابط نسكُن في "ميز" معاً، وكانت الأوضاع سيئة للغايـة، فالجثـث متنـاثرة فـي الشوارع والناس محتمية بمنازلها، وبعضها آثر الهروب نحـو المجهول. كانت الدنيا في فصل الخريف، لذلك كانت الحشائش طويلة للغاية ولا تمكن من رؤية من يختبئ داخلها. أثناء ذلك،

جاءت مجموعة من السكان ركضاً، واتجهوا نحو كنيسة طلبـاً للحماية.. استقبلهم القس وكان يعرف بعضهم. واستغربنا حينما اكتشفنا لاحقاً أن بعـض القساوسـة الأجانـب كـانوا مـن المحرضين ضد الشماليين.

كانت الحياة قاسية للغاية أثناء التمرد، كـان طعامنـا محصوراً في الخُبز الجـاف "القرقـوش" والعـدس وبعـض المعلبات والسكر والشاي. أما الماء فكان رديئاً للغاية، وأحياناً نستخدم ماء المطر. كُنتُ قد توعكتُ نتيجـة تلـك الأوضـاع الصحية المتردية، ومع ذلك لم أتوقف عن العمل، ولكن عندما تدهورت حالتي الصحية أكثر، أرسلوا للمركز إشارة وطلبـوا عربة أقلتني إلى المستشفى، حيثُ لزمتُ سرير المرض لمـدة أسبوعين. وعندما تعافيتُ وعدت، كان زملائي ما زالوا فـي حالة بحث عن المتمردين.

ذات يوم، كان أحد المتمردين مختبئ فـي الحشـائش، فضرب أحد أفراد القوات المسلحة وقتله، وكان أمراً محزنـاً. ذلك لأنه أول حادث لمجموعتنا، فقبرناه، وعلمنـا أن هنـاك متمردين مختبئين في القرية، والتي لا يتعدى قاطنوهـا نحـو الخمسين أو الستين شخصاً، فجهزنا تجريدة واتجهنا صـوب القرية ليلاً، فخرج الناس من منازلهم وكانوا في حالـة هلـع، واحترقت بعض المنازل وهي عبارة عن قطاطي من القـش، مما ساعد على انتشار الحرائق، وهناك ألقينا القبض على اثنين فقط من المتمردين، وكنا نظن أن العدد أكبر.

بدأنا التحقيقات في مدينة جوبا، وعقدنا محكمة عسكرية استغرقت نحو الخمسة أيام. كانت تبدأ مـن السـاعة الثامنـة صباحاً وحتى الساعة الثانية بعد الظهر. إلـى جانـب فتـرة مسائية تبدأ من الساعة الرابعة مساء إلـى السـاعة العاشـرة مساء. وتوصلنا إلى أن السبب الأساسي في التمرد كان نتيجة تحريض القساوسة.

أنا بدوري كان لدي ٢٧ متهماً، وكان دوري آخر واحد في القائمة. لذلك أثناء تلك الفترة أيضاً كُنتُ أذهب وأجئ بين جوبا وتوريت، فتغير سكني من فندق إلى منزل مـع ضـباط آخرين، معظمهم أصدقائي، وفيهم الطيب المرضي، وجعفـر نميري (الرئيس الأسبق) وعـوض أحمـد خليفـة، ومحمـد عبدالقادر، وصلاح عبدالماجد وآخرين. وكان المنزل جمـيلاً، وشاءت الصدف أن قاسمتُ الغرفة مع جعفر نميـري، وكنـا نعرف بعضنا البعض حيث تقابلنا في الفاشر، عندما كُنتُ فـي كلية الشرطة وهو في الكلية الحربية.

كان كُل من ينهي دوره في المحاكمات يغادر مباشـرة إلى الخُرطوم، لأنه عادة ما يكون في حالة يرثى لها من التعب والإرهاق والجوع. وعندما جاء دوري، وكنت الأخير، كانت المحاكمات لدي واحد وعشرين واحد إعدام، والبقية حكم مؤبد. وعندما فرغتُ حوالي الساعة الثالثة بعـد الظهـر. اتجهـتُ مباشرة للمطار، بالرغم من أنني كُنتُ جائعاً ولم أتناول شـيئاً منذ الصباح. ولم يكُن هناك وقتٌ لذلك، لأن الطـائرة كانـت ستغادر في الساعة السابعة مساء.

بعد الإقلاع، سألت كابتن الطائرة حسن، إن كان لديـه طعام أسد به الرمق. فقال لي من حسن حظك لـدي القليـل، فبدأت في التهامه كمن كان جائعاً لشُهور. الطريف في الأمر، إنه طيلة المسافة التي قطعتها الطائرة حتى وصولنا مطار جبل أولياء العسكري، كُنت واقفاً، وأتجاذب أطراف الحـديث مـع الكابتن. وتقريباً كان ذلك في نحو شهر ديسـمبر مـن العـام ١٩٥٥.

الاستقلال

بعد ذلك غادرتُ مباشرة إلى الأبيض، حيث حضـرتُ احتفالات رفع العلم السوداني في يوم الاستقلال. لعل أصـعب المهام الأمنية التي واجهناها، كانت الاحتفالات بالاستقلال. فقد

خرجت الحشُود الرهيبة في كُل مدن السودان، واتجهت أعداد كبيرة نحو العاصمة، مما صعب من مهمتنـا الأمنيـة. كـان تخطيطنا الذي طغت عليه الهواجس المعروفة في حدث كهذا، ينحصر في كيفية مرور هذا اليوم التاريخي بسلام، ونعلم أنـه لا يحتمل أي هزة، لاسيما وقد صـاحبت وقـائع الاسـتقلال توترات بين الطائفتين الختمية والأنصارية، أو بـين حزبـي الأمة والوطني الاتحادي، أو إن شئت اختصاراً، فقـل بـين "السيدين"، اللذين أصدرا بيان المصالحة التاريخي في العـام ١٩٥٥ بعد سنوات من القطيعة والجفاء، كما قـال البيـان. إذ تختلف المسميات والأزمة واحدة.

نظراً لتلك الأجواء المشحونة بالتوتر، وعوضـاً عـن الفرح المطلق، كان كثير من الناس يتنبـأ بحـدوث مكـروه، وقالوا إنه لن يمر اليوم بسلام. ولذا كـان التحـدي شاخصـاً بأبصاره في كُل خُطواتنا، ليس في الاستقلال وحده، ولكن في الكيفية التي يمكن أن يدير بها سياسيون البلاد، وهم لا يملكون خبرة كافية في إدارة الدولة. ولهذا كان القلق سـيد الموقـف، يتمدد وينكمش في صدورنا ونحـن لا نملـك غيـر الترقـب المشوب بالحذر، ولا شك أن الأمن هو حجر الزاوية، سـواء قبل الاستقلال، أثناء وقائعه أو بعده!

كلنا يعلم أن التجربة في الحكم الوطني كانت محدودة، وهي عبارة عن بضع سنوات في الدولـة المهديـة، والتـي استلهمنا إرثها في تكوين الحركة الوطنية الأولـى، المنظمـة سياسياً والمحددة الأهداف الوطنيـة، وهـي حركـة "اللـواء الأبيض" وثورة ١٩٢٤، ثم كانت هناك انتفاضات، هذا إن لـم نصفها بأنها ثورات مكتملة الأركان. منها ثورة "عبدالقادر ود حبوبة" في البطانة، ومنها ثورة "السحيني" في نيالا، وثـورة "الفكي علي الميراوي" في نيالا، علاوة على ثورات الـدينكا والنوير. في واقع الأمر، كلها ثورات عشتُ زخَمهـا عنـدما أدركني الصبا، وكانت ملهمتي في المهنة التي أحببتُها بلا شك.

على عكس الثورات السابقة التي كان طابعها جهوياً إلى حد ما، كانت ثورة ١٩٢٤ ثورة قومية شاملة. وأقنعت الإنجليـز بـأن أيامهم باتت معدودة، كما أيقنوا أن الرحيل اقترب. فقمع الثـورة بشكلٍ وحشي، لم يمنع الناس من الالتفاف حولهـا فـي السـر والعلن. على الرغم من عدم رضا السيدين عبدالرحمن المهـدي وعلي الميرغني عنها، بل ومحاربتها بوسائل عديدة. أذكُـر أن والدي كان كادراً سرياً فيها، ولذلك فقد حكا لي الكثير عنها.

عقب تلك الفترة، ظهر الشعر الغنائي الوطني بصورة مكثفة، مثلاً أغنية "عازة في هـواك" لخليـل فـرح، والتـي أصبحت كما النشيد الوطني، وباتت تُشـكل وجـدان النـاس، وأصبح الناس يتداولونها كما يتداولون المنشور السـري. ثـم ألف عبيد عبدالنور أغنية أخرى أصبحت أيقونة أيضاً، وهـي قصيدة "يا أم ضفائر قودي الرسن"، وهـي قصـيدة سياسـية بامتياز. كذلك ظهرت قصيدة: "في الفؤاد ترعاه العنايـة *** بين ضلوعي الوطن العزيز" ليوسف التنَي. واللافت أن هـذه الأعمال الفنية كانت تظهر في البداية بأسـماء مسـتعارة، ولا شك أن الحراك الذي سبق ذكـره أدى إلـى بـروز مـؤتمر الخريجين في العام ١٩٣٧، وهو النشاط الذي قـام بتدشـينه مجموعة من الخريجين، نسبة إلى خريجـي كليـة غُـردون التذكارية.

في مجال الصحافة، كانت هناك أول صـحيفة بـدأت تُجاهر بنقدها للاستعمار، وهي صحيفة "السـودان الجديـد"، وكان يرأسها أحمد يوسف هاشم، الذي كان يلقـب بـ ـ"أبـو الصحف" وكثيـراً مـا تعرضـت الصـحيفة للمصـادرات والمحاكمات، مع أن معظـم المقـالات التـي كانـت تنتقـد الاستعمار، تظهر في الصحف بأسماء مستعارة.

على سبيل المثال، خضر حمـد كـان يكتـب باسـم "طُبجي"، وعبدا رجب باسم "أغبش"، وأحمد سعيد سنجاوي

يكتب باسم "سنجاوي". وهناك أيضاً محمد طه الريفي ومحمد علي بشير قُوراوي، إلى أن ظهرت الأحزاب في منتصف الأربعينات، وصدرت صحفٌ ناطقة باسم الأحزاب.. حزب الأمة ملك صحيفة "الأمة"، وحزب الأشقاء ملك صحيفة "النداء"، أما حزب الشعب الديمقراطي فكانت له صحيفة "السودان". كذلك ظهرت صحفٌ مستقلة، منها "الرأي العام" و"الصراحة" و"التلغراف"، وغيرهم.

في تلك الحقبة، بدأت الأمور تتضح أكثر، وأصبحت الممارسة السياسة سمة احترافية، وبدأت الأحزاب في الانتشار. أسس الشيوعيون حزباً أسموه "الجبهة المعادية للاستعمار"، وولجوا الساحة بنشاط مكثف ضد الاستعمار البريطاني، وتغلغلوا في أوساط الطبقة العاملة، وهي الطبقة الأكثر عددية في المجتمع آنذاك، بل الأكثر تأثيراً، لأنها مرتبطة بأسباب الحياة الاقتصادية والاجتماعية. ثم أصبحت المظاهرات ظاهرة دائمة تندلع من حين لآخر، رغم القمع ورغم المحاكمات. وهنا لا بد أن نذكر صفة ميزت الشعب السوداني، وكيفية تعامله مع ظاهرة الإضرابات والمظاهرات. فقد كانوا عندما يقتاد أحد المتظاهرين إلى المحكمة، ويحكم عليه غالباً بالغرامة عشرين أو ثلاثين جنيهاً، وهو مبلغٌ في الغالب أيضاً لا يكون بحوزة المحكوم، هنا يهب الناس وينتظموا في حملة تبرعات، بمبالغ صغيرة، ما تلبث أن تغطي المبلغ المطلوب، فيطلق سراح الشخص المعني، بغض النظر عن هويته السياسية أو المناطقية.

قضيتُ شهر يناير ١٩٥٦ كله في المدينة، وغادرتُها إلى زالنجي في أواخر الشهر، لكنني عدتُ مرة ثانية للأبيض لتحضير لوازم مناسبة زواجي من شريكة عمري "سكينة عوض سعيد"، وامتدت الاحتفالات الأسرية ومع أصدقائي لعدة أيام، ابتهجنا فيها غاية البهجة والفرح والسعادة. لكن ذلك لم يدم طويلاً..

ونحن في غمرة أفراحنا، وقبل أن نُكمل عشرة أيـام. جاءني صديقي عبدالرازق عوض الكريم حاملاً برقيـة تفيـد بضرورة حضوري إلى الخُرطوم في غُضون أسـبوع. ولـم تفصح البرقية عن أكثر من كون أن الأمر هام. وبالطبع، مـا كان يمكن أن يكون الزواج مبرراً للاعتذار. وعند وصـولي الخُرطوم، علمتُ أنه تم اختياري لكورس في لندن، وكُنا أربعة حكمدارات: حسين حمو، حمـد علـي ناصـر، عبـدالرحمن محجوب وكنتُ رابعهم.

بريطانيا فبراير – مايو ١٩٥٦

رتبنا أحوالنا على عجل، وتم كُل شيء بسرعة البرق. وفي يوم السفر، اتجهنا صوب المطار، لم يكن لـدينا سـابق معرفة بأي شيء، إذ كانت تلك هي المرة الأولى بالنسبة لنـا جميعاً التي نغادر فيها الوطن ونتجه نحو أوروبا. علمنا مـن العاملين في المطار، أن الطائرة من طـراز "داكوتـا"، وهـي صغيرة الحجم، ولذا فسوف تقطع المسافة على مراحل. وبرغم القلق الذي كان يعترينا جميعاً، لكن كان هنـاك ثمـة شُـعور بالسعادة والإحساس بالتميز، الذي يزيده الزي الشُرطي بهيبته وقاراً.

غادرنا الخُرطوم حيث هبطت الطائرة في مطار مدينة حلفا كأول محطة من المراحل التي سـتقطعها. ولـم نمكُـث طويلاً حيث تزودت الطائرة بالوقود واتجهنا صـوب مطـار القاهرة، وعند وصولنا، كان في استقبالنا "العتبـاني" وكـان يشغل وظيفة باشكاتب فـي السـفارة بعـد افتتاحهـا عقـب الاستقلال. كانت تلك هي المرة الأولى التي نرى فيها القاهرة، والتي بهرتنا وكدنا أن نصاب بصدمة حضارية. مكثنـا فيهـا نحو ١٨ ساعة قضيناها في فندق قريب من المطار.

غادرنا القاهرة إلى روما، ثم امستردام في هولندا. وفي الحقيقة، كانت دهشتنا الحضارية تزداد من مدينة إلى أخـرى،

فكُل شيء كان منظماً ومرتباً حد الذهول. وأخيراً وصلنا لندن بعد ساعات طويلة. صحيح، كانت الرحلة شاقة، ولكننـا لـم نشعر بالتعب ولا الملل، نسبة لإحساس السعادة بوطء أقـدامنا أوروبا للمرة الأولى.

في لندن، حيث استقبلنا أفراد من الشرطة البريطانيـة، ما أن خرجنا إلى جـوف المدينـة، حتـى بـدأت الصـورة الحضارية تزداد رهبة في عيوننا. بدا ذلك الشـعور برؤيـة الثلج، حيث وصلنا في فصل الشتاء، وكان منظر البياض الذي يغطي كل شيء مثير للغاية في نفوسنا، علاوة على أننا لم نكن معتادين على البرد الشديد.

اتجهنا صوب غرب لندن، حيث حدد مكان إقامتنا فـي منطقة "هاميلتون". وعرفنا لاحقاً أنها أكبر منطقة في بريطانيا تسجل رقماً قياسياً في الجرائم، وكان الهدف، كما قيل لنا، أن نقف على أشياء عملية. واستمرت دراستنا نظرياً وعملياً فـي تلك المنطقة لمدة شهر. وبعدها تم نقلنا لمدينة مدينة نوتينغهام لذات الغرض، وقضينا بضعة أيام، ثم ذهبنا إلى مدينة جلاسكو لمدة أسبوعين.

كان الكورس مكثفاً ولم يدع لنا أي فرصة لأي نشـاط خارج إطار الدراسة. وبالطبع، كانت بنا رغبة شديدة للتعرف على أوجه الحياة في بريطانيا، إلا أننا لم نُفصح عن ذلك. لكن المهم أن الكورس كان مفيداً للغاية، تعلمنا فيه أشياء كثيرة من كبار الضباط الإنجليز.

من المفارقات الطريفة، عندما حل شهر رمضان، وكنا في مدينة نوتينغهام، صمنا يومنا الأول بشق الأنفُس، لأن اليوم كان طويلاً جداً بحسب الفوارق الزمنية. فأدركنا أن الصـوم مرهق، وفوق ذلك يتعارض مع برنامج الكورس، الذي يتطلب حضوراً ذهنياً وبدنياً، إضافة لمسألة أخرى وجدنا فيها ضالتنا، وتمثلت في الذبح الحلال، فقررنا ألا نصوم، عدا زميلنا محمد

علي ناصر، الذي كان شديد التدين وأصر على الصوم، مما اضطره للذهاب بالقطار إلى مطعم باكستاني يبعد أكثر من ساعة من مكان إقامتنا، ولكن بعد نحو أسبوع أو أقل، حدث أن تعثرت قدماه ووقع من القطار، فتوقف عن الذهاب ومن ثم توقف عن الصوم.

أخيراً عدنا إلى لندن، كمحطة أخيرة من الكورس، والتي سوف نبقى فيها لفترة أطول. في البداية، كانوا قد نقلونا إلى خارج لندن لمقابلة مدير عام الشرطة البريطانية. كان المشوار طويلاً وصاحبه روتين إنجليزي معقد في الإجراءات. عندما قابلنا مدير عام الشرطة، كان كبيراً في السن، فرحب بنا وقال لنا: **«إن تقاريركم ممتازة»**، وحينها غمرتنا السعادة لأننا قابلنا شخصية معتبرة ولها وزنها في جهاز الدولة البريطاني. لكن أذكُر أن مما لفت انتباهنا، وأصبح مصدر تندر فيما بيننا، أن للرجل صلعة ملساء لا توجد شعرة واحدة في رأسه، فأصبحنا نكنيه فيما بيننا بـ"أبو صلعة".

لم يكن السودانيون في لندن بكثرة واضحة، بل لم يكُن قد تم تعيين سفير في ذاك الوقت. عوضاً عن ذلك، هناك سيدة بريطانية كانت قائمة بالأعمال، اسمها "مسز كليفر". وكانت مشرفة على السودانيين الموجودين في إنجلترا، ومعظمهم من الطلاب الدارسين وموزعين على جامعات مختلفة، لا يتجاوز عددهم العشرين شخصاً.

أما نحن، فعلاقتنا بالسفارة كانت محددة في بعض الأطر.. مثلاً كنا نذهب للسفارة لكي نستلم أي خطابات تردنا من السودان، وكذلك نذهب لاستلام المبالغ النثرية المخصصة لنا شهرياً. وحدث مرةً أن صادفتُ الموسيقار "الماحي إسماعيل"، والذي قال لي إن لديه حفل استماع موسيقي، وعنده تذكرتان ودعاني للذهاب معه، وأصر علي، بدعوى أن المناسبة مهمة، وأن التذكرة التي معه سعرها غالي جداً. مع تلك الإغراءات قبلت الدعوة.

ذهبنا معاً للحفل وكان المكان راقياً ومنظماً ومبهـراً. كان الحفل عبارة عن خمس مقطوعات موسيقية يقدمها خمسة عازفون بالكمنجة، وبين كُل واحدة وأخرى، تنـاقش القطعـة لمدة ساعة كاملة، وذلك بغرض أن تـدخُل القطعـة المعينـة منافسة عالمية، وحتى العازفين كانوا قد جاءوا مـن منـاطق مختلفة.. من أستراليا وألمانيا، بالإضافة إلى بريطانيا.

بعد أن قضينا وقتاً جميلاً، قدمني الماحي إلى أسـتاذه في المعهد باعتباري عازف كمنجة، لكني قلتُ له مـع ذلـك، إنني لا أعرف ما قُدم في تلك الأمسية، فسألني عـن المعهـد الذي تعلمتُ فيه العزف، فقلتُ له إنني علمتُ نفسي بنفسـي، فأبدى دهشة عميقة. وزادت دهشته عندما حدثتُه عن الموسيقى الأفريقية وقلتُ له إنها نتاج بيئة مختلفة، مما يصـعب علـى النوتة الموسيقية تسطيرها. وحدثته كذلك عن السلم الخُماسي، الذي نتبعه موسيقياً، وتشترك معنا فيه بعض الدول الأفريقية، وقد لا يرقى لمستوى العالمية. وأردفتُ له قائلاً: **«أنـا أعلـم أنكم لا تعرفونه هنا في بريطانيا، ولكن سيأتي يوم تعرفونـه فيه»**، فقال لي: **«هذا رأى جيد»**، واستحسن ما قُلتُ، ولكن لا أستطيع أن أقول إن ذلك هو رأيه الذي يخفيه داخل صـدره، فالإنجليز لا يعبرون عن دواخلهم بسهوله. ولهـذا، وصـموا بالبرود، أي برود المشاعر، وهو حقيقة.

قضينا فترة ممتعة في بريطانيا امتدت زهاء الخمسـة أشهر، من فبراير ١٩٥٦ وحتـى يوليـو ١٩٥٦، وبمجـرد وصولي الخُرطوم، ذهبتُ لرئاسة الشرطة.. كان هناك نائـب المدير العام، السيد/ عباس فضل، وهو من أبناء دنقُلا، وكانت تجمع بيننا علاقة جيدة. فقال لي على الفور: **«عندنا مشكلة لن تستطيع حلها إلا أنت، وهي أننا نواجه نقصاً في دارفـور»**، فقلتُ له: **«يا سعادتك قطعت علي مناسبة زواجي، وسـافرت لندن، والآن دارفور؟!»**.. لكنه لم يدعني استمر، فقال لي: **«يا عثمان، أنا متأكد إنو المأمورية دي مفيدة ليك»**. ثم أغرانـي

بقوله إنها مهمة مؤقتة لبضع شهور. فاشترطتُ عليه أن أذهب إلى الأبيض أولاً لتصحبني زوجتي، فوافق.

الفاشر أغسطس ١٩٥٦

ذهبتُ إلى دارفور وقضيتُ فيها مدة بسيطة، لا تتعدى بضعة أشهر، نظراً لأن أوامر أخرى أرسلت للمركز وأشارت إلى نقلي إلى مدينة جوبا، ولم يكن ثمة خيار في تلبية الأوامر. غادرتُ إلى جوبا، ومن حسن الحظ، كان التمرد قد توقف، إن لم يكُن قد انتهى، بعد محاصرته في المرة الأولى. فقضيتُ في جوبا نحو تسعة أشهر. وبعدها رجعت إلى الفاشر مرة أخرى، وكان قد نُقلَ منها محمود بخاري، حيث تمت ترقية عبدالقادر محمد الأمين من حكمدار لرتبة كومندان. وعدتُ إلى الفاشـر مجدداً، وقضيتُ فيها عدة سنوات حتى العام ١٩٥٩.

زيارة عبدالله خليل

من الأحداث العامة التي مرت علي أثناء عملـي فـي دارفور، أذكُر أنه جاءتنا برقية تفيد بزيارة يزمع السيد عبدا خليل رئيس الوزراء القيام بها. وأرسل لنا برنـامج الزيـارة وعكفنا على تنفيذ خُطة الزيارة بحـذافيرها، نظـراً لأهميـة المسئول الزائر. الجدير بالذكر، أن السيد عبدا خليـل كـان نائب دائرة "أم كدادة" في الانتخابات الوحيدة التي جرت فـي حقبته، كما أنه سبق وأن عملَ بها، كما قال لي شخصياً.

كان من ضمن البرنامج، أن نذهب من الفاشر إلى كُتُم بالعربات. وفي الطريق، كانت هناك دعوة إفطار للوفد في واد كبير اسمه "وادي السيل"، والذي يمتاز بطبيعة ساحرة ومناظر خلابة.

أثناء وجودنا في الوادي، خرج السيد عبدا خليل من المعسكر، ويبدو أن سحر المكان اسـتهواه، وأعجبتـه تلـك المناظر التي تجلي الأنظار، فأراد التنزه منفرداً، وعلى غفلـة من الحاضرين. ولما كُنتُ أنا المسئول عن تـأمين حراسـته،

خشيتُ أن يلاقيه حيوان مفترس، عندما لاحظتُ خروجه مـن المعسكر منفرداً. فبدأتُ أسأل عن وجهة رئيس الوزراء؟ ولما علمتُ ألا أحد يملك إجابة شافية، مشيتُ وراءه مـن دون أن يشعر. وفجأة توقف ولمحني، فقال لي: **«في إيه يـا عثمـان، لماذا تذهب من ورائي، إنت خُفت علي ولا إيه؟»**.. فقُلتُ له: **«يا سعادتك، خشينا في الوادي ده تقابلك أي حاجة، الواحـد ما بعرف ممكن يحصل شنو»**.

كان سيادته يتحدث بلهجة مصرية، كما هو معـروف. وشرع في ونسة حميمة، سألني عن أحوالي الشخصية، وعـن أحوال الأمن. وأثناء ذلك، توقف السيد عبـدا خليـل عـن المشي، وبدأ يتأمل في الطبيعة حوله، وقال لي: «يا عثمان يا إبني، الواحد تعب من مشاكل البلاد دي، يحلوها من هنا، تجيلك من هناك. فتبسمتُ وقُلتُ له: **«ربنا يـدي سـعادتك الصـحة والعافية وتحلوا كُل المشاكل»**، وفجأة قال لي بنبـرة يشـوبها شيء من اليأس: **«البلاد دي يا عثمان ما ينفعشي معاها غيـر حكم عسكري»**.

حقيقة، لم أجرؤ على التعقيب، بل لم أنبس ببنت شفة. ولا أدري ما إذا كان لهذه العبارة صلة بما حدث بالفعل بعـد شهور قليلة في نوفمبر ١٩٥٨ بانقلاب الفريق إبراهيم عبـود وما شابه من ملابسات تأكد فيها أنه محض "تسليمٍ وتسلم"، أم مجرد مسألة صدفة. غير أني كُنتُ أثناء حديث السيد عبـدا خليل أتأملُ في تقاطيع وجهه، الذي بدا لي مرهقاً، وكما هـو معروفٌ، كان الصراع على أشده بين حزبي الأمة والاتحادي الديمقراطي.

بعد ذلك تحركنا من الوادي نحو مدينة زالنجي، ولـم نتوقف كثيراً فيها، فواصلنا المسير نحو جبل مـرة. وقضـينا الليلة هناك، وكانت الطبيعة أكثر جمالاً مما شاهدناه في وادي السيل. رأيتُ السيد عبدا خليل في الصباح منشرح الأسارير وكثير الإعجاب بالمناظر التي تحيط بنا من كُل جانـبٍ فـي

الجبل. ففعل ما فعل من قبل، حيث غـادر المعسـكر للتنـزه وحده، وفعلتُ أيضاً ما فعلته من قبل، حيث تحركتُ خلفه ولم أجعله يغيب عن عيني، ولكن لم يتحدث إلي هذه المرة مثلمـا فعل من قبل، فقد ظل صامتاً ويبدو في حالة تفكير عميق.

أكملنا بقية الزيارة وعدنا أدراجنا إلى الفاشر، وكان كُل شيء مرتباً ودقيقاً فيما يخُص الزيارة، إلـى أن عـاد السـيد عبدا خليل إلى الخُرطوم، وأثنى الجميـع علـى الترتيبـات الأمنية وعدم حدوث ما يعكر صفو الزيارة.

انقلاب عبود

ذات يوم من أيام نوفمبر ١٩٥٨، جاءني قائد القُـوات الغربية "أحمد رضا فريد" وهو يقود عربته بنفسـه، والـذي أصبح أحد قادة انقلاب الرئيس إبراهيم عبود لاحقاً، وعضـواً بالمجلس العسكري العالي. وكانت الساعة قـد اقتربـت مـن منتصف الليل، فطلب مني الركُوب معه، وذهبنا إلـى مكـان خارج الفاشر، فقال لي: **«أنا حضرتُ في أمر هام وضروري، وأريد منك أن تعطيني كلمة شرف بأن تحافظ علـى السـر، وتحرص تماماً ألا يطلع عليـه أحـد منـك»**.. فقلـتُ لـه: **«أعدك»**.. فقال لي: **«لا، أحلف لي بالطلاق»**.. وبالفعل حلفتُ له بالطلاق.. فقال لي: **«الجيش في حالة استعداد للتغيير في غُضون ساعات، وأريد أن تجمع كُل القُوة، وأريـد منـك أن تسيطر على الموقف في حال حدوث أي شيء، وتتصل بـي في أي وقت تشاء.. أحصر نفسك في الجيش والبـوليس، لا تخبر أياً من الإداريين»**..

بالفعل استدعينا كُل القُوة السـاعة الرابعـة صـباحاً، وأعطيتُ أوامر بألا يتحرك أحد. وقلتُ لهم: **«هناك تحركـات ولا بد أن تكون هذه البلاد محروسة في الداخل والخـارج»**. وانتظر الطابور حتى الساعة الخامسة، وتأكدنا بـأن الفاشـر مغطاة أمنياً تماماً.

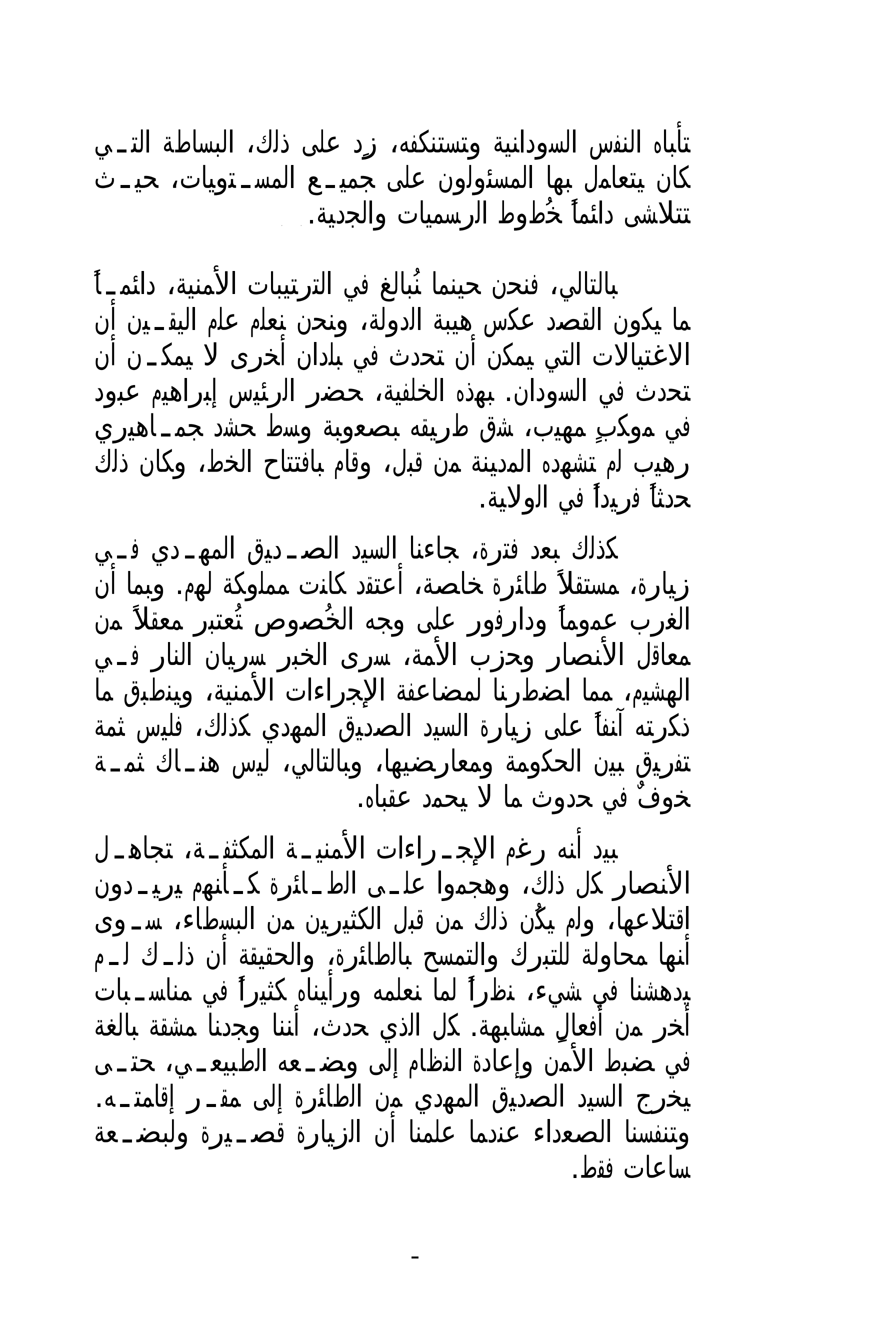
في تلك الليلة، تحركتُ نحو الرئاسة واستدعيتُ كل الضباط، وأعطيتهم تعليمات بأن تكون كل القوة في الرئاسة في غضون ساعة. والقوة كانت في حدود ٢٠٠ فرداً. ثم ذهبتُ إلى منزلي وعدتُ بالفعل ووجدتُ كُل القُوة مسجلة "تمام". فصرفتُ للجميع التعليمات، وقلتُ لهم: **«الساعة خمسة إنتوا تستلموا البلد دي كلها، بمعني تُوضع قُوات في كُل المناطق المهمة»**. واحد فقط من الضباط قال لي: **«عايزين نعرف الحاصل شنو؟»**.. فرديت عليه بالإنجليزي: « It is not now» (ليس الآن). وبالفعل، اتصل بي اللواء "رضا" الساعة الرابعة ونصف صباحاً، فأكدتُ له جاهزيتي وقُواتي تماماً. فقال لي: **«الساعة السادسة صباحاً دير مؤشر الراديو»**.

حدث الانقلاب باكراً، وقال لي "محمد رضا فريد": **«سوف تسمع في الإذاعة "البيان رقم واحد" في الساعة السادسة والنصف صباحاً»**. وكُنا قد تأكدنا من أن كُل شيء مؤمن تماماً.. التلفونات، التلغراف، الوحدات النظامية.. الخ. واتصلتُ بمدير المديرية علي حسين في الساعة السادسة إلا خمسة دقائق، فأبدى دهشة وعاتبني لماذا لم أكلمه من قبل. ثم سألني عن تأمين كُل شيء، فقلتُ له: "كله تمام". والحقيقة كُنا نخشى الوجود الكبير لكوادر حزبي الأمة والاتحادي الديمقراطي في الفاشر.

قبل هذا أود أن استعرض زيارات مهمة لمسئولين.

سياسيون زائرون

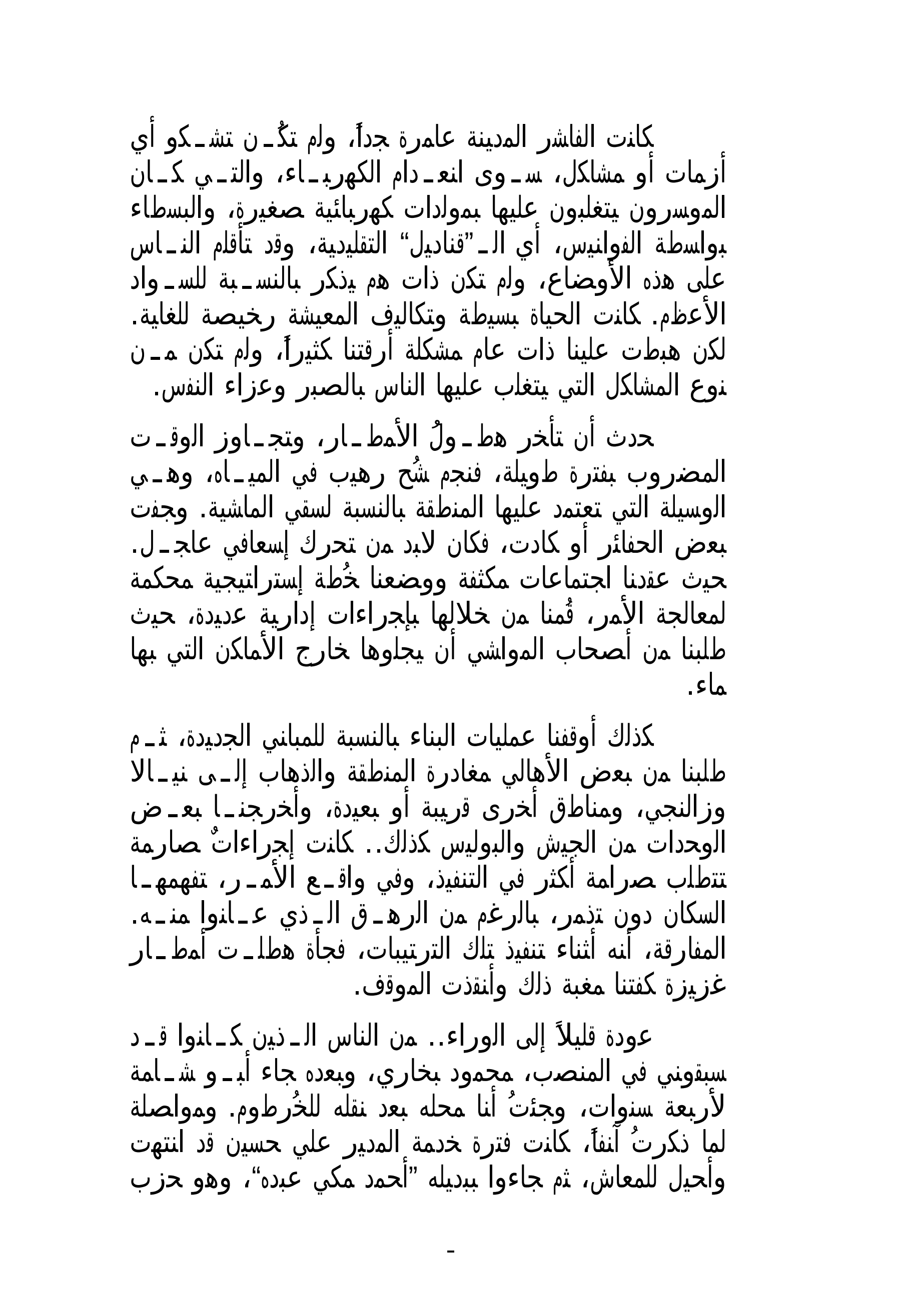
في زيارة أخرى لمسئول سيادي، أُبلغنا أن الفريق إبراهيم عبود سوف يحضر لافتتاح خط السكة الحديد، الذي امتد حتى مدينة نيالا. وضعنا ترتيبات أمنية صارمة، نسبة لأهمية الزائر. والحقيقة، عندما أقولُ صارمة، فذلك وفقاً للبروتُوكول الطبيعي، ولكننا كُنا على يقينٍ كامل أن السودانيين لا يمكن أن يقدموا على عملية اغتيال مسئول مثلاً، ذلك مما


تأباه النفس السودانية وتستنكفه، زِد على ذلك، البساطة التـي كان يتعامل بها المسئولون على جميـع المسـتويات، حيـث تتلاشى دائماً خُطوط الرسميات والجدية.

بالتالي، فنحن حينما نُبالغ في الترتيبات الأمنية، دائمـاً ما يكون القصد عكس هيبة الدولة، ونحن نعلم علم اليقـين أن الاغتيالات التي يمكن أن تحدث في بلدان أخرى لا يمكـن أن تحدث في السودان. بهذه الخلفية، حضر الرئيس إبراهيم عبود في موكبٍ مهيب، شق طريقه بصعوبة وسط حشد جمـاهيري رهيب لم تشهده المدينة من قبل، وقام بافتتاح الخط، وكان ذلك حدثاً فريداً في الولاية.

كذلك بعد فترة، جاءنا السيد الصـديق المهـدي فـي زيارة، مستقلاً طائرة خاصة، أعتقد كانت مملوكة لهم. وبما أن الغرب عموماً ودارفور على وجه الخُصوص تُعتبر معقلاً من معاقل الأنصار وحزب الأمة، سرى الخبر سريان النار فـي الهشيم، مما اضطرنا لمضاعفة الإجراءات الأمنية، وينطبق ما ذكرته آنفاً على زيارة السيد الصديق المهدي كذلك، فليس ثمة تفريق بين الحكومة ومعارضيها، وبالتالي، ليس هنـاك ثمـة خوفٌ في حدوث ما لا يحمد عقباه.

بيد أنه رغم الإجـراءات الأمنيـة المكثفـة، تجاهـل الأنصار كل ذلك، وهجموا علـى الطـائرة كـأنهم يريـدون اقتلاعها، ولم يكُن ذلك من قبل الكثيرين من البسطاء، سـوى أنها محاولة للتبرك والتمسح بالطائرة، والحقيقة أن ذلـك لـم يدهشنا في شيء، نظراً لما نعلمه ورأيناه كثيراً في مناسـبات أخر من أفعالٍ مشابهة. كل الذي حدث، أننا وجدنا مشقة بالغة في ضبط الأمن وإعادة النظام إلى وضـعه الطبيعـي، حتـى يخرج السيد الصديق المهدي من الطائرة إلى مقـر إقامتـه. وتنفسنا الصعداء عندما علمنا أن الزيارة قصـيرة ولبضـعة ساعات فقط.



كانت الفاشر المدينة عامرة جداً، ولم تكُن تشكو أي أزمات أو مشاكل، سوى انعدام الكهرباء، والتي كان الموسرون يتغلبون عليها بمولدات كهربائية صغيرة، والبسطاء بواسطة الفوانيس، أي الـ"قناديل" التقليدية، وقد تأقلم الناس على هذه الأوضاع، ولم تكن ذات هم يذكر بالنسبة للسواد الأعظم. كانت الحياة بسيطة وتكاليف المعيشة رخيصة للغاية. لكن هبطت علينا ذات عام مشكلة أرقتنا كثيراً، ولم تكن من نوع المشاكل التي يتغلب عليها الناس بالصبر وعزاء النفس.

حدث أن تأخر هطولُ الأمطار، وتجاوز الوقت المضروب بفترة طويلة، فنجم شُح رهيب في المياه، وهي الوسيلة التي تعتمد عليها المنطقة بالنسبة لسقي الماشية. وجفت بعض الحفائر أو كادت، فكان لابد من تحرك إسعافي عاجل. حيث عقدنا اجتماعات مكثفة ووضعنا خُطة إستراتيجية محكمة لمعالجة الأمر، قُمنا من خلالها بإجراءات إدارية عديدة، حيث طلبنا من أصحاب المواشي أن يجلوها خارج الأماكن التي بها ماء.

كذلك أوقفنا عمليات البناء بالنسبة للمباني الجديدة، ثم طلبنا من بعض الأهالي مغادرة المنطقة والذهاب إلى نيالا وزالنجي، ومناطق أخرى قريبة أو بعيدة، وأخرجنا بعض الوحدات من الجيش والبوليس كذلك.. كانت إجراءاتٌ صارمة تتطلب صرامة أكثر في التنفيذ، وفي واقع الأمر، تفهمها السكان دون تذمر، بالرغم من الرهق الذي عانوا منه. المفارقة، أنه أثناء تنفيذ تلك الترتيبات، فجأة هطلت أمطار غزيزة كفتنا مغبة ذلك وأنقذت الموقف.

عودة قليلاً إلى الوراء.. من الناس الذين كانوا قد سبقوني في المنصب، محمود بخاري، وبعده جاء أبو شامة لأربعة سنوات، وجئتُ أنا محله بعد نقله للخُرطوم. ومواصلة لما ذكرتُ آنفاً، كانت فترة خدمة المدير علي حسين قد انتهت وأحيل للمعاش، ثم جاءوا ببديله "أحمد مكي عبده"، وهو حزب

أمة وأنصاري، في حين أن "علي أبو سن" كان اتحادياً. كـان أول قرار اتخذه "أحمد مكي عبده" طلبه من الخُرطوم نقل كل مدراء المصالح في الإدارات المختلفة، بما فـيهم أنـا، إلـى الاستوائية. وكان ذلك بعد الانقلاب.

كان قراراً مفاجئاً ومزلزلاً للكثيرين منا. لكن هنـا أود أن أذكر شيئاً امتازت به الخدمة المدنية والنظامية السـودانية، وهي الإذعان لتنفيذ الأوامر أولاً، مهمـا كانـت طبيعتهـا.. والمسألة الثانية، أن هذه القرارات دائماً ما تُتخذُ بنـاء علـى المصلحة الوطنية في المقام الأول، ونادر جداً منها ما يمكـن شخصنته، والشيء الثالث، غالباً ما يكون هناك تفهم حقيقي من الطرفين، صانع القرارات ومتلقيها. أما الشيء الأخير، الـذي يمكن إدراجه أو عدم إدراجه في خضم هذه الملاحظات، فهـو أن العاملين في الخدمتين المدنية والنظامية يجدون متعة فائقـة في التنقل بين الأقاليم والمدن السودانية.

في واقع الأمر، كانت لهـذه الإجـراءات انعكاسـات إيجابية فائقة في مسألة لا يتذكرها الناس كثيراً، وهي إثـراء التنوع الثقافي والتعدد الإثني والعرقي والديني في السـودان، فذلك مما لا يمكن أن يقدر بثمن في بلد كُل شيء فيـه بلغـت تعدديته حد الإدهاش..

في يوليو من العام ١٩٥٩، وتبعاً لهذه الخلفية، أقـولُ: سلمتُ النور حامد المسئولية من بعدي طائعاً الأوامر. أي تلك الأوامر التي جاءت إلينا من علٍ، كما في نظام الشُرطة، ونحن لها منفذون..

جوبا (١٩٥٩ـ ١٩٦٤)

كان الحكمدار، هو السر محمـد أحمـد فـي المديريـة الاستوائية، وعندما وصلتُ مدينة جوبا، فضلتُ أن أنزل ضيفاً على صديقي محمود أبو سنينة، فقد تقاسمنا السكن "ميز" مـن قبل في عدة مدن. عموماً كان الجنوب بشكلٍ عام يقع في دائرة الهدوء الحذر. وبما أنني عاصرتُ هذه المشكلة من جذورها، أود أن أقول رأياً لا يقع في إطار التسجيل التوثيقي للمذكرات، بقدر ما هو من صميم العظات والعبر، وإن شئت فقُل الحكمة التي يمكن أن يصدح بها أي إنسان عاش تجربة ضخمة كتلك.

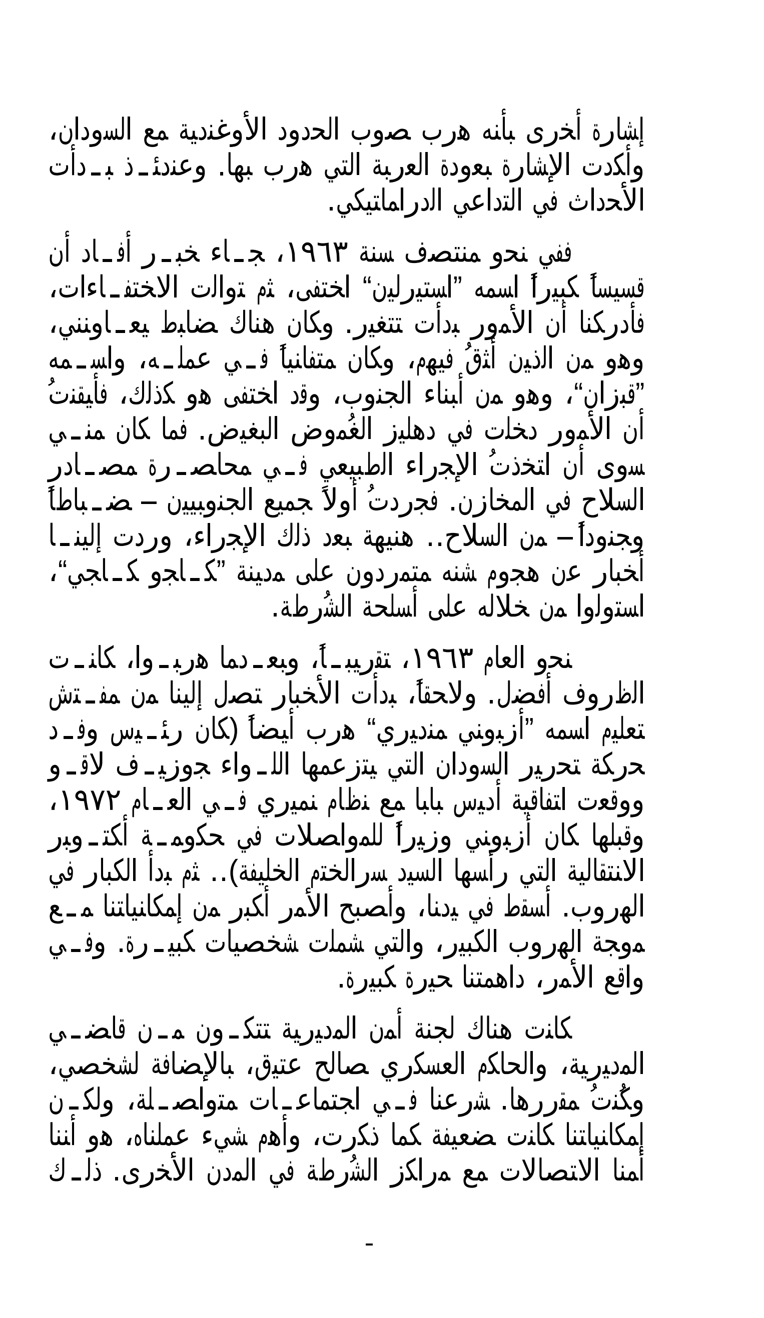
علمتني الحياة بالفعل أن مستعظم النار من مستصـغر الشرر، وعلمتني الحياة ألا أستهين بالحدث أياً كان حجمه، ولا أقلل من شأنه، وأن ما يمكن أن يكون هادئـاً علـى السـطح وطبيعي، يمكن أن يكون فيه مقتلك، فلذا كان توخي الحذر من أولى متطلبات العمل في القطاعات التنظيمية بصـورة عامـة والشرطة على وجه الخُصوص. فعندما وصلتُ الجنوب، كانت الأوضاع بصورة عامة في حالة هدوء تام، وبالرغم من أنه لا توجد مشاكل، أو كما يوحى لنا، إلا أن ذلك الهدوء كان مخيفاً.

كان عدد الشماليين قليلٌ جداً، ومعظمهم مـن التُجـار الذين يطلق عليهم "الجلابة". وكان مدير المديرية، هو "علـي بلدو"، رجلٌ من أفضل الإداريين الذين مروا على البلاد. كان يتميز بحنكة بائنة وقُدرة على الصبر الطويـل، إلـى جانـب ميزات إنسانية هائلة، كان قد سخرها لهذه المشكلة والتي كانت بالفعل، أبلغ علمه وغاية همه. وفي واقع الأمـر، فـإن مثـل الصفات التي أكشف عنها في شخصية "بلدو" كانت ضرورية للغاية في معالجة مشكلة بالغة التعقيد إثنياً وثقافياً وعقدياً. وهي الأسس التي استندت عليها مشكلة الجنوب.

كان "وليم دينق" مقرب بدرجة كبيرة وملحوظـة مـن "علي بلدو". في الوقت نفسه، كانت بيننا – أي دينق وشخصي – معرفة نشأت في السنين القليلة الماضية، وبعـد وصـولي الجنوب، تواصلت الاتصالات بيننا، فقد كُنتُ أرى فيه ما يراه الآخرون، أو كما هيئ لي. لكن على كُل حالٍ، كُنتُ على يقين بأن "وليم دينق" سيكون ركناً أساسياً في كُل ما نحن بصـدده في مشكلة الجنوب، وكُنتُ ألحظ طموحه الوثاب فـي الـتعلم، وكُنتُ أرهفُ السمع لآرائه النيرة في مشكلة السـودان ككـل، والجنوب على وجه الخُصوص. وكان يذهلني بتحليلاته، ولكن لا أخفي عليكُم، أنه لم تصل كُل تلك اليقينيات إلى حد التثبت.. لماذا؟! سأسألُ وأجيب.. ببساطة، لأن النُخب السودانية، بمـا فيهم شخصي الضعيف، مشـحونون بـدرجات هائلـة مـن الاستعلاء العرقي، الذي يحجب الرؤية تماماً عن الحلول فـي أي مشكل، ولا ينكشف لك إلا الحل الذي ترتضيه أنتَ، مهما كانت درجة ضآلته.

من خلال معاودة اتصالاتي بعد عودتي بـ"وليم دينق"، وبناء على العلاقة السابقة التي بيننا، ظـل التواصـل بيننـا مستمراً. وعلمتُ منه أنه ذهب إلى الخُرطوم لامتحان القانون، وهو مادة إجبارية للإداريين. وسعدتُ به عندما عاد من هناك وجاءني في المكتب، فرحبتُ به كصديق قبل كُل شـيء. ثـم طلب مني رسمياً طلبيات لأفراد الشُـرطة وكانـت طلبيـات مشروعة وعادية، فجهزتها له عن طيـب خـاطر وودعتـه. وطلبتُ منه أن نكون على تواصلٍ، وطويت الموضـوع فـي ذاكرتي، بعد أن جاءني أحد أفراد الشُرطة وأبلغني بإيفاء كُـل الطلبات التي تقدم بها "وليم دينق". وقال لي إنه يود وداعـي، فرحبتُ به، وكان ذاك وداعي الأخير لـ"وليم دينق".

مضت الأمور بصورة عادية، واستغرقنا الروتين العام في تنظيم العمل. وجئتُ ذات صباح إلى مكتبي، لأفاجأ بإشارة أفادت بأن مدير المركز غير موجود. وفي اليوم التالي، أكدت

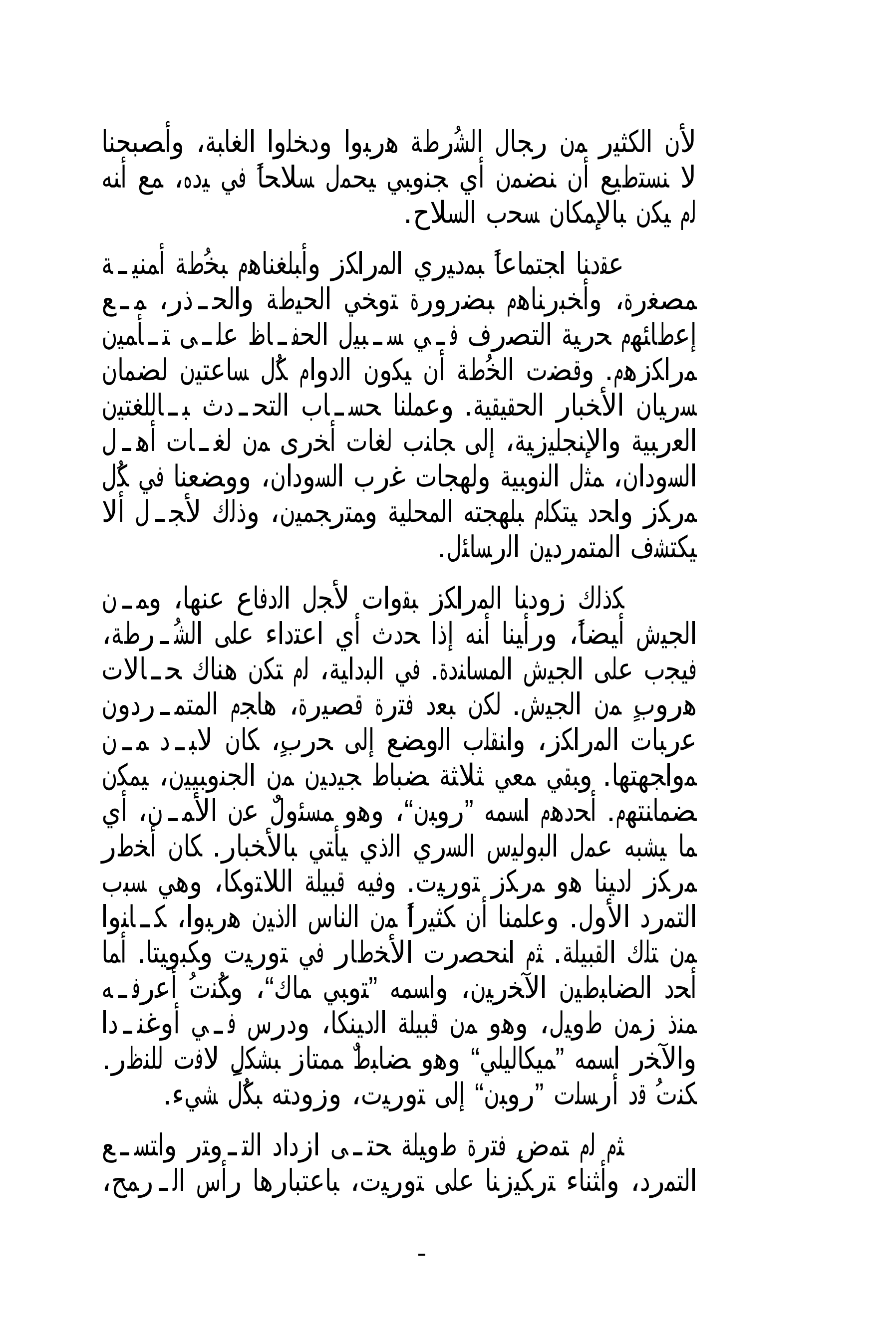


إشارة أخرى بأنه هرب صوب الحدود الأوغندية مع السودان، وأكدت الإشارة بعودة العربة التي هرب بها. وعندئذ بدأت الأحداث في التداعي الدراماتيكي.

ففي نحو منتصف سنة ١٩٦٣، جاء خبر أفاد أن قسيساً كبيراً اسمه "استيرلين" اختفى، ثم توالت الاختفاءات، فأدركنا أن الأمور بدأت تتغير. وكان هناك ضابط يعاونني، وهو من الذين أثقُ فيهم، وكان متفانياً في عمله، واسمه "قبزان"، وهو من أبناء الجنوب، وقد اختفى هو كذلك، فأيقنتُ أن الأمور دخلت في دهليز الغُموض البغيض. فما كان مني سوى أن اتخذتُ الإجراء الطبيعي في محاصرة مصادر السلاح في المخازن. فجردتُ أولاً جميع الجنوبيين – ضباطاً وجنوداً – من السلاح.. هنيهة بعد ذلك الإجراء، وردت إلينا أخبار عن هجوم شنه متمردون على مدينة "كاجو كاجي"، استولوا من خلاله على أسلحة الشُرطة.

نحو العام ١٩٦٣، تقريباً، وبعدما هربوا، كانت الظروف أفضل. ولاحقاً، بدأت الأخبار تصل إلينا من مفتش تعليم اسمه "أزبوني منديري" هرب أيضاً (كان رئيس وفد حركة تحرير السودان التي يتزعمها اللواء جوزيف لاقو ووقعت اتفاقية أديس بابا مع نظام نميري في العام ١٩٧٢، وقبلها كان أزبوني وزيراً للمواصلات في حكومة أكتوبر الانتقالية التي رأسها السيد سرالختم الخليفة).. ثم بدأ الكبار في الهروب. أسقط في يدنا، وأصبح الأمر أكبر من إمكانياتنا مع موجة الهروب الكبير، والتي شملت شخصيات كبيرة. وفي واقع الأمر، داهمتنا حيرة كبيرة.

كانت هناك لجنة أمن المديرية تتكون من قاضي المديرية، والحاكم العسكري صالح عتيق، بالإضافة لشخصي، وكُنتُ مقررها. شرعنا في اجتماعات متواصلة، ولكن إمكانياتنا كانت ضعيفة كما ذكرت، وأهم شيء عملناه، هو أننا أمنا الاتصالات مع مراكز الشُرطة في المدن الأخرى. ذلك



لأن الكثير من رجال الشُرطة هربوا ودخلوا الغابة، وأصبحنا لا نستطيع أن نضمن أي جنوبي يحمل سلاحاً في يده، مع أنه لم يكن بالإمكان سحب السلاح.

عقدنا اجتماعاً بمديري المراكز وأبلغناهم بخُطة أمنيـة مصغرة، وأخبرناهم بضرورة توخي الحيطة والحـذر، مـع إعطائهم حرية التصرف فـي سـبيل الحفـاظ علـى تـأمين مراكزهم. وقضت الخُطة أن يكون الدوام كُل ساعتين لضمان سريان الأخبار الحقيقية. وعملنا حسـاب التحـدث بـاللغتين العربية والإنجليزية، إلى جانب لغات أخرى من لغـات أهـل السودان، مثل النوبية ولهجات غرب السودان، ووضعنا في كُل مركز واحد يتكلم بلهجته المحلية ومترجمين، وذلك لأجـل ألا يكتشف المتمردين الرسائل.

كذلك زودنا المراكز بقوات لأجل الدفاع عنها، ومـن الجيش أيضاً، ورأينا أنه إذا حدث أي اعتداء على الشُـرطة، فيجب على الجيش المساندة. في البداية، لم تكن هناك حـالات هروبٍ من الجيش. لكن بعد فترة قصيرة، هاجم المتمـردون عربات المراكز، وانقلب الوضع إلى حربٍ، كان لابـد مـن مواجهتها. وبقي معي ثلاثة ضباط جيدين من الجنوبيين، يمكن ضمانتهم. أحدهم اسمه "روبن"، وهو مسئولٌ عن الأمـن، أي ما يشبه عمل البوليس السري الذي يأتي بالأخبار. كان أخطر مركز لدينا هو مركز توريت. وفيه قبيلة اللاتوكا، وهي سبب التمرد الأول. وعلمنا أن كثيراً من الناس الذين هربوا، كـانوا من تلك القبيلة. ثم انحصرت الأخطار في توريت وكبويتا. أما أحد الضابطين الآخرين، واسمه "توبي ماك"، وكُنتُ أعرفـه منذ زمن طويل، وهو من قبيلة الدينكا، ودرس فـي أوغنـدا والآخر اسمه "ميكاليلي" وهو ضابطٌ ممتاز بشكلٍ لافت للنظر. كنتُ قد أرسلت "روبن" إلى توريت، وزودته بكُل شيء.

ثم لم تمضِ فترة طويلة حتـى ازداد التـوتر واتسـع التمرد، وأثناء تركيزنا على توريت، باعتبارها رأس الـرمح،

امتد التوتر إلى بحر الغزال. وتعذر علينـا أن نجـد أخبـاراً صحيحة من داخل حركة التمرد نفسها. وكـان يعمـل معـي جندي برتبة "شريطين" وهو من قبيلة الدينكا، وهو شاب ذكي جداً، وكُنتُ أثق فيه، فطلبت منه أن يحضر لي في المنـزل. وهناك قلتُ له إننا نملك أخباراً عما حدث في أوغندا، وكـذلك في باقي الحاميات. فطرح لي مقترحاً أن يذهب هو.. فسألته: كيف؟! قال لي إنه سيدخل الغابة كما دخلها الآخرون الـذين هربوا. فقلت له قلقاً: لكن إذا قبضوا عليك فسوف يقتلونـك.. فقال لي: لا تخف، أنا أعرف كيفية التصرف معهم.

عرضتُ هذا الموضوع على لجنة الأمن، فوافقوا. لكن نسبة للسرية الشديدة، فلم أخبر حتى الضابطين اللـذين كانـا معي، وهما سليمان داؤود وعلي متولي وهما برتبة حكمـدار. ولكني أطلعت "روبن" لتعزيز الثقة في نفسه، وقلت لـه: أنـا وأنت فقط الذين نعلم، وحتى ضباطي لا يعلمون.. طلب منـي مبلغاً من المال كمصاريف، ولم يكُن مبلغاً كبيراً، وقال لـي: منذ الغد سوف أغيب، وما عليك سوى أن تعلن أنني هربـتُ، ودخلتُ الغابة، وهذا ما تم.

نظراً إلى أن المسافة بين كبويتـا والحـدود الكينيـة قصيرة جداً، لدينا نقطة تبعد نحو ١٠- ١٥ كيلـومتراً منهـا، كان المواطنون يتداخلون ويتبادلون التسوق بين البلدين جيئـة وذهاباً. كان "روبن" قد وصل لتلك المنطقة، وتـرك العربـة هناك وبداخلها مذكرة وأشياء أخرى. كُنـا نحـن مشـغولون بقضايا الأمن والمتابعة، ومر شهر وشهران وثلاثة.. اعتقـدنا وقتها أنه مات.

فجأة، في تمام الساعة العاشرة ليلاً، حضر إلي الحرس وقال لي: هناك شخص يريدني، فـذهبت لـه ووجدتـه هـو "روبن"، وكانت حالته تدعو للرثاء. وبدأ يحكي لي التفاصـيل المثيرة، قال إنه دخل نيروبي واختفى وسط المتمردين إلى أن أصبح جزء منهم، ووثقوا فيه. وهناك استوعب خُطتهم كاملة،

وقام بتصويرها بواسطة كاميرا اشتراها من نيروبـي. كانـت تلك أهم وأخطر معلومات، لأنها كشفت كُل الخُطة. فقُمتُ على الفور بعقد اجتماع للجنة الأمن وأطلعتهم على كل شيء.

كان مجملُ الخطة، أن المتمردين قرروا السيطرة على الولايات الثلاثة، الاستوائية وبحر الغزال وأعالي النيل. قبل أن استرسل، لابد أن أذكُر ما حدث قبل كل هذه التداعيات.. كانت الكنسية الإنجليزية أكبر الكنائس في جوبا، وكان قـد حضـر لافتتاحها أروك جوب، وجاء معه الأب فيليب عباس غبـوش، وكانت المرة الأولى التي أراه فيها، وعندما علـم أننـي مـن كُردفان بدأ بيننا أنس حميم، وكان الحفل كبيراً.

كانت هناك طائرة مغادرة إلى الخُرطوم، وتلـك هـي فرصتنا في إطلاع الخُرطوم بكافـة التفاصـيل وانتظـار رد فعلهم. بعد فترة قصيرة أرسلوا لنا خُطة لمواجهة هذا الهجوم. وكذلك عدة قرارات إسناد، على رأسها إغلاق كُل الإرساليات. إذ كان في مدينة جوبا خمسة إرساليات كاثوليكية، وهناك اثنان أرثوذوكس، وكلفونا في الخُرطوم بتنفيذ هذا القـرار. وهـو سري للغاية Top Secret فقط، إذ كان على مستوى الحـاكم العسكري ومدير المديرية وشخصي. فوضعنا الخُطـة لتنفيـذ القرار في وقت واحد في المديريات الثلاثة، وفي ساعة واحدة. وتطلب ذلك استدعاء حاكم بحر الغزال وأعالي النيل للانضمام لنا. وكذلك أطلعتُ كومندان بحر الغزال وأعالي النيل.

نفذنا الخُطة التي وضعناها بدقة شديدة، وتـم إغـلاق الكنائس بالشمع الأحمر، ووضعنا عليها حراسات مشددة. وفي جوبا، أتينا بالقساوسة ووضـعناهم فـي اسـتراحة خاصـة. وأرسلناهم بطائرة خاصة كذلك إلى الخُرطوم. وفـي ملكـال، حدث الأمر نفسه. والحقيقة عندما ألقينا القبض عليهم، كانـت المسألة قد تعقدت أكثر، ودخلنا في مشاكل كثيـرة. عمومـاً،

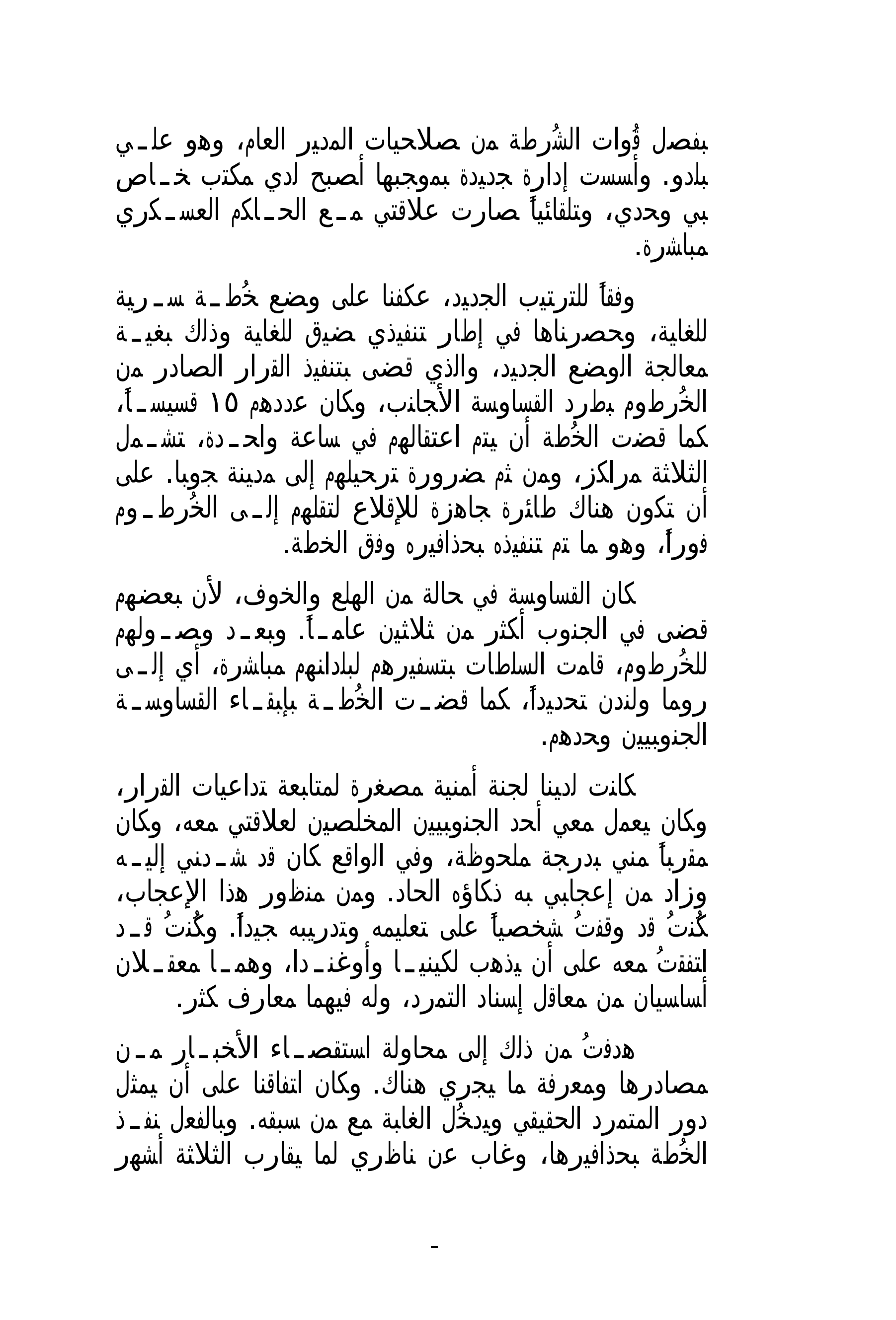


الوضع أصبح غير مأمون العواقب بالمرة. فنشرنا قُوات في كل مكان، وعملنا حراسات في جوبا.

تجمع الشماليون الذين كانوا خارج جوبا لداخلها. كانت فترة عصيبة، لم يكُن الواحد يضمن أنه سيعيش حتى الغد، وسلاحك معك دائماً دون تفريط. مثلاً كُنتُ أذهب مساء كل يوم لنادي جوبا وعضويته خليط من الشماليين والجنوبيين. لم تكُن هذه الخطوة للترفيه أو لتسلية النفس، ولكنها كانت كنوع من عكس الطمأنينة في النفوس، لأنه اكتشفنا أنه حالما أغيب عن العين، تبدأ الشائعات في الانطلاق. بعدئذ دخلت التطورات في خضم العمل الروتيني، بمعنى دخول الحلول العسكرية وانزواء أي حلولٍ تجنح للتهدئة أو الحكمة. فليس ثمة خيار سوى الحسم مهما بلغت تكلفته المادية أو السياسية، وهو منهج العمل التنظيمي المعروف. وفي نفس الوقت بدأت الوفود السياسية تغدو وتروح بين الخرطوم والجنوب.

كنا وقتذاك قد عكفنا على محاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه، فالأخبار التي جمعناها، أفادت أن القساوسة، وهم أغلبهم من الإيطاليين الكاثوليك، كانوا من وراء تلك التداعيات، ولم نكُن نعلم أنهم مهدوا لها بالدروس التي استغلوا فيها بساطة الجنوبيين، وعملوا على ترسيخ مفاهيم معينة لا تخلو من عنصرية واستغلال الاختلافات الدينية. وهنا أتوقفُ قليلاً لأؤكد بعد سنين عددا، بأن العناصر التي استغلها المبشرون في تأجيج المشاعر الدينية والوطنية، لم تكُن بذات بالٍ في أذهان الجنوبيين على مختلف تعدداتهم العرقية والإثنية. وهي نقطة محورية وهامة في توثيق تداعيات القضية السودانية، التي ينبغي وضعها في الاعتبار حين النظر في حيثيات الموضوع برمته.

عندما اتضح كُل ذلك، باعتبار أن الموضوع سياسي بالدرجة الأولى، صدر قرار من الخُرطوم بخُروج كل القساوسة، وتزامن ذلك مع إجراء إداري في ذاك الوقت قضى



بفصل قُوات الشُرطة من صلاحيات المدير العام، وهو علي بلدو. وأسست إدارة جديدة بموجبها أصبح لدي مكتب خاص بي وحدي، وتلقائياً صارت علاقتي مع الحاكم العسكري مباشرة.

وفقاً للترتيب الجديد، عكفنا على وضع خُطة سرية للغاية، وحصرناها في إطار تنفيذي ضيق للغاية وذلك بغية معالجة الوضع الجديد، والذي قضى بتنفيذ القرار الصادر من الخُرطوم بطرد القساوسة الأجانب، وكان عددهم ١٥ قسيساً، كما قضت الخُطة أن يتم اعتقالهم في ساعة واحدة، تشمل الثلاثة مراكز، ومن ثم ضرورة ترحيلهم إلى مدينة جوبا. على أن تكون هناك طائرة جاهزة للإقلاع لتقلهم إلى الخُرطوم فوراً، وهو ما تم تنفيذه بحذافيره وفق الخطة.

كان القساوسة في حالة من الهلع والخوف، لأن بعضهم قضى في الجنوب أكثر من ثلاثين عاماً. وبعد وصولهم للخُرطوم، قامت السلطات بتسفيرهم لبلدانهم مباشرة، أي إلى روما ولندن تحديداً، كما قضت الخُطة بإبقاء القساوسة الجنوبيين وحدهم.

كانت لدينا لجنة أمنية مصغرة لمتابعة تداعيات القرار، وكان يعمل معي أحد الجنوبيين المخلصين لعلاقتي معه، وكان مقرباً مني بدرجة ملحوظة، وفي الواقع كان قد شدني إليه وزاد من إعجابي به ذكاؤه الحاد. ومن منظور هذا الإعجاب، كُنتُ قد وقفتُ شخصياً على تعليمه وتدريبه جيداً. وكُنتُ قد اتفقتُ معه على أن يذهب لكينيا وأوغندا، وهما معقلان أساسيان من معاقل إسناد التمرد، وله فيهما معارف كثر.

هدفتُ من ذلك إلى محاولة استقصاء الأخبار من مصادرها ومعرفة ما يجري هناك. وكان اتفاقنا على أن يمثل دور المتمرد الحقيقي ويدخُل الغابة مع من سبقه. وبالفعل نفذ الخُطة بحذافيرها، وغاب عن ناظري لما يقارب الثلاثة أشهر

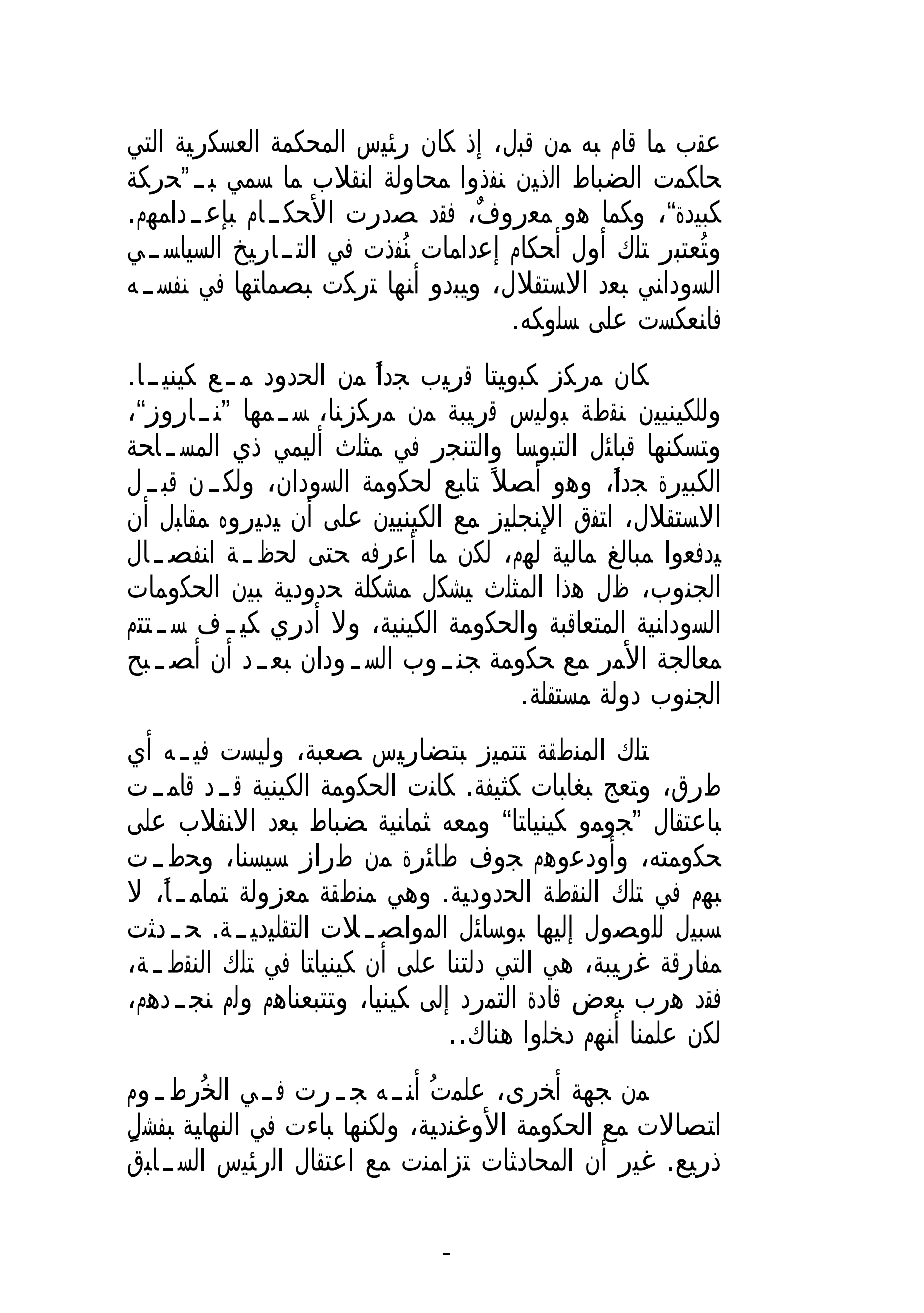
حتى كدتُ أن أنساه. ثم فجأة حدثت المفارقة في ظُهـوره، إذ ذات يوم جاء فيه إلى منزلي، وأدهشني بتقرير شـاملٍ منـذ لحظة مغادرته وحتى عودته.

كان التقرير مدهشاً بالفعل، وكشف فيه عن خُطة كاملة يزمع المتمردون تنفيذها. وعندما أطلعتُ عليها، أيقنتُ تمامـاً أنها من عمل جهات عليا.. جهاتٌ لـديها هيئـة مستشـارين بمستويات رفيعة Highly qualified advisers كما وصـفَهم، بدليل أن لديهم اتصالات مع بريطانيين، الأمر الذي عززتـه السفارة البريطانية لاحقاً. وتضـمن التقريـر خُطـة كاملـة لاستهداف الجيش والشُرطة، وذلك بالاستيلاء على المراكـز الرئيسية، وما إلى ذلك من تفاصيلٍ دقيقة أخرى.

قُمتُ على الفور بالاتصال برئاستي فـي الخُرطـوم، وطلبتُ منهم إرسال موفد فوراً. ونظراً لحجـم المعلومـات، طلبوا مني العكس، وذلك بالحضور للخُرطـوم علـى جنـاح السرعة. ولم يكن ثمة بد في التلكؤ أو التباطؤ، فغادرتُ فوراً، واصطحبتُ معي العسكري الجنوبي الذي سـلمني التقريـر، وهناك في الخُرطوم سلمتهم التقرير وعرضـتُ علـيهم كُـل شيء، مع طلب متواضع، وهو ضرورة مكافأة الجندي الـذي جلب تلك المعلومات. وبالفعل تمت مكافأته وتكريمه، ومن ثم واصل عمله بصورة عادية، أي "لا من شاف ولا من دري"، كما يقولون!

خطة لاختطاف جومو كينياتا

من جهة أخرى، كان قد حدث خلافٌ حاد بيني وبـين "التيجاني"، والسبب تمثل في سلوكه العدواني. كان الرجل قد استسلم لحالة من حالات إدمان الخمر، الأمـر الـذي أفقـده السيطرة على تصرفاته. إذ كان ينام طيلة اليوم وهو في حالة اللاوعي. كان عدوانياً في سلوكه بصورة مزعجة لكُـل مـن حوله. وأدركتُ أن السبب الأساسي كان حالة نفسية اعترتـه



عقب ما قام به من قبل، إذ كان رئيس المحكمة العسكرية التي حاكمت الضباط الذين نفذوا محاولة انقلاب ما سمي بـ"حركة كبيدة"، وكما هو معروفٌ، فقد صدرت الأحكـام بإعـدامهم. وتُعتبر تلك أول أحكام إعدامات نُفذت في التـاريخ السياسـي السوداني بعد الاستقلال، ويبدو أنها تركت بصماتها في نفسـه فانعكست على سلوكه.

كان مركز كبويتا قريب جداً من الحدود مـع كينيـا. وللكينيين نقطة بوليس قريبة من مركزنا، سـمها "نـاروز"، وتسكنها قبائل التبوسا والتنجر في مثلث أليمي ذي المسـاحة الكبيرة جداً، وهو أصلاً تابع لحكومة السودان، ولكـن قبـل الاستقلال، اتفق الإنجليز مع الكينيين على أن يديروه مقابل أن يدفعوا مبالغ مالية لهم، لكن ما أعرفه حتى لحظـة انفصـال الجنوب، ظل هذا المثلث يشكل مشكلة حدودية بين الحكومات السودانية المتعاقبة والحكومة الكينية، ولا أدري كيـف سـتتم معالجة الأمر مع حكومة جنـوب السـودان بعـد أن أصـبح الجنوب دولة مستقلة.

تلك المنطقة تتميز بتضاريس صعبة، وليست فيـه أي طرق، وتعج بغابات كثيفة. كانت الحكومة الكينية قـد قامـت باعتقال "جومو كينياتا" ومعه ثمانية ضباط بعد الانقلاب على حكومته، وأودعوهم جوف طائرة من طراز سيسنا، وحطـت بهم في تلك النقطة الحدودية. وهي منطقة معزولة تمامـاً، لا سبيل للوصول إليها بوسائل المواصـلات التقليديـة. حـدثت مفارقة غريبة، هي التي دلتنا على أن كينياتا في تلك النقطـة، فقد هرب بعض قادة التمرد إلى كينيا، وتتبعناهم ولم نجـدهم، لكن علمنا أنهم دخلوا هناك..

من جهة أخرى، علمتُ أنـه جـرت فـي الخُرطـوم اتصالات مع الحكومة الأوغندية، ولكنها باءت في النهاية بفشلٍ ذريع. غير أن المحادثات تزامنت مع اعتقال الرئيس السـابق

"جومو كينياتا"، قبل نقله إلى نقطة الشرطة الحدودية تلك، وتحديداً كانت تلك المنطقة النائية تقع على بعد ١٠ أو ١٢ كيلومتر من نقطة "ناروز" الحدودية السودانية. والجدير بالذكر، أن العسكريين في النقطتين كانوا يتداخلون مع بعضهم بعضاً. وبالأصح، كان العسكريون الأوغنديون معتمدين بصورة غالبة على العسكريين السودانيين، وخاصة في مسائل الدعم اللوجستي.

خطرت ببالي خُطة ذات يوم، وناقشتُ فيها بعضاً من زملائي المقربين، وكانت تهدف إلى خطف الرئيس السابق "جومو كينياتا"، ومن ثم يمكننا مساومة الحكومة الأوغندية. أعجب بها من طرحتها عليه، وعلى وجه الخُصوص زميلي علي يوسف محمد سعيد، وهو من مدينة ود مدني، وكان رجلاً شجاعاً ومقداماً ومغامراً لا يهاب شيئاً، فقال لي: وا دي فكرة مجنونة.

ذلك شجعني على أن أتلمس طريقة تنفيذها. كان لدينا عساكر مميزون من قبيلة التبوسا ونثق فيهم ثقة عمياء.. ذهبتُ إلى نقطة تفتيش "ناروز" لعمل مسح للخُطة، وقضينا الليلة فيها. ثم استبقيتُ نفسي مع علي يوسف ليومين آخرين لمزيد من دراسة الفكرة، من ناحية ظروف المنطقة الجغرافية.. الطقس والمسافات، وكيفية الوصول.. شرح لي جنودنا التفاصيل الدقيقة، مثل أين يوجد "جومو كينياتا".. كم عدد الحراسة حوله.. العساكر الموجودين في المركز.. والكيفية التي يتبادلون بها الحراسة.. الخ؟ بل زودوني حتى بالأكل والشُرب (الخمر مثلاً) ومواعيد الوجبات وساعات صحوه ومنامه وكُل ما يتعلق بالموجودين في النقطة. فاتفقنا على التنفيذ، وكانت المنطقة المذكورة تبعد عن مركز كبويتا حوالي ثلاث ساعات، مع الأخذ في الاعتبار وعورة الطريق. واتفقنا على اختيار جماعة أكفاء من جنودنا. بعد أن اقتضت الخُطة

ضرورة تخدير الحراس، وأن نحمل لهم كمية مـن الكُحـول (الشيري) الذي يحبونه.

عدنا إلى كبويتا وعرضنا الخُطة على لجنـة الأمـن، وناقشتها اللجنة كثيراً بالإضافة والحذف والتبديل، وأهم النقاط، والرأي هنا أنه إذا ما نجحت الخطة واختطفنا "كينياتا" وهربنا به إلى كبويتا، تأتي في نفس اللحظة طـائرة مـن الخُرطـوم لتحمله. ومن أجل هذه الخاتمة، لم يكُن ثمة بـد مـن إعـلام الخُرطوم بالتفاصيل. وبالتالي لابد من موافقة مجلـس قيـادة الثورة عليها.

زودنا الطاهر عبدالرحمن بكُل تلك التفاصيل وسـافر إلى الخُرطوم. وهناك ناقشها ابتداء مع اللواء أحمد مجـذوب البحاري وزير الداخلية، وأحمد أباروا وآخرين. جميعهم وافقوا عليها، ثم حملها الطاهر برفقة اللواء البحاري لعرضـها أولاً على الفريق إبراهيم عبود..

أبدى انزعاجاً كبيراً، بل انفعل في وجـوه طارحيهـا، ووجه حديثه للبحاري مخاطباً الطاهر في شخصه، وقـال لـه نصاً: **«بقولوا إيه أولاد الكلب ديل يـا مجـذوب، المغفلـين، عايزني أحارب إنجلترا، هو أنا عندي قوة عشان أحارب بيها المتمردين؟! مين اللي عمل الخطة الزفت دي؟»**.. رد عليـه الطاهر بقوله: **«ده مدير الأمن يا سعادتك»**.. لكـن الـرئيس عبود كان قد استمر في انفعاله، مين ابن الكلـب ده؟! هـاتوه هنا، ولم يترك لهم شاردة ولا واردة في التقريع بشخصي وهم سكوتٌ، كما قال لي الطاهر.. وأردف الفريق عبـود قـائلاً: **«هاتوا لي طبنجة عشان أرصصكم كُلكـم»**، وقـام بتمزيـق الخُطة، وقال للطاهر: **«خذها أحرقها، ولو عندكم صور ثانية أحرقوها، وهات لي الرماد بتاعها دلوقتي»**. (أجمع كثير من الموثقين أن الفريق عبود كانت تغلب عليه الروح الأبوية فـي إدارة شئون الدولة – المحرر).

قُلتُ بيني وبين نفسي، نحاول مرة أخرى.. وبعد فترة ذهبتُ للخرطوم وقابلتُ اللواء حسن بشير نصر، واستفسرته إن كان هناك جديد؟ فضحك، وقال لي: **«إنت لسه مصر، الرئيس ما عايز يسمع عنها بالمرة، ولو عايز تتهان أمشي أفتح معاه الموضوع ده عشان يضربك بالشلوت.. عموماً، أرجع لمنطقتك في الجنوب وما تجيب سيرة لزول ودي تعليمات»**.. عندئذ غادرتُ وأنا حسير، لأن الخطة التي استغرقتُ فيها زمناً في الترتيب والتدقيق والتمحيص لم تجد الموافقة من الحكومة.

وليم دينق

بعد فترة جاءني أحد أفراد حراستي في المنزل ذات يوم وقال لي: هناك عسكري جنوبي يريد مقابلتك لأمر ضروري وخاص، ولما سمحوا له، قال لي: صاحبك بسلم عليك، وقلت له: من صاحبي؟ فقال لي: إنه من طرف وليم دينق، فقلتُ له: وأين هو الآن؟ قال لي في الغابة. ثم أخرج خطاباً من جيبه وأعطاني له. كان الخطاب مكتوباً بلغة عاطفية رقيقة، وكنا بالفعل أصدقاء لم تؤثر فينا أجواء العداوة والكراهية التي خلقها التمرد. والحقيقة لسنا وحدنا، فتلك ظاهرة يصعب على المراقبين تفسيرها، فجميعنا شماليون وجنوبيون لم نكُن نظهر سوى المشاعر الطبيعية، كأن شيئاً لم يكُن رغم أصوات الرصاص ورائحة الموت والحرب اللعينة.

عندما قرأتُ الخطاب، اعتذر لي وليم دينق بأن ظروفه لم تسمح له بإبلاغي على مغادرة المدينة، وتأسف لما حدث بين الفُرقاء السودانيين، وتمنى أن يحدث توافُق يعم فيه السلام، وأخبرني أنه في أوغندا، وأنه بخير، وقال لي إن المرسل معه الخطاب رجلٌ أمين، يمكنني الوثوق به وأقول له أي شيء أريده.

طلب مني الرسول ألا أخبر أحداً، إذ إن هـذا شـيء طبيعي. فقلتُ له: هل تحتاج لأي شيء أوصاك به وليم دينـق أو تريد أن تأخذه له؟ فقال لي: الحياة في الغابة صعبة كمـا تعلم. فأدركتُ ما يقصده، وطلبت منه أن يعود لي في اليـوم التالي. وقمتُ بتجهيز صابون ومعجون وفُرش أسنان وصابون حلاقة، ومأكولات معلبة، إلى جانب أشياء أخـرى صـغيرة. وكتبتُ له خطاباً رقيقاً كذلك. وتمنيتُ فيه أن تكون الصلة بيننا مستمرة. ومنحتُ الرسول مبلغاً من المال كحافز له على ما قام به.

بعد شهرين، جاءني الرسول مرة أخـرى، وبالتـالي أصبحت هناك رسائل متبادلة بيني وبين وليم دينق. كُنتُ أقولُ له دائماً بأن هذه المشكلة لن تُحل بـالحرب، وهـي مشـكلة سياسية. وهو طالما كان يؤمن على ذلك. وفي مرة أرسل لي رسوله، وقال لي: هل يمكن أن نتقابل ونجتمع بطريقة سرية؟! وطلب مني أن أحدد مكاناً وزماناً للقاء مرتقب إن وافقت على الفكرة.
اتصلتُ بالخُرطوم وأخبرتُهم باتصالاتي التي لم تنقطع مع وليم دينق، وشرحتُ ملابساتها وتفاصيل فكرته التي اقترح فيها لقاء مشتركاً.. لم انتظر طويلاً حتى تلقيتُ رداً ايجابياً فـي زمـن قياسي، وطلبوا مني المضي قدماً في الموضوع. بناء على ذاك الضوء الأخضر، كتبتُ له بالموافقة بعد أسبوعين. واقترحـت عليه أن يكون هناك لقاء تمهيدي في كمبالا بين وفد منا، وآخر منهم، لنتفق على خُطط وأجندة نرسـلها بـدورنا للخُرطـوم لتسهيل الاتفاق على لقاء بينه (وليم دينـق) والحكومـة فـي الخرطوم.

وافق وليم دينق، واتفقنا على يوم محدد فـي كمبـالا. ذهبتُ ومعي عثمان جاد الرب والتيجاني إلى كمبـالا، حيـث استقبلنا الملحق العسكري في السفارة مكي حسن أبو، ونظـراً لطبيعة زيارة الوفد السرية، اختار لنا فندقاً معيناً لا تكثُر فيـه

العيون، بحسب قوله. ثم أطلعنا على ما يجري، وعلمنا منه أن وفد وليم دينق وصل أيضاً ويتكون من ثلاثة أفـراد، وأنهـم اتصلوا بالحكومة الأوغندية، واتفقوا علـى أن يكـون وزيـر الداخلية وسيطاً بيننا، وعلى أن يتم اللقاء في منزله عقب دعوة عشاء على شرف الوفدين. وأثلج صدورنا أن وزير الداخليـة الذي اسمه "أودينقا" ويحمل جنسية مزدوجة أوغندية/سودانية، حيث ينتمي إلى قبيلة الأشولي السودانية في الجنوب، والتي لها امتداداتٌ وتداخُلات في أوغندا. وكان ذلك ما عزز العلاقة بينه ومكي حسن أبو، الذي أعلمنا بصلته الوثيقة به.

ذهب ثلاثتنا في الوقت المحدد إلـى منـزل الـوزير، ورابعنا مكي حسن أبو، وعندما وصلنا منزل وزير الداخليـة، انتظرنا ولم يظهر وليم دينق، ولكنه أرسـل ثلاثـة مناديـب ليمثلونه، وقالوا إنه موجود في مكانٍ قريب، وسيكون متابعـاً وعلى اتصالٍ بنا. كان اللقاء حميماً، سلمنا وتقالدنا بالطريقـة السودانية المعهودة.. هنيهةً ووجدنا أنفسنا وقد استغرقتنا ونسة سودانية عامة في البداية. كنا قد وضعنا إسـتراتيجيتنا، علـى أساس أن ينفرد كُلٌ منا جانباً بواحد من الوفد قُبيل المحادثـات الرسمية. باعتبار أن مثل تلك اللقاءات تُؤثر وجدانياً، ويمكـن أن تمهد السبل لنجاح المحادثات. من جانبي، انفردتُ بـرئيس الوفد.
وكان الوزير الأوغندي قد بالغ في الاحتفاء بنا، فأقام لنا عشاء فاخراً، تخللته أنواع شتى من الخُمور. إلا أن الأمر الطـارئ الذي لم نضع له حساباً، كان هو التيجاني الذي كنا نعلم نقطـة ضعفه أمام الخَمر، نظراً للظروف الشخصية التي كان يعيشها، كما سبق وذكرت. فكان سرعان ما يغيب عن الوعي بمجـرد شربه قليل من الخمر. لم تكُن هناك وسيلة لحثه علـى عـدم الإفراط أثناء الدعوة. فتعاطى الشُرب بإهمالٍ حتى فقد الوعي.

أسرف التيجاني في تعاطي الخمر، فلعبت برأسه وبـدأ يهذي ببعض الألفاظ العنصرية الجارحة لصنُوه الذي يجالسـه

بصوت عالٍ، ومن ثم كال ذات الألفاظ للجنوبيين بصورة عامة وأعضاء الوفد بصورة خاصة. فتوترت الأجواء ودخلنا فـي حرج شديد. كما شعرنا كذلك بالحرج الذي ألم بالوزير، الذي كان يتوقع نجاح المباحثات وفيها نجاح وساطته. ولم يكن ثمة مناص أمامنا غير أن ننفض الدعوة ونغادر ونحـن نستشـيط غضباً من ذاك التصرف غير المسئول. قال لي مكي حسن أبو كلمة لن أنساها مدى حياتي، قال لي: **«شايف يا عثمـان، زي ده هو الخلى التمرد يظهر»**!

في اليوم التالي، جاءني أحد أفراد السفارة وطلب مني أن أذهب معه لمكان معين، وقابلتُ أحد الأفراد، وقال لـي إن وليم دينق يقرؤك السلام، ويقول لك: إن هذه اللقاءات تنتهـي إلى ذاك الحد.. وقلتُ له: بلغه أن تكون المفاوضات القادمة مع الحكومة مباشرة، وبالفعل أخبرتُ الحكومة ممثلة فـي وزيـر الداخلية، نسبة للعلاقة الجيدة التي تربطنا معاً، واعتقد أن ذلك هو ما مهد الخُطوة للقاء الكبير الذي جمعه مع الحكومة لاحقاً. أما أنا، فبعد عودتي من كمبالا، انخرطتُ في عملي، وكان جل همنا ألا يندلع القتال مجدداً. وأستبقُ الأحداث وأقول: إن تلـك الاتصالات هي البذرة التي أنتجت فيما بعد، "مـؤتمر المائـدة المستديرة" بعد رحلة طويلة وشاقة.

عدنا إلى جوبا، وكُنتُ في حالة حزن عميق، وقطعـتُ صلتي بالتيجاني منذ تلك اللحظة، وبعد وصولي أرسلتُ تقريراً إلى الخُرطوم وشرحتُ فيه ما حدث. وكان وليم دينق قد أرسل لي رسالة أخرى، قال فيها، يجب ألا يكون ما حـدث نهايـة المطاف، وعلينا أن نعود للمفاوضات. وفي واقع الأمر، بقيتُ في الجنوب حتى نوفمبر من العام ١٩٦٣، ونظراً إلى تـوتر علاقتي بالتيجاني في الفترة الأخيرة من خدمتي فـي جوبـا، أصبح الوضع لا يحتمل، كما أن الظروف العامـة نفسـها لا تحتمل أي توتر. وحتى أضع حداً لذلك، سافرتُ إلى الخُرطوم، وهناك قلتُ لرؤسائي في العمل إمـا أن تنقلـوه أو تنقلـوني.

وكانوا يعلمون أنني تعودتُ على الصراحة، كما أن ملف خدمتي كان نظيفاً، إذ ليس لدي مشاكل مع أي إنسان. استمعوا لي وتفهموا المشكلة، ومباشرة صدر قرار بنقلي إلى مدينة كسلا.

قبل أن أغادر الاستوائية في تلك الفترة، حدثت أشياء أخرى مهمة، كُلنا قد عملنا من أجلها رغم الظروف القاسية. منها أنه تم افتتاح خط جوي بين الخُرطوم وكمبالا لأول مرة. وحضر لنا في جوبا عبدالباقي محمد، مدير الخُطوط الجوية السودانية "سودانير"، وسليمان حسين مدير الاتصالات، وعباس فضل مدير البوليس. ونزلوا ضيوفاً علينا، ومن بعد طلبوا مني وشخص آخر مرافقتهم إلى كمبالا.

هناك قُوبلنا باستقبالٍ رسمي باهر. إذ حشدوا عدداً كبيراً من السودانيين، بطبولهم وزغاريدهم ورقصاتهم الفلكلورية المتعددة. فأبدينا دهشة كبيرة ازدادت عندما قيل لنا إن هؤلاء سودانيون أوغنديون، أي من بقايا الجيش السوداني التابع لإسماعيل باشا، وانقطعت بهم السبل وبقوا في أوغندا، وظلوا كل تلك المدة محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم ودياناتهم، وقيل إنهم نحو نصف مليون نسمة!

ختموا لنا هذا الكرنفال بحفلٍ في النادي السوداني. وهناك بث نفر منهم شكواهم لنا، والتي تلخصت في طلبٍ متواضع، قالوا إنهم لم يسأل عنهم أحد طيلة هذه الفترة، ولم يطالب أي أحد بعودتهم لوطنهم. وهم يريدون من المسئولين في الخُرطوم إيلاء قضية العودة هذه الاهتمام الكافي. لم نكُن في خيار غير أن نقول لهم: سوف ننقل طلبكم المتواضع للحكومة في السودان، وقلنا لهم، إنه يمكن أن نسهل حضور وفود منهم، من فترة لأخرى لمتابعة المشكلة.

لم تكن هناك تليفونات بيننا وبين كمبالا. وكان ذلك يعني أنك إذا أردت الاتصال بالخُرطوم، فيجب أن يكون ذلك

عن طريق: كمبالا/عدن/لندن/الخُرطوم. وبالطبع كانت تلك مسألة طويلة وصعبة جداً. في تلك الفترة حدثت خلافات بيننا وبين رئاسة البوليس في كمبالا. ولم تكن أوغندا قد نالت استقلالها بعد (كان الاستقلال عام ١٩٦٢)، وكُنا نحن نريد توطيد الصلات بين البلدين، فمثلاً دعونا فريق كرة القدم الأوغندي، وتبارى مع فريقنا السوداني وحدثَ العكس أيضاً. ونشأت بيننا ومفتش البوليس في كمبالا – كان بريطاني الجنسية – علاقة حميمة، أثمرت من خلال عملنا المشترك في تسهيل كثير من القضايا.

مثلاً، استطعنا الوصول إلى "الكباكا" (وهو زعيم القبيلة، وشخصية كبيرة لها وزنها الاجتماعي وذات نفوذ مؤثر)، وهو من قبيلة مشتركة مناصفة بين السودان وأوغندا، اسمها الـ"أشولي". وصرنا عبره نتمتع باحترام كبير في أوساط الأوغنديين، سلطةً وشعباً.

في تلك الفترة، كان وزير الداخلية، والذي ينحدر من قبيلة الـ"أشولي" أيضاً واسمه "أودينقا"، وكذلك مدير البوليس الذي كان يرافقنا معظم الوقت، وتفانى في خدمتنا لدرجة أخجلت تواضعنا. وقُبيلَ مغادرتنا، سألتُ مكي عن الكيفية التي يمكن أن نرد بها الجميل، بهدية جميلة نجلبها معنا من السودان عند عودتنا، فقال مكي على الفور: **«البيرة السودانية»**. وكانت البيرة تحمل آنذاك شعار "أبو جمل"، وليس لها مثيلٌ في العالم.. وقلتُ ممازحاً مكي: **«يبدو أن هذا الشعار يقف وراء حبهم لها»**.

عندما عدنا إلى الخُرطوم، أرسلتُ له ستة صناديق بيرة في الطائرة المغادرة بعيد وصولنا، فأرسلوا لي خطاب شُكر يفيض امتناناً، وقالوا إنها أعظم هدية يتلقونها، ذلك حفزنا على أن نكرر الهدية كلما سنحت فرصة، بما يمكن أن نطلق عليها "دبلوماسية البيرة أبو جمل".

كان لهذا العمل انعكاساته الإيجابية، مثلاً عندما تطور التمرد، كان لا بد من أن يكون هنـاك اتصـال مباشـر مـع أوغندا. من جانبنا حددنا المسافة من الحدود المشتركة بنحـو خمسة عشر كيلومتر، وأقنعنا الأوغنديين بتحديد نفس المسافة حتى نضيق الخناق على تحركات المتمـردين بـين البلـدين. وأيضاً كنا نعاني من صعوبة الاتصال بين مركزنا في جوبـا، ومركز البوليس الأوغندي في العاصمة كمبالا، فهيـأت لنـا "دبلوماسية البيرة أبو جمل" فرصة أخرى اقتنصناها.

قدم لنا الأوغنديون دعوة لحضور معـرض زراعـي كبير كانوا ينظمونه. ولبينا الدعوة ومعي عثمان جاد الـرب. وعندما قابلنا مدير البوليس، شكوتُ له تعذر الاتصالات بيننا. فقال لي إنه سوف يحدد لي موعداً مع المفـتش البريطـاني، ونطرح عليه هذه المشكلة لحلها بما يفيد البلدين. عندما قابلنـا المفتش البريطاني، يبدو أن المدير أطلعه على المشكلة سـلفاً، فلم أجد كبير عناء في طرحها. فقال لي على الفور، إنه سوف يربط بين مركزي البوليس في كمبالا وجوبا، من دون تـدخل الحكومتين في البلدين، تفادياً للمشوار الطويل.

أوضح لنا المفتش البريطـاني أنـه سـوف يوصـل المركزين بجهاز لاسلكي، ليمكننا التواصل في أي وقت. لـم يطُل الوقت على ذلك بعد عودتنا، إذ هبطـت يومـاً طـائرة 'سيسنا' في مطار جوبا (تلك واحدة مـن ثمـاني طـائرات 'سيسنا' تتبع لمفتش البوليس البريطاني فـي كمبـالا)، وفـي داخلها عدد من الفنيين الذين قاموا بتركيب الجهاز، وأصـبح الاتصال ميسوراً وسهلاً بعد ذلك. وتلك كانت تُعد أكبر خدمة قدمها لنا مدير البوليس الأوغندي. وأذكُر أن المفتش البريطاني المذكور عندما انتهت مدة خدمته في أوغندا وقـرر العـودة، استبقى نفسه في الخُرطوم لمدة يوم، حيـث أكرمنـا وفادتـه احتفاء منا بلقب "سير" الذي منحته له الملكة. وتلك إنجـازات تركتُها خلفي واتجهتُ صوب شرق السودان.



التوجُّه شرقاً.. إلى "كسلا"..

المفارقة، أنني بعد أن نفذتُ الأمر وذهبتُ إلى كسـلا، قضيتُ فيها نحو شهرين، وكُنتُ في بداية طريقي نحو تحسس المشاكل الأمنية، وتأسيس علاقات جديدة مـع العـاملين فـي إدارات مختلفة. وعلى الرغم من ولعي بالعلاقات الاجتماعيـة الواسعة أينما حللتُ، إلا أنني لم أكُن أعرف أناساً كثيرين فـي كسلا، خاصة وأنها المرة الأولى التي أعملُ بها. لكن وجـدتُ الأخ الصديق "خليفة محجوب" وكان الكومندان الذي يسـبقني في السلم الوظيفي، وهو الذي سبق وأشرف علـى تـدريبي. قابلني في المحطة ورحب بي، وكان حينها قد أحيل للمعـاش. ويتمتع "خليفة" بشبكة علاقات اجتماعية واسعة في كسلا، لأنها كانت مسقط رأسه. ويمتلك جنينة مـن أكبـر الجنـائن فـي المنطقة، وكانت المكان الذي كنا نستأنس فيه بقضـاء أوقـات طيبة في نهاية الأسبوع.

"خليفة" ينتمي للطريقة الختمية، وفي نفس الوقت يعـد من قيادات الحزب الاتحادي الديمقراطي المؤثرة، كما سـبق وذكرت. فعرفني بمجموعة كبيرة من السياسيين، ولكنـه فـي البداية قال لي إنه ينبغي علي أولاً أن أتعرف علـى "السـيد الحسن الميرغني"، وهو ركن أساسي في الشرق كله. قال لي "خليفة" إنني إذا ضمنتُ ثقته، لن تُواجهـك أي مشـكلة فـي عملك. ذهبنا معاً بعد أن رتب لنا زيارة، وكانت مقابلة وديـة وطيبة للغاية، اندهشتُ بعد ما وجدته يعلم عني الكثير.

كنتُ قد وصلتُ كسلا في أواخر شهر يوليو أو أوائـل شهر أغسطس من العام ١٩٦٤، واستلمتُ عملي من حمد علي ناصر. وكان العمل عادياً جداً، إذ كُل يوم أخرج لتفقد المناطق

التابعة للمركز.. أروما، القضارف، القلابات، حلفا الجديـدة، والأخيرة وجدت فيها "الطاهر"، وبعض الزملاء الذين التقيتهم في مراكز أخرى. غير أن وجودي في كسلا لم يطل كثيـراً، فبعد نحو شهرين، وأنا في خضم ذاك العمل الروتيني، اندلعت على حين غرة ثورة أكتوبر ١٩٦٤.

المظاهرات التي بدأت في الخُرطوم، سرعان ما انداح صداها في مدن أخرى من السودان برغم اتسـاعه. وكانـت كسلا من أوائل المدن التي سـارت فـي درب التظـاهرات. اتصلتُ بمدير الشرطة عباس فضل في الرئاسة، واستفسـرت عما حدث؟ فقال لي إن الأوضاع في الخرطوم أسوأ. وقلتُ له: ما العمل إذن، وما هي التعليمات؟ قال لي: لا توجد تعليمات، كل واحد يشتغل حسب تقديراته الشخصية، ويتحمل المسئولية.

كان في كسلا فرقة كاملة للجيش، على رأسها العقيـد مأمون إدريس، وكان صديقي.. كان هناك نُخبة من الناشطين السياسيين في كسلا، ولذا كان إيقاع حركتهم سريعاً ومتسقاً مع ما يجري في الخُرطوم. فكونوا فرع لجبهـة الهيئـات مـن الطلاب والعمال والموظفين بعدد ١٥ عضـواً، أذكـر مـنهم دكتور حداد، القاضي فؤاد الأمين، سـليمان بـدري، مـأمون الأمين وآخرين. اجتمعوا ونادوا بإضراب سياسي كامـل فـي كسلا، وبموجبه أغلقت المستشفيات والمتاجر وتوقفت الحيـاة تماماً.

كان مدير المديرية علي عبدا قـد أضـرب معهـم، والقُضاة كذلك. ذهبتُ أستفسر من قائد حامية الجيش، العقيـد مأمون إدريس، فوجدتُه خالي الذهن من أي أخبار، على الرغم من أن حامية كسلا تُوجد بها فرقة كاملة. غادرتُه بعد أن اتفقنا على أن نكون نحن في الشرطة وهم في الجيش علـى أهبـة الاستعداد، لا نتدخل إلا في حال حدوث ما لا يحمـد عقبـاه، حفاظاً على أمن المواطنين وسلامتهم.

أعلنا استعداداً كاملاً في أوساط الشُرطة، وزدتُ عددهم بقوة من السجون.. أول المهام التي كانت تشغلني، الخوف من أن يستغل "الشفتة" الأوضاع، وهم: الخارجون على القـانون، والناشطون في المناطق الحدودية الشرقية، لذلك وضعنا فـي الأولويات خُطة تأمين للمدينة من هؤلاء. ثـم ذهبـتُ للسـيد الحسن الميرغني، وشرحتُ له الأوضاع، وقلتُ له: **«عنـدي طلبين عندك: أولاً، تعمل على منع الشفتة من الاقتراب مـن المدينة.. وثانياً، أن يحدث مريديه حتى يبلغوا النـاس بـألا يحدثوا شغباً وتكسيراً للمنشآت»**، فقال لي: **«توكل على بركة ا ، وأنا أضمن لك ذلك»**.

كان موظفو وعمال السكة حديد قـد التحقـوا بقطـار الإضراب، والطريف في الأمر، أن ناظر المحطـة أغلقهـا، وجاءني ووضع المفاتيح على مكتبي وغادر.. علمتُ أن هناك اجتماعاً لجبهة الهيئات في تمام الساعة الثانية ظهـراً، وذلـك بغرض التحضير لمظاهرة ضخمة ستخرج في الساعة الرابعة من اليوم نفسه. كانت تلك أول مظاهرة كبيرة، فجهزتُ نفسي وذهبتُ مباشرة إلى مكان الاجتماع.

بعد السلام والترحيب، شعرتُ بـالعيون تنظـر إلـي نظرات متوجسة. فقلتُ لهم: **«أنا جيتكم لأنه عنـدي كلمتـين ومغادر»**، فقالوا لي: **«تفضل أجلس»**، فقلتُ لهم: **«لن أجلـس إلا تسمعوني.. أول حاجة، علي الطلاق إنتو كلكم ما أرجـل مني، ولا أكثر مني وطنية. إنتو مضربين كلكم وختيتوا البلد دي على مسئوليتي، وأنا أسه ممكن أقلع الكاكي بتـاعي ده وأبقى مواطن مدني زيكم، البلد تحرق أو تغرق ما لي دخـل بيها»**.

هنا قاطعني أحدهم، وقال لي: **«طيب سـعادتك إنـت عاوز مننا شنو؟»**.. فقلت لهم: **«عايز مـنكم حـاجتين، فـي حاجات أساسية لازم تواصل عملها، زي الخدمات الهامـة..**

زي المستشفى لازم تشتغل للحالات الطارئة بمتطـوعين، لأن الأطباء كُلهم مضربين، كذلك الماء والكهربـاء لازم تتـوفر، والسوق لازم تفتح المحلات البتوفر للناس سـبل معيشـتها، لأنه كسلا تعتمد على السوق، إذا توقف توقفت الحياة تماماً».
وقلت لهم: **«إذا ضمنتوا لي الحاجات دي أنا بضمن ليكم مـا حد يعترض المظاهرات أبـداً.. أعملـوا العـايزين تعملـوه والبوليس حيكون بعيد جداً منكم ولا حتشوفوه.. أضمنوا لي مظاهرات سلمية ليس فيها تكسير ولا شغب، وسيطروا عليها ومشوها بطريقتكم».**

قالوا لي: **«نحنا عايزين حاجة واحدة»**، قلـت لـيهم: **«شنو؟»**.. قالوا: **«ما عاوزين أي واحد من ناس الجيش يجي حايم جنبنا»**. فقلتُ لهم: **«أضمن ليكم ذلك، وما في حد حيطلع من الثكنات»**. وبعد أن اتفقنا طلبت منهم أن نكتب الاتفـاق ده ونوقع عليه وغادرتُهم.

مشيتُ طوالي على العقيد مأمون إدريس في الحاميـة العسكرية، وقلتُ له: **«أنا عملت كذا وكذا، وهذه صورة مـن الاتفاق»**، وطلبت منه الالتزام به، وألا يخرج أي فـرد مـن الثكنات، فقال لي: **«نحن نحتاج احتياطات»**، فقُلت له: **«سوف أرسل لكم عربية بوليس تكون معاكم، وإذا احتجتوا لأي شيء يحضروه ليكم».**

رجعتُ لجماعة جبهة الهيئات، وقلت لهم: **«أنا محتاج قاضـي»**، فقام واحد اسمه عبدا أبو عاقلة، وواحد اسمه فؤاد الأمين، وكان رجلاً شرساً ومتطرفاً. والمفارقة، رغم مواقفـه تلك، إلا أنه عمل مع نظام نميري فـي محـاكم مـا سـمي بـ"العدالة الناجزة"، وكان أحد القُضاة الذين تولـوا تطبيقهـا. فقال لي "أبو عاقلة": **«أنا معاك»**، فقلتُ له: **«أنا محتاج ليـك في الخلفية، عشان لمـا أعمـل حاجـة تكـون مشـروعة قانوناً Legal»**.. بدأت المظاهرات في الساعة الرابعة وكانت

ضخمة جداً، أظنه لم يبق أحد فـي منزلـه فـي ذاك اليـوم واستمرت لغاية المساء، وعادوا لمنازلهم.

في اليوم التالي، بدأت المظاهرات في العاشرة صباحاً، وكُنتُ بصحبة القاضي في سيارتنا نتابع المظاهرات ولم يتدخل أحد.. انقطعت الاتصالات مع الخُرطوم تماماً، لا تلفونات ولا تلغرافات ولا سكة حديد ولا أي وسيلة. وفي اليـوم الثالـث، قررت جماعة جبهة الهيئات تحشيد قطار ليتجه إلى الخُرطوم للمساندة، فوقف ناظر المحطة وأبدى استعداده لتجهيز القطار، فامتلأ بالناس من كُل حدبٍ وصوب، وكُنتُ أنا في المحطـة.. من الطرائف، أن الناظر قال لي: **«أنا مضرب، لذلك أضـرب الجرس أنت عشان القطر يتحرك.. وفعلت»**.

الخُطـورة أن القطـار تحـرك، ونسـبة لانقطـاع الاتصالات، لم تكُن هناك أي جهة تعلم بتحركه وخط مسيرته، لا في الخُرطوم ولا المحطات التي يمر بها، ولم يعلموا به إلا بعد أن اقترب من الخُرطوم. والذي حدث، أن قيادات جبهـة الهيئات التقوا القطار خارج الخُرطوم، وجاءوا بكميـات مـن الأكل والماء، وكذلك المواطنين العاديين، وقالوا لهـم يجـب العودة والأمور انتهت والأمن أستتب والبلاد هـدأت، فرجـع القطار ولم تكُن هناك أي حوادث، بل لم تُكسـر حتـى لمبـة كهرباء واحدة في الشارع، فالوعي السوداني فوت الفُرصة.

في تلك الفترة، كان من ضمن الأشياء المهمة بالنسـبة لي مصنع البصل. وحدث أن جاءوا إلينا اثنان مـن الخُبـراء الروس (في الواقع هم من الجنسية اليوغسلافية ولكـن منحـة المصنع روسية – المحرر). كنا عملنا لهم حراسـة مشـددة لتأمين سلامتهم كأجانب. وبعد أن هـدأت الأمـور، وذهبـتُ لتفقدهم، قال لي أحدهم: **«أنا مستغرب لأمر واحد فقط»**، فقلت له: **«وما هو؟»**.. فقال لي: **«أنت كيف حي تُرزق لغاية هـذا الوقت، ولم يمسك سوء؟!»**.. فقلت له: **«لماذا؟»**.. قال لـي:

«نحن عندنا لو حصلت ثورة أو حاجة زي دي، أول شـخص يقتل هو مسئول البوليس»!

كُنتُ راضياً كل الرضا عن أدائي وإدارتي للأوضـاع في ظل تلك الأوضاع التي كانت تُنذر بتفجر كامل، فلا تبقـي ولا تذر. وقبل أن أغادر مدينة كسلا، جـاء المهنـدس سـيد عبدا مندوباً من جبهة الهيئات في الخُرطوم لتقـديم الشُـكر لأهالي كسلا، على موقفهم الداعم للثـورة، وخصـني بشُـكر خاص باسم الجبهة، وقال لي: إن الجميع عرف موقفك وقدره، وأدركوا أن تصرفك كان سليماً. وحل محلي علـي صـديق وغادرت كسلا.

بعد نجاح "ثورة أكتوبر"، حدثت تعديلات فـي هيكـل وزارة الداخلية. فتم تعيين كلمنت أمبورو وزيراً للداخلية. ولأن بيننا علاقة قوية إبان فترة عملي في الجنوب، وكان هو مفتش مركز، وهو من بحر الغزال، اتصل بي في اليوم الأول مـن يناير ١٩٦٥، وزف لي خبر ترقيتي، ثم في نفـس الوقـت، سألني عن "أزبوني منديري"، وهو من أوائل المتمردين سابقاً، والذي كان معنا فيما بعد في كسلا، يعمل مفتش تعليم صناعي، فقال لي: **«بلغه أنه تم تعيينه وزيراً»**.

كذلك أقيل عباس فضل وجاء مكانه محمود بخـاري، وتم تعيين حسين حمو نائب مدير عام البوليس مكان أبارو. أما أنا، فبقيتُ في كسلا بضعة شهور، إلـى أن تـم نقلـي إلـى الخُرطوم، وكان ذلك في مايو ١٩٦٥، ولم أكُن أرغـب فـي مغادرة كسلا التي أحببتُها وأهلها حباً جماً.

- **(كلمنت أمبورو أول وزير جنوبي يتقلد وزارة الداخلية، توفى في العام ٢٠٠٦ وكان قد ارتبط اسمه أثناء الوزارة بأحـداث ما سمي بـ"الأحد الدامي"، حيث أشيعت رواية أثناء زيـارة تفقدية له في الجنوب، عـن أن طائرتـه قُصـفت، فخـرج جنوبيون إلى الشوارع واشتبكوا مع شماليين، وقُتل العديـد من الطرفين – المحرر).**

الخرطوم ١٩٦٥ – مايو ١٩٦٩

عدتُ إلى الخُرطوم، وانخرطتُ في عمـل الشُـرطة الروتيني.. كانت الحرب في الجنوب متقطعة، وكنا نتابعها من البعد. وكما هو معلوم، لقد كانت حرب الجنوب تشكل السـبب الرئيس لثورة أكتوبر، وكلنا يتذكر الندوة التاريخية في جامعة الخرطوم يوم ١٩ أكتوبر ١٩٦٤، وكيف اندلعت المظـاهرات بعدها، ولم تتوقف حتى سقوط نظام الفريق إبراهيم عبود، بل ظلت نارها متقدة بعد سقوط النظام لأكثر من عشرة أيام، سلم بعدها المجلس العسكري السلطة، وتكونت الفتـرة الانتقاليـة برئاسة السيد سر الختم الخليفة، الذي كان مدرساً ورقي إلـى مفتش تعليم، وعمل بالجنوب لنحو عقد من الزمن، وقد التقيتُه هناك أثناء فترة عملي في مدينة جوبا.

أما وليم دينق تحديداً، فقد مضت علي فترة طويلة لـم نلتق فيها، لأنه فضل البقاء خارج السودان، متنقلاً بين عواصم دول شرق أفريقيا، بعد أن أسس مع زملائه حـزب الاتحـاد السوداني الوطني الأفريقـي، إلـى أن التقيتـه صـدفة فـي الخُرطوم، إذ كُنتُ ذات يوم أتجولُ برفقة كومندان بوليس حول العاصمة الخُرطوم للوقوف على الإجـراءات الأمنيـة التـي اتخذناها أثناء التحضير لانعقاد "مؤتمر المائـدة المسـتديرة" و"لجنة الإثني عشر" في العام ١٩٦٥..

كان "دينق" قد جاء تحت هوية حزبه المذكور لحضور المؤتمر، بالرغم من رفض بعض زملائه في قيـادة الحـزب المشاركة. ولم تكُن مشاركته تلك غريبة بالنسبة لـي، عنـدما تهيأت الظروف المناسبة بعد سقوط نظام الفريق إبراهيم عبود، ولعل تسمية الحزب نفسها كانت تقـف دلـيلاً علـى روحـه الوحدوية. كان اللقاء العابر ذاك، لقاء حميمـاً اسـتعدنا فيـه ذكريات كثيرة، فيها المؤلم والمفـرح. ومـا زالـت عبارتـه الأخيرة ترن في أذني ونحن نتأهب لوداع بعضنا بعضـاً. إذ

قال لي: **«يا عثمان، شُغُل بتاع المؤتمر ده، يا هو كله بفضل الجهود الأولى التي كُنت أنت شريك أساسي فيها»**.

كانت كلماته تلك بمثابة قلادة وضعها على صدري قائد سياسي قبل أن يكون صديقاً لي. وشعرتُ بفخر واعتزاز شديدين في تلك اللحظات القليلة، ثم افترقنا، وللأسف كان ذلك آخر لقاء طويل نسبياً بيننا، حيث لم نلتق بعدها إلا لماماً عندما أصبح وزيراً، إلى أن سمعتُ نبأ اغتياله المأساوي بجنوب السودان في مايو ١٩٦٨، والمعروف أن دمه تفرق بين توجيه الاتهام لعناصر في الجيش، وتوجيه الاتهام لعناصر من المتمردين، حيث لم تصل لجنة التحقيق التي كُونت إلى نتيجة، وكأن مقتله كان نذير شُؤم فيما بعد على الجنوب، الذي أُحبه بصورة خاصة.

مُعتقلون سياسيُّون

هذه بعض القصص التي حدثت أثناء فترة عملي فـي الشرطة، أسردها لأن فيها انعكاسات لطبيعة الحياة السـودانية المتميزة، قيماً وسلوكاً وثقافة. فمن المواقف المحرجـة أثنـاء فترة عملي في الفاشر، جاءني زائراً أحمد علي بقادي لقضـاء عدة أيام معي، كما قال. وأثناء وجوده معي، جاءتني رسـالة ذات يوم من الخُرطوم، تُفيد بأنه مطلوب القبض عليه وإرساله للخُرطوم إذا ما تم العثور عليه. ذهبتُ للمدير، أمـين أحمـد حسين، وقال لي: طيب الزول ده وين؟ قُلتُ لـه: الـزول ده معاي في البيت، وبيننا صلة قرابة فهو عديلي، أي زوجته هي أخت زوجتي، فتحوقل المدير، وقال لي: طيب وحتعمل شنو؟ قلتُ له: سوف اعتقله وأرسله للخُرطوم حسب التعليمات. فقال لي: هو الزول ده مشكلته شنو؟ فقلتُ له: هو شيوعي كبيـر ومعروف.. فقال لي: أمشي، ا يعينك.

عدتُ للمنزل وقد قررتُ ما ذكرته للمدير، فبعد أن تناولنا طعام الغداء مع بعض، انفردتُ به، وقلتُ له: يا أحمـد، جهـز نفسك الساعة أربعة سوف آخذك للقسم، واعتبر نفسك مقبـوض عليك من هذه اللحظة، وسوف نرسلك للخُرطوم بمعيـة حـرس بالطائرة.. بدأ يتمحرك، فقلتُ له: يا أحمد إذا عايز ماكينة حلاقة سوف أرسلها لك في السجن.. وقلتُ له: هذه إجراءات لأوامر لا بد من تنفيذها، بغض النظر عن صلة الـرحم والقرابـة بيننـا، وأوضحتُ له أن برقية وصلت من الخُرطوم تفيد بذلك.

في واقع الأمر، لم يبد الرجل أي تذمر أو اعتـراض، ولكن عندما عرفت الأسرة بذلك، انقلب المنـزل إلـى بكـاء وعويل كأنه مأتم، فكان موقفاً حرجاً للغاية.

أعطيت تعليمات بأن يتم تجهيز مكـان خـاص لـه. وعينتُ له ضابطٌ فاصطحبه بالطائرة فـي أول سـفرية إلـى الخُرطوم.. بعد فترة، ذهبتُ إلى الخُرطوم وكُنتُ فـي وزارة الداخلية، وبالسؤال عنه علمتُ أنهم أطلقوا سـراحه، وكـذلك آخرون كانوا قد اعتقلوا من قبل.

لم يكن ذاك هو الحدث الأول، فقـد مـررتُ بتجربـة مماثلة مع شخص اسمه عبدالقادر خليفة خوجلي، وهو قيـادي شيوعي من الأبيض، وكان يسـكن مـع عزابـة (أي غيـر متزوجين) من الصدف أنه كان بمنزلـي وأصـحابه، وهـم مدعوون لتناول طعام الغـداء، وبعـدها قـرروا أن يـذهبوا لحضور ندوة، وكانت عبارة عن نشاط أدبي يقوم بـه بعـض الشخصيات في النادي، وبعضهم لديه هويات سياسية، ولكنهم لا يفصحون عنها بالطبع.. كنت أعلم أن عبدالقادر شـيوعي، ولكني لم ألحظ نشاطاً له.

في اليوم المذكور، وبعد أن انتهينا من تناول طعام الغداء، تحركنا جميعاً نحو النادي للاستماع للمحاضرة، ولم أكُن أعلم أن مقدمها هو عبدالقادر، والذي فاجأنا بمحاضرة تُعبر عـن أفكـار الحزب الشيوعي بصورة صارخة، ذلك ممـا يعـد مخـاطرة، فالاستعمار كان في أوج سطوته.. حاول بعضنا أن يلفت نظـره للتخفيف قليلاً، ولكن كُل من حاول فشل، ومثل ذلك قمة الحـرج بالنسبة لي، إذ أن حضوري يعني الموافقة على كُل ما قيل. علماً بأن ما قيل كان يعتبر الكُفر بعينه لدى الإنجليز. وبالتالي لم يكن ممكناً التستر على فعلٍ علني. كان أحد الضباط العـاملين معـي يجلس بقُربي، فقال لي هامساً: يا سعادتك، نعمل شنو ونتصرف كيف؟ قلتُ له: أترك هذا الموضوع علي، وما تقلق.

علم المدير بالمحاضرة، لأن صيتها قد عـم المدينـة وربما تعداها، فاتصل بي المدير وسألني عـن الـذي حـدث بالضبط. فأخبرتُه بالتفصيل، وقال لي: طيـب منتظـر إيـه؟ عندها لم يكُن ثمة بد من عدم المضي في الطريق الآخر. قُمتُ

بفتح بلاغ بعد أن كتبتُ تقريراً كاملاً عن المحاضرة، ثم ذهبتُ له في منزله لاعتقاله، ولم يكلفنا البحث كثيراً، إذ يبدو أنه كان متوقعاً ذلك، بدليل إنه لم يغادر المدينة، ولم يختف في مكـان آخر غير منزله. فقلتُ له: يا عبدالقادر، ليس هناك أي مفر من الاعتقال، مما يعني أنك ستُحاكم، فجهز نفسك وما تحاول تعمل أي شيء يحرجني.

بالفعل، قُمتُ بالتحقيق معه في المركز. وفي التـاريخ المحدد، شكلوا له محكمة قضت بسجنه لمدة عـامين. ومـن يسجن يكون تلقائياً محط نظر الشُرطة، فأصبح الرجل مطارداً حتى بعد أن أفرج عنه بعد قضاء فترة السجن.

كذلك كان هناك ناشط اسـمه محمـود صـديق مـن دارفور، وأعرفه جيداً، وعلاقتي به وطيدة. كان عسكرياً برتبة مقدم في الجيش، وقد وصلنا جواباً سرياً بأنه حوكم بالسـجن على أن يقضي فترته معنا، بشرط أن يعزل تماماً عن الناس، أي يعتقل في مكان آخر غير السجن العادي. فقُمنـا باختيـار مركز كُتُم ومفتشها كان محمد أحمد غريب. فجهز له استراحة معزولة، مع توفير كافة المتطلبات من أكلٍ وشُرب وكُل السبل الأخرى، إلى جانب توفير حراسة دقيقة. ذهبنا واستقبلناه فـي استراحة المطار. وبعد السلام، طمأنته وقلتُ له: نحـن ننفـذ التعليمات، وأرسلته للمركز مع حرس من الضباط، وقلتُ له: سوف أزورك بعد عشرة أيام.. بالفعل ذهبتُ له وحملـتُ لـه معي راديو وكُتُب وأغراض أخرى صغيرة.

ثمة قصة أخرى.. هناك واحد من أصحابنا من كـوادر حزب الأمة، لكن ابتدأ ينشط بصورة متعمدة وفيها تحد. ذهبتُ له ذات يوم، وقلت له: نحن متابعون لما تقوم به، وحالياً ليس لـدي ما اعتقلك بسببه، ولكن اعلم إننا نحن متتبعون لكُل ما تقوم بـه، ولو المسألة دي زادت عن حدها، سوف أعتقلك مباشرة. والحقيقة كُنتُ قد عينتُ له مراقباً، يتابعه أينما حل. وكان هو يشعر بـذلك أينما ذهب. وفي نهاية الأمر، ضاق ذرعاً بذلك الحصار، فجاءني

في المكتب حاملاً معه مصحفاً وأقسم عليه بأنه لـن يفعـل أي شيء، فقط يطلب مني رفع تلك الرقابة، وذلك ما حدث.

المفارقة، أنني عندما عدتُ بعد فترة إلى مدينـة جوبـا، وجدتُ أحمد علي بقادي معتقلاً في سجن ناكشوط مع مجموعـة من السياسيين الذين أطاح بهم انقلاب الفريق عبود، وعلى رأسهم السادة إسماعيل الأزهري رئيس الوزراء، محمد أحمد محجوب، عبدالخالق محجوب، عبدا خليل، فقابلتُهم جميعاً، وكُنتُ علـى معرفة ببعض منهم، ممن جاءوا في زيارة رسمية لمناطق عملتُ بها.. فتآنسنا بالطريقة السودانية، وسألوني ما الذي أتى بي هنا؟ وكان السؤال لأنني لم أكن أرتدي الزي الرسمي وقتها، فقلتُ لهم متندراً: **«معتقل معاكم، وأنا وراكم وراكـم، جـوه وبـره»**، وتبادلنا أنواعاً من الملَح والطُرف والنكات، لدرجة لا يستطيع من لا يعرف ثقافة وعادات وتقاليد الشعب السوداني أن يظـن بأن المشهد الذي يجري بصورة تراجيكوميدية يحـدثُ بـين سجناء ومسئولٌ يمثل السلطة التي سـجنتهم.. فقـط وددتُ أن أؤكد مبدأي في تطبيق القانون مهما كانت الظروف.

ضمن أنس ذكريات ذاك اليوم، ذكر عبدالخالق محجوب للحضور السامعين، ما حدث من قبل وتعرضتُ له في مـؤتمر الخريجين الثاني، الذي أقيم في مدينة الأبيض. وكُنتُ قد ذكـرتُ أيضاً أن المؤتمر الأول كان في مدينة ود مـدني، وكُنـتُ أنـا حينذاك سكرتير الجمعية الأدبية في النادي بالأبيض. قـال لهـم عبدالخالق إنني قدمتُ دراسة للمؤتمرين حول مستقبل الشـيوعية في السودان. وأردف قائلاً، إنه بحث عنها ولم يجدها، لأن محمد متولي العتباني أخذها منه ولم يعدها له ثانية. وقـال أيضـاً، إن محمد أحمد المحجوب أطلع عليها ذاك اليوم، بحكم أنه كان أحـد منظمي المؤتمر. وختم عبدالخالق محجوب حديثـه للمسـتمعين المعتقلين، قائلاً بما يشبه الشهادة التي يمكن أن يعتز بها المرء: **«يا جماعة، أخونا عثمان زين العابدين ده ما شيوعي، لكـن أجزم بأنه بعرف الشيوعية أكثر مني»**.

في فترة اعتقال هؤلاء السياسيين، كان معنا في الفاشر مصطفى أبو شرف، وكان يتقلد وظيفة مفتش التعليم، كما أنـه متزوج من شقيقة عبدالخالق محجوب. وكانت بيننـا علاقـة وطيدة على مستوى الأسر. وذات يوم، طلب مني مصطفى أن أهيئ له مقابلة عبدالخالق محجوب في السجن. فقلتُ لـه: يـا مصطفى، وا المسألة دي صعبة، لأنه عندنا تعليمات مشددة بعزلهم تماماً عن الناس، وعدم السماح لأي أحد منهم بمقابلـة خاصة، ولكن دعني أشوف طريقة.

من جهة أخرى، كُنتُ أمر على المعتقلين كُل يـومين أو ثلاثة لرؤية ما إذا كان لديهم خطابات إلى أسرهم، فقد كُنتُ أفعلُ ذلك دون الرجوع للخُرطوم. وأخبرتُهم بأنني أقدم لهـم خدمـة ويجب ألا يحرجوني أو يضعوني في موقف صعب، بذكر أشياء سياسية أو ممنوعة، واتفقوا جميعهم على أن ذلك لن يحدث، ثـم اعتبرتُ ما قالوه التزاماً غير قابل للتشكيك، فلم نكُن نراجع تلـك الخطابات أو نفتش ما بداخلها. وعموماً، شعرتُ شخصياً أننـي أصبحتُ همزة وصل مع أهلهم. وفي الحقيقة، اعتبر جميعهم تلك خدمة ترقى لدرجة الجميل الذي لا ينسى.

كما أنه بعد أن تقدم بنا العمر، أدركنـا أن تلـك مـن الصفات النادرة التي يتحلى بها الشعب السوداني العظيم.

أخبرتُ عبدالخالق محجوب برغبة مصطفى أبو شـرف في لقائه. وقلت له: ليس لدي مانع، ولكن لابد من تدبير الأمـر. فقال لي كيف؟ قلتُ له: إن الطريقة الوحيدة هي أن آخذك معي في عربيتي وأخرج بك من السجن لمنزلي مباشرة. فقـال لـي عبدالخالق: لكن دي فيها مخاطرة عليك.. قلت له: ما عليك، نحن لها.. المهم عايز منك التزام بوعد شخصي.. قال لي: في شـنو؟ قلتُ له: بأن يجري كُل شيء بهدوء. وكأنه فهم مقصدي، فقـال لي: بالطريقة السودانية البحتة: أفووو يا عثمان، أنـا أخـوك إنت.. وكان ذلك بمثابة مسك الختام في مغامرة لا تشبه سـوى

السودانيين، وقيمهم التي ينبغي أن تكون نموذجاً في التاريخ الإنساني.

رتبتُ أموري تماماً، وبالطبع لم أطلع عليها أحد سوى إبلاغي الطرفين بما سأقدم عليه.. ومضى كل شيء وفق ما خططت، حيث اخترتُ زماناً معيناً دون أن يشعر أحد من المعتقلين بما أزمعتُ عليه، وأدخلتُ عبدالخالق محجوب في عربتي الخاصة، وانطلقت به من خارج السجن إلى منزلي مباشرة، وكُنتُ وقتها قد أخبرتُ مصطفى أن يكون في انتظارنا في منزلي.. هناك التقيا، وتركتُ لهما المجال ليتحدثا حول ما يودان الحديث عنه، وغادرتُ الغرفة، وقُلتُ لهما: سأمنحكما نصف ساعة فقط.. وبعدها عدتُ ومعي عبدالخالق نحو السجن دون أن يشعر بنا أحد.. وفي الواقع ظل عبدالخالق يقول لي دائماً إنه ممتن لي لما تعتبره جميلاً فعلته!

كان المعتقلون قد أفرج عنهم، شاملاً الذين كانوا في ناكشوط، والآخرين الذين كانوا في سجن جوبا، وهؤلاء فيهم الوسيلة عبدالرحيم. وكانوا على علم بالتطورات، ولكنهم لم يكونوا على علم بخواتيمها، والقاضية بإطلاق سراحهم. حملنا أمر إطلاق سراحهم أنا والطاهر، وأبلغناهم به في موقف بالغ التأثير بالنسبة للطرفين.. المسجون والسجان.

غير أني أستطيع أن أجزم، أننا – أي نحن السجانين – كنا أكثرهم تأثراً، بالرغم من أننا كُنا نمثل السلطة التي رمت بهم في السجن، بغض النظر عن طبيعتها، ولعل التحام المشاعر والعواطف المتبادلة كان دليلاً على غرابة المشهد. علاوة على أن المعتقلين نسوا تلقائياً فترات السجن بكل ما حملته من معاناة، وطفقوا يشكُروننا على حسن التعامل إبان فترة الاعتقال، كأنهم كانوا في نزهة في قُصور منيفة، وأصبح ذاك بعدئذ من حديث الذكريات كلما التقيتُ بأحد أو صادف سجين سجانه.

زيارات مُهِمّة للجنوب

أذكُر أنه أثناء عملي في الجنـوب قـد زارنـا دكتـور مصطفى محمود، المصري الملحد آنذاك، بل كان ملحداً بشـكلٍ سافر.. ذلك ما لمستُه من مناقشات طفيفة جرت بيننا، ولم يكـن الرجل يخفي ذلك بشكلٍ طبيعي. فطلب مني أن يزور مدن كُبرى في الجنوب، مثل ياي ومريدي وواو وملكال. وكانت رغبته التي أفصح لي عنها أنه يريد رؤية القبائل التي تعيش في الغابات على حقيقتهم. كان مقيماً في فندق جوبا، وترددتُ عليه كثيراً، والحقيقة دون اكتراث لما كان يقول.. كان هدفي أن أساعده بغض النظر عما كان يفصح لي عن آرائه التي ذكرت.

فقد كان كُل همي أن أساعده في تحقيق هدفه، باعتباره ضيفاً على بلادي، وباعتباري مسئولاً ينبغي أن يوفر له كُل السـبل الأمنيـة، حتى لا يحدث له مكروه، يمكن أن يؤخذ علي لأنني المسئول، لا سيما، وقد أخبرني إنه كان بصدد تواصـل رحلتـه إلـى كينيـا وأوغندا. لكن على كلٍ، لا أخفي أنني استمتعتُ بمناقشته والتحاور معه لساعات طوال، ولفت نظري إنه كان رجلاً صبوراً.

أيضاً من الزيارات المهمة أثنـاء فتـرة عملـي فـي الجنوب، كانت تلك التي قام بها مستر جون وايت، وهو ملحقٌ ثقافي في السفارة الأمريكية. كُنتُ قد اسـتلمتُ رسـالة مـن الرئاسة، أفادت بأنه قادم وزوجته وبنتـه لزيـارة المديريـة الاستوائية، وأكدت الرسالة بضرورة الاهتمام بهم، وتقديم كُل التسهيلات الممكنة. مع التأكيد بأن الرئاسة سوف تتكفل بكُـل منصرفات الرحلة. حضر الرجل وأسـرته، وقضـى معنـا أسبوعاً. ثم جمعتني به الصدف لاحقاً.

قبل ذلك، جاءتني رسالة من صديق اسمه محمد أحمـد عمر، كانت الظروف قد جمعت بيننا عندما كُنتُ أعملُ محاسباً في وزارة المالية وهو كذلك، أي كان يضمنا مكتـب واحـد. المهم، كُنتُ أعلم دون اكتراث مني أن له علاقات واهتمامـات

بمسائل أخرى خطيرة. منها ما كان يتردد بأنه عميلٌ للمخابرات المركزية الأمريكية CIA، والحقيقة كان قد ظهر عليه غنى لافتاً للنظر آنذاك، لدرجة أنه أصبح فيها من كبار شخصيات المجتمع. ثم افترقنا دون أن يترك أثراً كبيراً في ذاكرتي، إلى أن أيقظ تلك الانطباعات في رسالته تلك، والتي ذكرني فيها بتلك الأيام التي قضيناها معاً. وذكر لي في تلك الرسالة زيارة مستر جون وايت، وطلب مني الاهتمام به.

الحقيقة، لم استغرب طلبه، لأنه كما ذكرتُ، كُنتُ أعلم بأنه أصبح مقرباً من السفارة الأمريكية. وبغض النظر عن كل ذلك، اهتممتُ بالضيف وزوجته بصورة أخجلت تواضعهما، كما ذكرا لي.

> **(الجدير بالذكر، أن محمد أحمد عمر كان قد رتب لقاء للسيد الصديق المهدي مع مسئول في السفارة الإسرائيلية "غازيت" في لندن، طلباً لمساعدة حزب الأمة بدعم مادي يخوض به الانتخابات بعد الاستقلال. جاء ذلك في وثيقة رقم ٥٤/١٠٣٣٢ كشفت عنها دار الوثائق البريطانية، وأورد نصها أبوالقاسم حاج حمد في كتابه الموسوم: "السودان.. المأزق التاريخي وآفاق المستقبل" ص ٤٨٦ – المحرر)**

ثمة زيارة أخرى كانت مهمة أيضاً، قام بها وكيل وزارة الداخلية علي حسن عبدا ، وكان قبلها قد تعرفتُ عليه عندما زارنا في مدينة الفاشر. وفي الزيارتين، كُنتُ قد أبديتُ اهتماماً شديداً به، وأكرمتُه غاية الكرم، وقدمتُ له كُل المعينات لتسهيل مهمته، وعندما ودعته في المطار، قال لي: **«يا عثمان، وا ما عارف أرد ليك جمايلك دي كيف، لكن نتلاقى قدام والأيام بيننا»**، والواقع لم أكُن أظن أنني فعلتُ شيئاً خارج نطاق واجبي المناط بي عمله.

بعد عدة شهور من تلك الزيارة، وتقريباً في أوائل العام ١٩٦٤، وصلتني برقية من الخُرطوم تفيد أنني تم اختياري

لأن أكون رئيس بعثة الحج السودانية لذاك العام. فلبيتُ الدعوة فرحاً، وذهبتُ وزوجتي إلى الخُرطوم، ولم يكُن الموضوع قد خطر ببالي أصلاً حتى أتهيأ له، بل لم تكُن عندي فكرة عـن المملكة العربية السعودية، ولا الحج وطقوسه. لكن على كُـل حال، قُضي الأمر على أكمل وجه، وأدينـا فريضـة الحـج. وكانت تجربة مبهرة بالنسبة لنا، ما تزال عالقة بذهني رغـم تراكُم السنين. وعلمتُ لاحقاً أن تلك التزكية جاءت من الوكيل علي حسن عبدا ، فشكرتُه على ذلك.

كما ذكرتُ في صفحات سابقة، أننـي قضـيتُ خمـس سنوات في المنطقة، وبالتالي كنت أعلم تماماً أشياء كثيرة عـن طبيعة التمرد بحسب خبرة السنين. أذكُر من المواقف المهمة في هذا الصدد، زيارة قام بها بعض أعضاء مجلس قيـادة الثـورة تباعاً، الفريق إبراهيم عبود، رئيس المجلس العسكري الحـاكم، واللواء حسن بشير نصر، ثم اللواء طلعت فريد. والأخير هـذا، أي اللواء طلعت، فريد كان كثير التردد على المديرية.

ففي إحدى زياراته، وكان وزيـراً للإعـلام، وكـان يومذاك اسمها وزارة الاستعلامات والعمل، أقمتُ لهم دعـوة جمعتُ فيها عدداً كبيراً من الناس. أثناء تجاذُبنا الحديث معـاً، قلتُ له: يا سعادتك أنا عملت في غرب السودان، وتسني لـي تسجيل عدد كبير من الأغاني الدارفورية والكُردفانية، وعندما حضرتُ لجنوب السودان فعلتُ الشيء نفسه، وأصبح لدي عدد كبير من الشرائط (الكاسيت)، إذا ممكن الاستفادة منها.

زفر السيد طلعت فريد زفرة عميقة، وقال لي: **«شوف يا عثمان، أنت أحييت لي فكرة كانت تدور فـي ذهنـي مـن زمان ولم أولها الاهتمام الكافي. وهـي، أنـا افتكـر نحـن محتاجين لقسم خاص بالفلكلور عشان نصهر التنوع الثقـافي الموجود في السودان»**. وأضاف: **«أنا افتكر ما حنلقـى زول زيك، ولذلك أنا حا أطلب انتدابك من وزارة الداخلية لـوزارة الاستعلامات، لمدة خمسة سنوات قابلة للتجديد، يكون فيهـا**

مرتبك على الوزارة، وترقياتك في الداخلية تمشـي زي مـا هي، وسوف يكون عندك "كارت بلانش"، أي حرية مطلقة، تختار الشيء الذي تحتاجه، من معدات وأجهزة فنية وكوادر عاملة تعينك في المهمة». وختم حديثه بقوله: **«أفتكـر نحنـا محتاجين ليك في الفكرة دي أكثر من كونـه إنـك كومنـدان بوليس، لأنه ممكن نلقى ألف واحد يشتغل شغلتك دي، لكن ما ممكن نلقى زول عنده اهتمامات فلكلورية فنيـة بالسـاهل»**. رحبتُ على الفور بالموضوع. فقال لي إنه عندما يرجع سوف يتصل بوزارة الداخلية من أجل متابعة الموضوع.

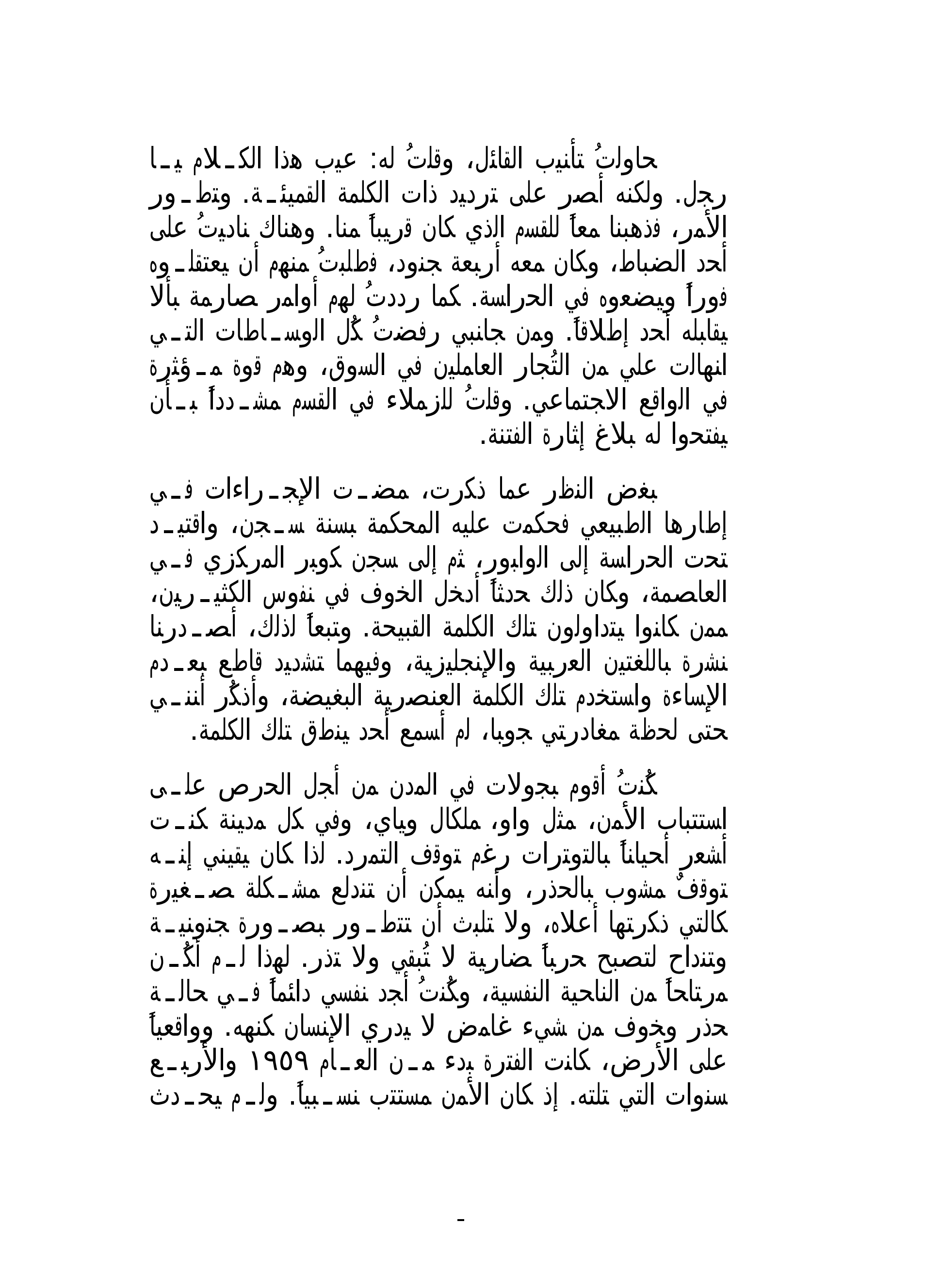
عندما عاد إلى الخُرطوم كان الرجل جاداً فيما قـال. إذ طرح تلك الفكرة في مجلس الوزراء وتمـت الموافقـة عليهـا. ووصلت إشارة بضرورة حضوري إلى الخرطوم فوراً. لبيـتُ الأمر وغادرت إلى الخُرطوم، وهناك ذهبت إلى وزير الداخليـة مجذوب البحاري للتأمين على الاختيار، ولكننـي فُجِعـتُ بعـد الحديث معه على أنه غير موافق. وبرر لي اعتراضه بدعوى أنه يحتاجني للعمل في الجنوب، بحكم أنني أعرف طبيعة التمرد.

غادرتُه وأنا غير مقتنع بما قال، ولكنني كُنـتُ مكـبلاً بالأوامر العسكرية التي لا تُجدي معها الرغبـات الشخصـية نفعاً. ولكنني صممتُ على أن أمضي في الطريـق بكُـل مـا أوتيتُ من سبل. فذهبتُ مباشرة إلى اللواء طلعت فريد، ويبدو أن اللواء البحاري أوحى له أنني رفضتُ الانتـداب! وعنـدما قابلته قال لي: **«ليه يا عثمان رفضت الانتداب؟!»**.. فـذُهلتُ، وقلتُ له: **«معاليك، أنت تعلم أنني موافق، لكن جماعتي هـم الذين رفضوا»**، وأقصد وزير الداخلية. ولكن حتى لا تمـوت الفكرة، قلتُ له: «سوف أرشح لك شخصاً مناسباً أكثر منـي، فسألني من هو؟ قلتُ له على الفور: الماحي إسماعيل، وهـو موسيقار، ويملك الكثير من المعارف الفنية والموسيقية، فوافق، كما وافق الماحي نفسه. ولكن المفارقة، أنه لم ينفذ لا هذا ولا ذاك نسبة لاندلاع ثورة أكتوبر ١٩٦٤..

زملاءٌ شاركوني الضرّاء

أود أن أتحدث قليلاً عن الضباط والجنـود الجنـوبيين الذين عملوا معي. كان الضباط أربعة، واحـد مـنهم اسـمه "مهليلي".. كان رجلاً شجاعاً بشكلٍ منقطع النظير. لهذا السبب أرسلته إلى توريت لكي يكون مسئولاً مـن نقـاط البـوليس، وتوريت معقل قبيلة اللاتوكا التي تُعد مـن أصـعب القبائـل مراساً.
آخر اسمه "داؤدي لاتوكا" نسبة لذكائه، فقد اخترتـه كضـابط مباحث. وثالث اسمه "رودن ماك" وعمل معـي فـي ملكـال كعسكري، وتمت ترقيته لضابط بعد أن درس وعاد من جامعة مكاريري في أوغندا، ثم عمل معي في جوبا، وأصبح لاحقـاً مديراً لأمن المديرية كلها، أما الرابع، الذي نسيتُ اسمه الآن، فما نسيته إلا لأنه كان كسولاً جداً، بل أعده من أكسل من مر علي في عملي، ونقلناه إلى كُردفان. المفارقة، أنه كان لـدينا ضابط تعليم حدثت مشكلة عقدية بسببه، فقد أتهم بأنـه أسـلم، وعندما مات، أوصى بأن يدفن في مقابر المسلمين. ويومـذاك حدث نزاع دامٍ بين أهله، وانتهى الأمر بعد جدلٍ إلى دفنه في مقابر المسيحيين.

إن التعايش بين الشماليين والجنوبيين كان يسير بهدوء وتُؤدة، ولكن كانت تحدث أحياناً بعض التوترات، التـي كنـا نعمل على تلافيها، خشية أن تتمدد بلا كـابح. نقـولُ كمثـالٍ لذلك، كُنا نداوم أنا وبعض الأصدقاء في الجلوس فـي قهـوة حاج عبدالسلام بمدينة جوبا. نحتسي القهوة قبل صلاة الجمعة، ونتبادل الأنس والأخبار، ومن ثم نذهب لأداء فريضة الصلاة. أثناء ذلك، حدثت مشكلة بين أحد الشماليين وأحد الجنـوبيين، بعد أن نعته الأول بكلمة "عبد".



حاولتُ تأنيب القائل، وقلتُ له: عيب هذا الكـلام يـا رجل. ولكنه أصر على ترديد ذات الكلمة القميئـة. وتطـور الأمر، فذهبنا معاً للقسم الذي كان قريباً منا. وهناك ناديتُ على أحد الضباط، وكان معه أربعة جنود، فطلبتُ منهم أن يعتقلـوه فوراً ويضعوه في الحراسة. كما رددتُ لهم أوامر صارمة بألا يقابله أحد إطلاقاً. ومن جانبي رفضتُ كُل الوسـاطات التـي انهالت علي من التُجار العاملين في السوق، وهم قوة مـؤثرة في الواقع الاجتماعي. وقلتُ للزملاء في القسم مشـدداً بـأن يفتحوا له بلاغ إثارة الفتنة.

بغض النظر عما ذكرت، مضـت الإجـراءات فـي إطارها الطبيعي فحكمت عليه المحكمة بسنة سـجن، واقتيـد تحت الحراسة إلى الوابور، ثم إلى سجن كوبر المركزي فـي العاصمة، وكان ذلك حدثاً أدخل الخوف في نفوس الكثيـرين، ممن كانوا يتداولون تلك الكلمة القبيحة. وتبعاً لذلك، أصـدرنا نشرة باللغتين العربية والإنجليزية، وفيهما تشديد قاطع بعـدم الإساءة واستخدم تلك الكلمة العنصرية البغيضة، وأذكُر أننـي حتى لحظة مغادرتي جوبا، لم أسمع أحد ينطق تلك الكلمة.

كُنتُ أقوم بجولات في المدن من أجل الحرص علـى استتباب الأمن، مثل واو، ملكال وياي، وفي كل مدينة كنـت أشعر أحياناً بالتوترات رغم توقف التمرد. لذا كان يقيني إنـه توقفٌ مشوب بالحذر، وأنه يمكن أن تندلع مشـكلة صـغيرة كالتي ذكرتها أعلاه، ولا تلبث أن تتطـور بصـورة جنونيـة وتنداح لتصبح حرباً ضارية لا تُبقي ولا تذر. لهذا لـم أكُـن مرتاحاً من الناحية النفسية، وكُنتُ أجد نفسي دائماً فـي حالـة حذر وخوف من شيء غامض لا يدري الإنسان كنهه. وواقعياً على الأرض، كانت الفترة بدء مـن العـام ١٩٥٩ والأربـع سنوات التي تلته. إذ كان الأمن مستتب نسـبياً. ولـم يحـدث

التدهور الأمني إلا بعد هروب وليم دينق في أواخر سبتمبر من العام ١٩٦٣.

لكن في الجوانب الإيجابية، لعل أكثر ما علق بذهني من ذكريات في الجنوب، تلك الطبيعة الخلابة، والثروات الطبيعية المهولة. في ظني أن الحرب المتواصلة أهدرت كثير من إمكانات البلاد وثرواتها، علاوة على الخسارة الأكبر المتمثلة في ضحايا الحرب الذين ظلوا يتزايدون عاماً بعد عام منذ التمرد الأول في أغسطس من العام ١٩٥٥ قبل الاستقلال، وبعده على مختلف حقب السلطة بشتى هوياتها. واعتقد أنه لولا هذه الحروب، لكان السودان من أغنى وأعظم البلدان في العالم.



الفن والشعر

الشفيع 'وود القرشي'

لم يكن محمد عوض الكريم القرشي، الشهير بـ ـ "ود القُرشي" شاعراً غنائياً فحسب، وإنما كان كاتباً روائياً كـ ذلك، وكان لديه رواية بعنوان "حياة الظلام"، وكنت قـ د أخرجتُهـ ا مسرحياً مع شباب الأبيض في إطار أنشطة الجمعية الأدبيـ ة التي ذكرت. وكان من المفترض أن يذهب ريعها للنادي، ولكن رأينا أن ود القرشي كان في حاجة لبعض المـ ال، فأعطينـ اه الدخل الذي حققته المسرحية.

في واقع الأمر، جمعت بيننا علاقة صداقة قوية. كـ ان يعطيني القصيدة، ولا أبدي وجهة نظر فيها وحسب، بل أقـ وم ببعض التعديلات، وهو من فرط ثقته في شخصي، كان يقـ ول لي، إنه لا يشعر باكتمال القصيدة ولا يرتاح نفسياً، إلا عنـ دما يعرضها علي وأضع فيها لمساتي. الغريب في الأمر، أن "ود القرشي" كان يخفي موهبته الشعرية عن الناس حتـ ى الـ ذين كانوا قريبين منه، ولا يسترسل إلا معي.

صداقتي مع "ود القرشي" قادت إلى صداقة مع الفنـ ان "عثمان الشفيع"، الذي يأتي من الخُرطوم إلى الأبيض مرة كل شهر، كما ذكرت، ويلتحق بنا صديقان عزيزان آخران، همـ ا الشاذلي إبراهيم وحمد أبو ورقة. فيجد "ود القرشي" قد نظم له قصيدة غنائية، وملحنة أيضاً، فيأخذها ويعود بها إلى الخُرطوم لتقديمها في الإذاعة، والتي كانت تخصص يوم الخميس الأخير من كل شهر لبث الأغاني الجديدة. وكان الفنانون يتبارون في تقديم الجديد المبتكر.

ذات مرة جاء "الشـ فيع" كالعـ ادة، واعتـ ذر لـ ه "ود القرشي" بأنه لم يستطع أن يحضر له جديـ داً، وقـ ال لـ ه إن

شيطان الشعر تمنع عليه، فانزعج "الشفيع" غايـة الانزعـاج، وكنا قد قررنا أن نستقل القطار ونعود معه إلـى الخُرطـوم. وكان موعد الإذاعة قد تبقى له يومان. ركب ثلاثتنـا القطـار و"ود القرشي" كان عنده إرسـالية بريـد فـي "ود عشـانا"، وواصلنا بعدها حتى الرهد وكانت الأمطار تهطل بغزارة ثـم توقفت، فأصبح الجو خريفياً جميلاً للغاية. فقال "الشفيع" لـ"ود القرشي": **«معقول الجو ده ما تطلـع منـه بحاجـة تكرمنـا بيها؟!»**.. وكان بين الفينة والأخرى يردد له عبارة: **«يا أخي أنا متكل عليك»**، و"ود القرشي" يرد عليه: **«الاتكال على رب العالمين»**.. وتحول الأمر لشيء من الفكاهة.

عندما تحرك القطار من الرهد، فجأة قال "ود القرشي": **«وجدتها»**! ثم أردف: **«شوف يا عثمان، خطرت لي مقدمـة قصيدة، لكن ما عارف أتمها أو لا»**. وردد: **«وطن الجـدود نفديك بالأرواح نجود.....»**، والتفت إلي وقال: **«مـا تبنـي عليها يا عثمان»**، فقلت له: **«أحاول»**..

وصلنا محطة كوستي، وعندما غادرها القطار، قُمـتُ من مكاني دون أن أخبر أي أحد، وجلستُ في صالون القطار، ومن حسن حظي لم يكُن هناك أحد مـن الركـاب، وبـدأتُ أسترسل في مطلع القصيدة، ونظمت على قافيتها أكثـر مـن خمسة عشر بيتاً، وخطر لي اللحن، وعندما وصـلنا سـنار.. كانت القصيدة مكتملة نصاً ولحناً، وعـدتُ لهمـا، وفاجـأتُ "عثمان الشفيع"، وكاد أن يطير فرحاً. وأصبحت المشكلة معه في كيفية حفظ القصيدة لا سيما، وأن الموعد صار حرجاً.

عندما وصلنا الخُرطوم، اتجهنا مباشرة للبحـث عـن العازفين الماهرين، وهما الخواض وحامد النقر، وبدأنا مباشرة في البروفات، إلى أن أجادها "عثمان الشفيع" وشارك بها فـي حفل الإذاعة، الذي كان على الهواء مباشرة، وشنفت الأغنيـة آذان المستمعين، وانتشرت انتشاراً واسعاً، نسـبة إلـى أنهـا تنطوي على مفاهيم سياسية مستترة. الأمر الذي دعا السلطات

إلى استدعاء "عثمان الشفيع" واستجوبوه. فقال لهم في التحقيق: **«أنا لقيتها جاهزة ونظمها "عثمان زين العابدين"»**، ولم يقُل "ود القرشي"، وبالطبع كان صادقاً.

كُنتُ على معرفة وثيقة بصديقي محمد عثمان زكي، وكذلك متولي عيد، فطلبوني منزعجين، وأخبروني بما قاله "عثمان الشفيع"، الذي لم ألتقه بعد إذاعة الأغنية. فاتفقنا على أن يقول "ود القرشي" إن القصيدة من نظمه، نسبة إلى أن عملي الرسمي يقتضي التورية وإلا فُصلت. وأخبرنا "ود القرشي" بذلك، أي أن يدعي أنها قصيدته عند استدعائه، وكذلك قلنا لعثمان الشفيع إنه يجب أن يغير أقواله. أما أنا، فقد تمسكتُ بقولي، إنني كُنتُ معهم كمستمع فقط. ومضى السيناريو على هذا التخطيط، ونفذناه جميعاً.

لكن الطريف في الأمر، طبعاً، أن القصيدة سجلت باسم محمد عوض الكريم القُرشي إلي يومنا هذا، ولم أشأ أن أصحح هذا الأمر، نسبة لأنني لم أكُن أرى داعياً، وكُنا نغلب الصداقة والعلاقة الأخوية على ما سواها. زد على ذلك، نسبة لمشاغلي التي ازدادت، لم أمضي في طريق الفن بعدها، إلا العزف من باب الهواية التي أمتع بها نفسي وخاصتي من الأصدقاء.

أبو حسبو ولجنة النُصوص والألحان

كذلك، كانت بيني وبين "عبدالماجد أبو حسبو" علاقة صداقة حميمة، وهو دفعتي في كلية غُردون. وعندما تم اختياره وزيراً للثقافة والإعلام، كان الفنانون مضربين، والإذاعة شبه متوقفة، يتم تسييرها بالمواد القديمة. اتصل بي ذات يوم، وقال لي إنه يريدني لأمر هام في مكتبه. وجدتُه مهموماً عندما وصلته، وأفضى لي أن الظروف لا تساعده وهو يخطو خُطواته الأولى في الوزارة، وحدثني عن المشاكل التي جابهها ومن بينها الإضراب.

قال لي: **«أريدك أن تكـون رئيسـاً للجنـة الألحـان والنُصوص»**. وقبل أن أبدي رأيي بالموافقة أو الرفض، أردف قائلاً: **«الآن أريدك أن تختار من يعمل معك في هذه اللجنة»**. ومع حصاره، وافقتُ، واقترحتُ له فـي ذات اللقـاء بعـض الأسماء، وكان هو أيضاً يقترح من جانبه آخرين، إلى أن اتفقنا على قائمة كاملة..

ضمت القائمة كلٌ من: دكتور إبراهيم عبداللطيف وهو طبيب أسنان كان يتمتع بذائقة فنية عالية، إبـراهيم العبـادي (شاعر)، حسن نجيلة (كاتب)، عبيد عبدالرحمن (شاعر)، أحمد مرجان (رئيس فرقة موسيقى الجيش)، عبدالقادر عبدالسـلام (رئيس فرقة موسيقى الشرطة)، إسماعيل عبدالمعين (ملحن)، أحمد المصطفى (نقابة الفنانين) وعثمان أحمد يسن.. والأخير هذا، كان شيخ الجزارين، وهو خريج كلية غُردون، وله بـاع طويل في النُصوص الفنية والألحان.

أثنى أبو حسبو على اختيارنا، وختم بقوله، إنه يثق في مقدراتي وإمكاناتي جيداً، ولم يختارني كصديق.

عقدنا أول جلسة اجتماع في دار الإذاعة، وكُنتُ أعرف الذين اخترتهم جيداً، في حين أن معرفتي كانت طفيفة بـبعض الذين اختارهم "أبو حسبو". المفارقة هو أنني حضرتُ بـزي الشُرطة الرسمي، لأنني كُنتُ قادماً من مناسبة، والحقيقة كـان المنظر غريباً، وأصبح مادة لتندر المجتمعين، حيث لا علاقـة بين اللجنة وعملها وزي الشرطة الذي أرتديـه. كانـت تلـك اللجنة على قدر كبير من المسئولية، وجميعهم فطاحل، كلٌ في مجاله، ولهذا كانت الأغنية لا تُجاز إلا بعد تصفية دقيقة، فكان الفنانون يضعون لها ألف حساب، وعندما يجاز لحن أحـدهم، تجده يفرح كما الطفل الصغير، ويحتفي بذلك.

كان الاجتماع الأول ناجحاً، حيث وفقنا في وضع أسس ومعايير اختيار الألحان والفنانين، وقررنا أن يكون أسـبوعياً.

لكن ما كان يقلقنا، هو استمرار الإضراب. والحقيقة أنه بالبحث والتحري في أوساط الفنانين والموسيقيين المضربين، علمنا بضآلة أجورهم، وفكرنا أن نُؤازرهم بكتابة مذكرة للوزير، ولكن بجانب ذاك، عرفنا سبباً غريباً، وهو أن ما فاقم من سوء أوضاعهم المادية، أن المسئول عنهم في الإذاعة شخص اسمه "السفاح"، والبعض يسميه تندراً "أبوالقاسم" وسبب التسمية يعود إلى أنه كان يحلو له اقتسام الأجر مع الفنانين. وعلمنا أنه كان يبتزهم بالتحكم في ظُهور أغانيهم، ولهذا صعب عليهم الشكوى، ولكن بعد أن علمنا وتأكدنا من القصة، تم فصل "السفاح" من الإذاعة.

حدث ذات مرة خلافٌ بيننا وبين متولي عيد مدير الإذاعة، حول ما يتعلق بمعايير قبول الفنانين، فحكّمنا الأستاذ يوسف شوقي في خلافنا ذاك، وهو جاءنا منتدباً من مصر ليساهم في تطوير الموسيقى، وهو بجانب مؤلفاته الموسيقية العديدة، كان لديه أيضاً دكتوراه في علم الآثار. فمال إلى رأينا وزكاه، وتلك كانت فترة منتصف الستينات، قبل انقلاب مايو (جعفر نميري) في العام ١٩٦٩، مما يدل على هيبة ومكانة اللجنة.

أذكُر من المواقف الطريفة، في أحد اجتماعاتنا، سأل الكاتب حسن نجيلة، الشاعر إبراهيم العبادي بطريقة مازحة، وقال له: **«بتعرف الزول ده؟»** وهو يشير نحوي.. فقال له "عم إبراهيم" – كما كنا نناديه: **«للأسف ما بتذكره»**.. فقال له حسن نجيله: **«يا إبراهيم إنت بتغالطنا، وبتقول أصغر مننا ساكت، ونحنا بنقول ليك إنت خرفت، أسه تأكد لينا إنك خرفت.. الزول الما عرفته ده، أذكرك ليه»**.. وأضاف نجيلة: **«تتذكر الرحلة الذكرتها في قصيدتك "سائق الفيات"، البتقول فيها: "يا زين الشباب يا طيب الأخلاق/ يا أمين الصديق والناس على الإطلاق/ من أيدي الصناعة يبعد المعلاق/ أنظر للطبيعة ومجد الخلاق/ أها شفت الأولاد الصغار الكانوا**

بخدمونا في المناسبة ديك، أها "عثمان" ده واحد منهم، وهو ود صاحبك صاحب المناسبة زين العابدين كوكـو، أو زيـن الشباب». وما أن ذكر اسم الوالد، حتى هب "العبادي" واقفـاً سلم علي بالأحضان، وانفعل واغرورقـت عينـاه بالـدموع. وسألني عن الوالد وأحواله، وتداعى في ذكرياتهم معاً.

بدأنا في تنفيذ خُطة العمل التي وضعنا أُسسها لتسـيير أنشطة لجنة الألحان والنُصوص. كُنتُ أقوم بتحضير عدد كبير جداً من النُصوص في كُل اجتماع، تبلغ أحياناً ما بين ٣٠ إلى ٤٠ قصيدة. مع ذلك، يصدف أحيانـا ألا نجيـز ولا واحـدة. وكذلك الأمر بالنسبة للألحان، بل لم تكن اللجنة تُجامل حتـى بعض الفنانين الذين أصبحوا كباراً لاحقاً، حين رفضـت لهـم أعمالاً اعتبرتها ضعيفة وليست فيها ذائقة فنية.

أضرب مثلاً، كان الفنان "سيد خليفة" قد ذهـب إلـى مصر، وأنجز بواسطة شركة فنية شريط كاسيت، يضم نحـو خمسة أو ستة من أغانيه، وعندما عاد إلى السودان وعـرض ذلك العمل على اللجنة، رفضناه ما لم يقدم تلك الألحان أمـام اللجنة، الأمر الذي حدث. ذلك كان ديدننا، فكنا نفرض علـى كل الفنانين صغاراً كانوا أم كباراً، شرط الوقوف أمام اللجنـة وتقديم ألحانهم وأغانيهم.

أذكُر ذات مرة حـدثت مشـكلة افتعلهـا "إسـماعيل عبدالمعين"، وكان رجلاً حاد المزاج. فقال إن الفنانين بـدأوا يتلاعبون بقواعد اللغة الموسيقية، وأنهم يعملون بأمزجتهم ولا يلتزمون بالنوتة الموسيقية. والحقيقة لم يكن ثمة عدد يذكر من الفنانين الذين تعلموا الموسيقى علـى النوتـة. وطلبنـا مـن "عبدالمعين" أن يكون مرناً، وقلنا له، عملياً ذلك غير ممكـن، ولكن أرضيناه بأننا سوف نعمل توصية بذلك. ويبدو أنـه أراد المضي في طريق التحدي لكي يعضد رأيه. فقـال لنـا إنـه سيسمعنا لحناً جديداً صاغه بالنوتة الأسبوع القادم.

جاء بفرقته وعزفوا اللحن أمامنا، كان اللحن جميلاً، لكن بعض أعضاء اللجنة وخاصة عبدالقادر عبدالسلام، ساوره الشك في أن هذا اللحن مسموع. ولم نُخبر عبدالمعين، ولكن قلنا له أعطنا فرصة لتقييمه لأن هذا اللحن مركّب. اتفقنا على أن يأخذ عبدالقادر نسخة من اللحن، وكذلك أحمد مرجان ويأتوننا برأيهم الأسبوع القادم.

عند اجتماعنا، أجمع الاثنان على أن هذا اللحن عالمي ومأخوذٌ من فنان أيرلندي. بل اكتشفوا أنه مسجلٌ في أسطوانة في العام ١٩٢٢، ومن الصدف، وجد أحمد مرجان تلك الأسطوانة ضمن مقتنياته الفنية. وكان موسوعة في الموسيقى والألحان، واتفق معه عبدالقادر عبدالسلام أيضاً. وبالفعل جاءوا بالفونوغراف الأسبوع الذي يليه، وأسمعوا اللجنة اللحن. وعندما جاء إسماعيل ليسألنا عن رأينا، لم يكُن ثمة بد من مواجهته بالحقيقة، فقلنا له: **«يا أستاذ إسماعيل، أنت فنان ذو مكانة كبيرة عندنا، ولكن بكُل أسف لحنك ده مأخوذ من لحن عالمي»**.

جن جنونه، وهاج وأرغى وشتمنا ووصفنا بالجهل، وقال لنا: **«إنتوا ما بتعرفوا موسيقى»**، وخرج غاضباً. علمنا أنه ذهب لوزير الإعلام عبدالماجد أبوحسبو واشتكى اللجنة. وبعد يومين اتصل بي الوزير أبوحسبو، وسألني عن حكايتنا مع إسماعيل، فأخبرته بتفاصيل ما حدث. وقلتُ له، لدي اقتراح أطرحه عليك، ويمكنك أن تطرحه على عبدالمعين ويرفع عنك الحرج.. كان اقتراحي أن نعرض الأمر على دكتور يوسف شوقي، وهو مصري الجنسية ومن الموسيقيين المعروفين، وكان قد وصل الخرطوم ليبدأ تأسيس معهد للموسيقى. فقال لي أبو حسبو: خلاص أنا موافق، كلموا عبدالمعين. أسمعنا الدكتور شوقي اللحن بحضور عبدالمعين، فأكد على رأينا وقال: فعلاً هذا اللحن مشابه للحن العالمي. غضب إسماعيل وعزل نفسه من اللجنة، ولم يحضر

اجتماعاتها مرة أخرى. وكانت تلك الوقائع في العـام ١٩٦٦ تقريباً.

كان الشغل في لجنة النُصوص والألحان رغم متعتـه مرهقٌ جداً، بالرغم من كونه كذلك، كنا نعقد اجتماعنا مرة في الأسبوع، ولكنه يمتد لنحو ثلاثة أو أربعة ساعات. كنا نسـتمع لما بين ٨ إلى ٩ ألحان ونناقشها. وأكثر ما كـان يتعبنـا أن معظم النُصوص دون المستوى المطلوب وتهدر لنـا الوقـت، ولكن لم نكُن نُجامل مطلقاً لأن المسألة لا تحتمـل الوسـاطة، فهي مرتبطة بجمهور يمثل الحكم النهائي، وبالتالي لـم يكـن مقبولاً أن نُحرج أنفسنا بإجـازة نُصـوص دون المسـتوى. واستمررنا في ذلك حتى العام ١٩٦٩، فبعد حـدوث انقـلاب نميري، ألغيت اللجنة بقرار من وزير الإعلام.

ذات يوم، وأثناء دخـولي الإذاعـة، فجـأة اعتـرض عربيتي أحد الأشخاص، ورمى نفسه أمامها. لدرجة كان يمكن أن أدهسه. عندما توقفت وأردتُ الخُروج من العربية، هجـم علي الرجل وهو في حالة شبه هستيرية، وقال لي: أنا عـايز أقابلك ومنعوني أكثر من مرة، وما في طريقة غير أعمل كده. فقلت له: طيب تعال.. مشكلتك شنو؟! قال: أنـا مـن حـي الرديف في مدينة الأبيض، ووالدتي متزوجها فلان، وسمى لي عدد من الأسماء، أدركتُ أنني أعرفهم جميعاً، ولكن لم أقُل له ذلك بهدف معرفة بقية قصته.. فقلتُ له: طيب عايز شـنو؟! قال لي: أنا عايز أظهر قدام الميكرفون بتاع الإذاعـة عشـان تسمعوا غُناي، وجمعة جابر قال لي ما عندي طريقة غير أنه أقابلك عشان تسمعني.. فقلت له: بتعـرف شـنو فـي الآلات الموسيقية؟! فقال لي: بعزف على العود وبغني، فقلتُ له: طيب يا ابني سوف أمنحك فرصة في الأسبوع القادم.

حضر في المواعيد ومعه عـوده واختبرنـاه مبـدئياً ووجدناه يمكن أن يرجى منه، ولكنه يحتاج إلى تدريب وصقل.

فقلتُ له: لا بأس، أذهب واحضر لنا بعد شهر وخلاله ممكـن تزيد من تدريبك بمزيد من العزف والغناء. الطريف في الأمر أنه قال لي: لكن ما بقدر أقعد في العاصمة دي لمدة شهر، لأنه أجازتي سوف تنتهي.. قلت له: فليكن بعد أسـبوعين.. جـاء وكانت عزيمته كبيرة وأجازته اللجنة، بعد أن قدم أغنية قديمة، وكنا نفرض على أي فنان تحت الاختبار أن يقدم أغنية قديمة معروفة.

كذلك من المواقف الإنسانية المـؤثرة، كنـت داخـل الإذاعة ذات يوم، قابلتني الفنانة عائشة الفلاتية، وكانـت قـد تعرضت لحادث بترت فيه يدها، فداهمتني وطفقت تبكي بشدة، فقلت ليها: خير.. قالت لي: أنا الدنيا اتقفلت في وجهـي ومـا قادرة أعيش.. تعاطفتُ معها وكُنتُ مقتنع بفنها وجمال صوتها، وأدركتُ أن مشكلتها مادية، فأطلعتُ اللجنـة علـى ظروفهـا المأساوية، واتفقنا على وضع بصماتنا على ألحانها حتى تُجاز، ووصيتُ عليها مدير الإذاعة بضرورة منحها فرصة أكبر في إذاعة أغانيها، وكذلك أخبرتُ الوزير عبدالماجـد أبوحسـبو، وكان يمتاز بحس إنساني كبير.

حسن عطية

ذات يوم دعانا صديقنا عبدالحميد خير السيد إلى منزله في الخُرطوم لتناول طعام الإفطار. وكنا مجموعة منهم محمد عبدالرحمن.. عندما دخلنا المنزل، وجدنا بعض الناس، مـنهم رجلٌ أنيق يرتدي بدلة كاملة، وقال أحد الحضور: **«أقدم لكـم الفنان حسن عطية»**، وكانت تلك هي المرة الأولى التـي أراه فيها، بل المرة الأولى التي أرى فيها العود، فلم أره من قبل إلا في السينما. فقال له صديقنا عبدالعزيز: إنني أجيـد العـزف، فطلب مني حسن عطية أن أعزف شيئاً، فعزفتُ أغنية "يلاك يا عصفور" وأنا أعلم أنها من كلماته وألحانه، ويغنيهـا أحمـد المصطفى، فاستبد به الطرب حد الثمالة. ومنذُ تلـك اللحظـة

تكررت لقاءاتنا، ونشأت بيننا علاقة صداقة، عجل بها صديقٌ مشترك آخر، هو حلمي إبراهيم، الذي كان يعمل في الإذاعة حيث كنا نلتقي في منزله كثيراً.

بعد ذلك، كنا نلتقي نحو مرتين أو ثلاثة في الشهر في منزل حسن عطية ("أبو علي" كما كان يحلو لنا مناداته) في حي الامتداد، من قبل أن يرحل لمنزله الأخير في حي نمرة اثنين، بالقرب من كُبري الحرية. وكنا ثلة من أهل الفن والسياسيين، منهم محمد أحمد المحجوب والشريف حسين الهندي وعبدالماجد أبوحسبو وإبراهيم حسن خليل، وكيل وزارة الثقافة والإعلام ومدير الإذاعة، وهناك آخرون. مع ملاحظة أن هذه المجموعة تنتمي لأحزابٍ سياسية مختلفة، ولكن كانت العلاقة ودودة، لا دخل للسياسة فيها، وكانت جلسات فنية راقية وجميلة، خلالها يشنف حسن عطية آذاننا بالغناء والطرب وتستمر حتى مطلع الفجر.

كذلك كانت المرة الأولى التي أشاهد فيها آلة الكمان واسمع من يعزفها عن قُربٍ مع الدكتور أدهم. (لعل الناس كانوا يعرفونه كطبيب يضع لافتة في بوابة عيادته بشارع الحرية في الخُرطوم، مكتوب عليها: "الكشف يوم الجمعة مجاناً")، لكن قليلٌ من الناس يعرفونه كعازف ماهر على آلة الكمان. التقيته مرات عديدة، وهو الذي حبب إلى نفسي عزف آلة الكمان.

أيضاً أثناء فترة عملي في الإقليم الشمالي وتحركي بين القرير ومروي، سمع بعض الموظفين أنني أعزف آلات موسيقية، فأخبروا عبدالقادر محمود حمدي (والد عبدالرحيم حمدي قُطب الحركة الإسلامية ووزير المالية الأسبق)، نسبة لأنه كانت لديه هواية العزف أيضاً. التقيته وكان يعرف والدي، وهو رجلٌ فاضل، قال لي: بتعرف تعزف كمان؟ قلت له: نعم.. فقال لي: أنا أيضاً بعزفه ولكني هاوي.

بدأ يسألني عن الكيفية التي تعلمتُ بها، وطريقة العزف ومعلومات أخرى عن الكمان والموسيقى، واندهش لما عـرف إنني علمتُ نفسي بنفسي. وبدأتُ أعزف له، فطـرب للغايـة، وقال لي: إنت عندك مستقبل في العزف، أرجوك لا تتوقـف، وشجعني على الاستمرار. لكن من الطرائف عنـدما انتهـت فترتي في القرير، وعدتُ لمنزلنا في الأبيض حاملاً الكمنجـة في جرابها، أفتكر بعض الأهل إنني حامل بندقية!

في تلك الفترة، أي نحو منتصف الأربعينيات، زارنـا في الأبيض "عبدالعزيز محمد داؤود"، وكانت تلك هي المـرة الأولى. وكانت زيارة اجتماعية لم يقدم فيها حفلة، غيـر أنـه غنى لنا بصورة خاصة. كذلك زارنا "فضل المولى زنقـار"، وعزفتُ معه في بعض الحفلات. أما "حسن عطية" فقد جاءنا بدعوة من صديقه حسن طه، ونظمنا له حفلاً تاريخياً. استقبله الناس بآلات الكيتة والزمبارة والنقارة (تسميات شـعبية لآلات موسيقية محلية)، كانت التذاكر بأسعار زهيدة.. الدرجة الأولى ١٥ قرشاً، والشعب ٥ قروش. وأقـيم الحفـل فـي مدرسـة سنهوري، جلبنا الكراسي من منازلنا عندما ضاقت المدرسـة بالحضور. كان الإقبال غير عادي لدرجة أن بعـض النـاس ظلوا وقوفاً حتى نهاية الحفل. وعاد "حسن عطيـة" محمـلاً بالهدايا ومكللاً بالحفاوة البالغة، إذ كان للفن مكانته السامية في النفوس.

قصة بيانو:

كُنتُ قد اشتريتُ بيانو من أحـد التُجـار فـي مدينـة ملكال.. حدث ذلك أثناء تلبيتنا دعوة غداء في منزله. عنـدها رأيتُ ذلك البيانو، والحقيقة كان واضحاً أنه لا يعرف قيمتـه الفنية، بدليل أنه كان موضوع بشكلٍ مهمل. فسـألتُ الرجـل عنه، ووجدته لا يعرف عنه كثير شيء. وقلت له: أين وجدته؟ فقال لي: وا ما عارف جبتو من وين، ربما من الكنيسـة.. فقلت له على الفور: هل تبيعه لي؟! فوافق.. قلت لـه: كـم

تريد فيه؟! قال لي: ما عارف، لكـن إذا عـايزو أدفـع أي حاجة.. فقلت ليه: خلاص، أنا سوف أدفع لك ثلاثة جنيهـات، وعندما وافق، دفعت له جنيهاً في نفس اللحظة خشية أن يغير رأيه.. ثم دفعتُ له الجنيهان على أقساط..

بالفعل كان البيانو متسخاً ومليء بالحشرات والتـراب وأشياء أخر.. فأحضرتُ كمية من الجاز وانهمكتُ بـإخلاص في نظافته، بإحساس من وجد هدية من السماء، وكُنتُ سـعيداً به للغاية. كان لدينا فرقـة موسـيقية فـي الشـرطة أسـمها الـ"بايونيرز"، أي "الرواد"، وهم بدورهم لـديهم "حـدادين"، فطلبت منهم أن يؤلفوا لي مفاتيح.. خلاصة الأمـر، بعـد أن اعتنيتُ به بصورة جيدة، بدأتُ العزف عليه، وابتدأت بمعزوفة "عازة".. الأغنية التي أصبحت رمزاً وطنياً.

لم أتيقن من جودة عزفي إلا عندما دخل علـي فجـأة صديقي "خليفة محجوب"، وقال لي إنه كان يسير بالقُرب مـن منزلي، وسمع العزف، فاعتقد أن معي عازفاً أجنبياً مشهوراً. ولما وجدني العازف، انهالت منه الأسئلة الاسـتنكارية، كأنـه محقق شُرطي.. **«ده شنو يا عثمان؟ والبيانو ده لقيته وين؟ وجبتو من منو؟ ومنو العلمك العـزف علـى البيـانو؟!»**.. المهم، شئتُ أن أوقف سيل تلك الأسئلة، فقلتُ له: علمتُ نفسي بنفسي. وهنا علا صوته أكثر، وقال لي: **«وا العظيم حـرام تبقى ضابط بوليس، إنت إنسان موهوب»**. والحقيقـة رفـع معنوياتي، وأيقنتُ بالفعل أنني عازفٌ ماهر، لكن مع ذلك، لـم أرغب في احتراف الفن.

عندما غادرتُ ملكال إلى مدينة بورتسـودان، حملـتُ البيانو معي، رغم المشقة، وذلك لاعتزازي به كشيء ثمـين. وكذلك كان برفقتي عندما انتهت خـدمتي فـي بورتسـودان، وجئتُ الخُرطوم، وهناك إلى حين استقراري، وضعته أمانـة عند صديقنا "إبراهيم رمضان". ومع مرور الأيام، ثم الشهور والسنين، لم أسأل عنه، نسبة لأن مشاغلي العمليـة وظـروف

الدنيا صرفتني.. ليس عن السؤال عن البيانو، ولكن حتى عن الفن برمته..

اقتنص صديقنا "إبراهيم رمضان" إهمالي السؤال عـن البيانو، فاعتقد أنني لم أعد راغباً فيه، أو كما قال. فباعه بدوره إلى أحمد مرجان (العازف المشهور فـي موسـيقى الجـيش) وعرفتُ ذلك عندما التقيتُ إبراهيم ذات يوم، وسألته عنه، فقال لي ببساطة: **«بعته»**.. فلم أعقب ولم استرسل معه في الأمر.

بعد عدة سنين، حدثت مفارقة غريبة.. زارنا في مدينة الفاشر الفنان إبراهيم عوض، وذلك لإحيـاء حفـل غنـائي. فاحتفينا به. وكرد للجميل، عندما زرتُ الخُرطوم عقب ذلـك، ونحن أساساً أصدقاء، دعاني وبعض الأصدقاء لتناول وجبـة الغداء في منزله، وكان معنا "ود الحاوي" وآخـرون. فجـأة، لاحظتُ البيانو في صالون إبراهيم عوض، وأحسستُ بشـيء يجذبني له.. فبدأت أمسح عليه بيدي كأنـه طفلـي الصـغير المدلل، وأعيد النظر إليه من جميع الاتجاهات.

أيقنتُ تماماً أن هذا البيانو هو ملكي، فسألتُ إبـراهيم عوض عنه، وقلت له: البيانو ده ما غريب علي. ثـم قطعـت الشك باليقين، وقلت لإبراهيم: لو أن هناك قطعة منحوتة وفيها زيت يكون هو البيانو ملكي، وبالفعل وجدها، وقال لي إبراهيم إنه ابتاعه من أحمد مرجان، فقلتُ لهم: وا الدنيا دي ضـيقة فعلاً، البيانو ده حقي، وسردتُ عليهم قصته.



الفاشر مرّة ثانية

في أواخر عام ١٩٥٦، أي بعد الاستقلال، ذهبتُ إلى جوبا في زيارة خاطفة، لم تكُن المدينة غريبة بالنسبة لي، بعد الفترة الطويلة التي قضيتُها فيها، فلم يكُن هناك شيء جديد فيها. فقط، علمتُ أن كومندان جديد اسمه السر محمد أحمد قد تم تعيينه كأول حكمدار بعد الاستقلال.

من جوبا ذهبتُ إلى الفاشر، وكانت الوالدة برفقتي. وفي الفاشر كان الكومندان محمود بخاري قد نُقلَ بعد وصولي بشهرين أو ثلاثة إلى بورتسودان، وحل محله كومندان عبدالقادر حاج الأمين، وهو بدوره لم يعمل طويلاً في الفاشر، فتم نقله بعد ثلاثة شهور. وحينها كانت قد تمت ترقيتي إلى رتبة نائب كومندان. لم تكن الفترة التي تسلمتُ فيها المسئولية في الفاشر للمرة الثانية طويلة، فالأولى كانت أثناء العمل كمحاسب في وزارة المالية، حيث لم تتجاوز العام. لكنها أيضاً كانت غنية بكُل المقاييس، نسبة لعلاقتي وعملي السابق بها. احتضنني عمنا "علي فضيل" - كما كنا نناديه - وعاملني كابنه تماماً، وترك لي حرية العمل في كُل شيء، وكان يشغل مدير المديرية، وهو أول مدير سوداني استلم مهامه من المدير الإنجليزي، في احتفال تسليم وتسلم كبير شهدناه جميعاً.

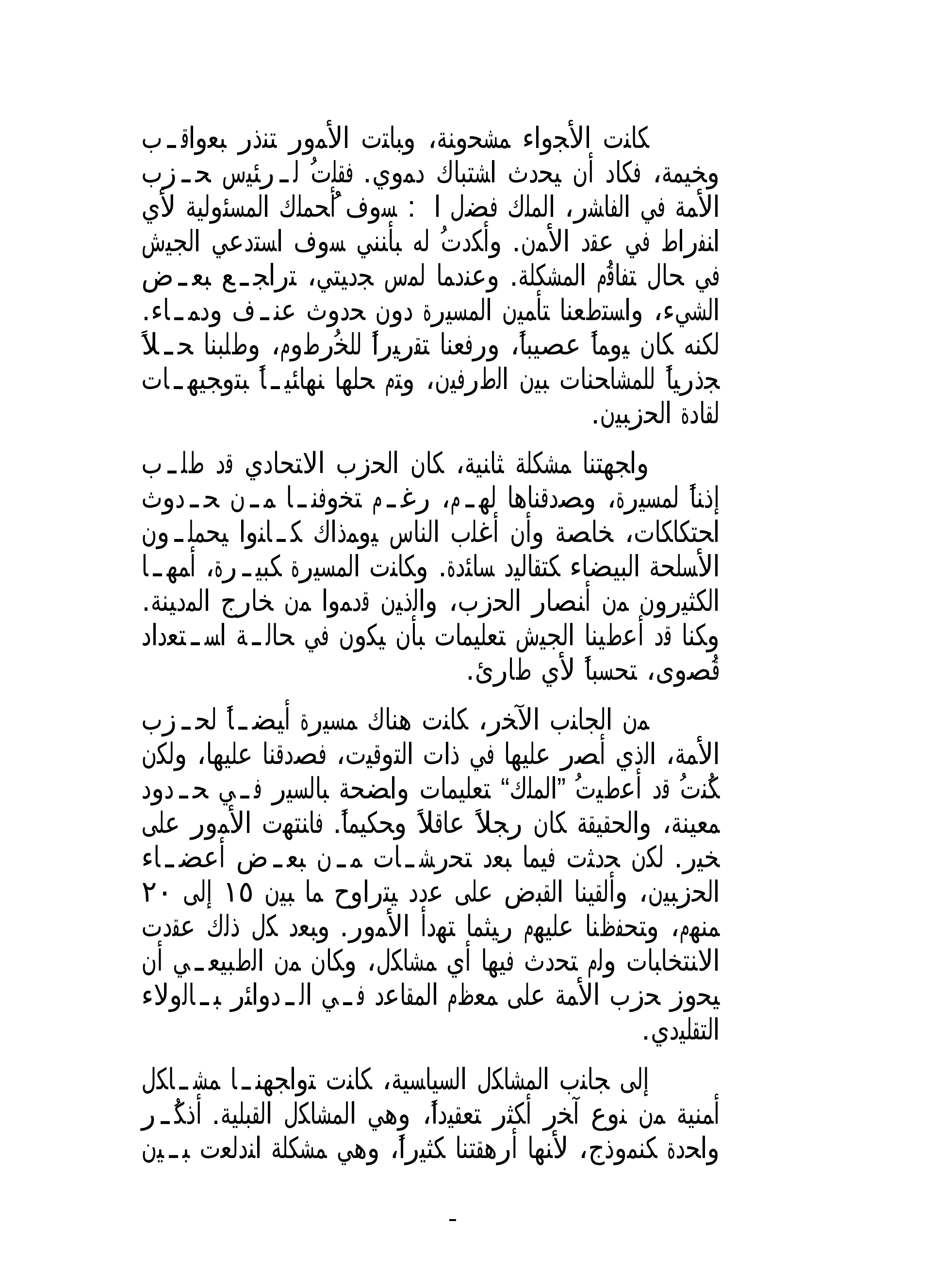
عمنا "علي فضيل" كان إدارياً متميزاً.. كان لديه مخزوناً إدارياً ضخم، كان يؤمن بالعمل الجماعي، لذلك أسس مجلس مديرية من رؤساء المصالح الموجودة، مثل التعليم، الصحة، الأمن.. إلخ. وكان يعقد لهم اجتماعاً شهرياً، يطرح فيه كُلٌ منهم مشاكل إدارته وحلولها. وكان دائماً ما يقوم بزيارات تفتيش مفاجئة، وغالباً ما يصطحب فيها كُل رؤساء

المصالح معه. وكان دائم التفقد لكافة مناطق المديرية، وحـل المشاكل على أرض الواقع. وفي واقع الأمر، كُنتُ قد استفدتُ كثيراً من طريقة عمله وأسلوبه في الإدارة، لدرجة أنني تأثرتُ به وصرتُ أحاكيه تماماً، بحسب قول الكثيرين.

من الناحية السياسية، كانت دارفور عبارة عن تشـكيل هجين من القُوى السياسية، فمثلاً مدينة الفاشر كـان يطغـي عليها وجود الحزب الاتحادي الديمقراطي، أي كانت كـوادره هي الأغلبية، وبقية المدن يغلب عليها وجود كيان الأنصـار، وبالتالي تشكل معقلاً من معاقل حزب الأمة. كانـت الأجـواء السياسية قد ازدهرت بعد الاستقلال.

من الأشياء الطريفة في إطار الحملات التعبويـة فـي أول انتخابات بعد الاستقلال، كان قد قَدم للولاية فـي طـائرة واحدة وفد من حزب الأمة وآخر من الحزب الاتحادي، وطلبوا في وقت واحد قيام ليلة سياسية، وكانت دور الحزبين تقعـان على بعد مسافة قريبة من بعضهما بعضاً. وكان كـل طـرف مصمماً على عقد ندوته أولاً، وبالرغم من توضيحنا لهـم أن ذلك فيه خُطورة على الأمن، وينبغي عليهم الاتفـاق حتـى لا تدخل المدينة في دائرة مشاكل أمنية.

كان رئيس الحزب الاتحادي في المدينة، هـو الطـاهر محمد إبراهيم، ومن القيادات الكبيرة أيضاً علي أحمد حامـد، في حين كان رئيس الأمة هو الملك فضل ا ، ومن القيـادات الكبيرة علي إدريس (شقيق اللواء محمد إدريس) وكانت علاقتنا طيبة مع الطرفين، جمعناهم معاً، وطرحنا عليهم مقترحاً يدعو الطرفان إلى تلبية دعوة غداء في منزل علي أحمد حامد، على أن يتفقوا على إجراء "قرعة" بينهما، ولا نتدخل نحن كطرف حكومي سوى بالمراقبة.. فارتضيا ذاك الحل، وهو ما حـدث فيما بعد.



كانت الأجواء مشحونة، وباتت الأمور تنذر بعواقب وخيمة، فكاد أن يحدث اشتباك دموي. فقلتُ لرئيس حزب الأمة في الفاشر، الملك فضل ا : سوف أُحملك المسئولية لأي انفراط في عقد الأمن. وأكدتُ له بأنني سوف استدعي الجيش في حال تفاقُم المشكلة. وعندما لمس جديتي، تراجع بعض الشيء، واستطعنا تأمين المسيرة دون حدوث عنف ودماء. لكنه كان يوماً عصيباً، ورفعنا تقريراً للخُرطوم، وطلبنا حلاً جذرياً للمشاحنات بين الطرفين، وتم حلها نهائياً بتوجيهات لقادة الحزبين.

واجهتنا مشكلة ثانية، كان الحزب الاتحادي قد طلب إذناً لمسيرة، وصدقناها لهم، رغم تخوفنا من حدوث احتكاكات، خاصة وأن أغلب الناس يومذاك كانوا يحملون الأسلحة البيضاء كتقاليد سائدة. وكانت المسيرة كبيرة، أمها الكثيرون من أنصار الحزب، والذين قدموا من خارج المدينة. وكنا قد أعطينا الجيش تعليمات بأن يكون في حالة استعداد قُصوى، تحسباً لأي طارئ.

من الجانب الآخر، كانت هناك مسيرة أيضاً لحزب الأمة، الذي أصر عليها في ذات التوقيت، فصدقنا عليها، ولكن كُنتُ قد أعطيتُ "الملك" تعليمات واضحة بالسير في حدود معينة، والحقيقة كان رجلاً عاقلاً وحكيماً. فانتهت الأمور على خير. لكن حدثت فيما بعد تحرشات من بعض أعضاء الحزبين، وألقينا القبض على عدد يتراوح ما بين ١٥ إلى ٢٠ منهم، وتحفظنا عليهم ريثما تهدأ الأمور. وبعد كل ذلك عقدت الانتخابات ولم تحدث فيها أي مشاكل، وكان من الطبيعي أن يحوز حزب الأمة على معظم المقاعد في الدوائر بالولاء التقليدي.

إلى جانب المشاكل السياسية، كانت تواجهنا مشاكل أمنية من نوع آخر أكثر تعقيداً، وهي المشاكل القبلية. أذكُر واحدة كنموذج، لأنها أرهقتنا كثيراً، وهي مشكلة اندلعت بين

قبيلتي الزغاوة والميدوب. كانت قد وصلتنا إشارة تفيد بحدوث مذبحة كبيرة، وعند وصولنا على رأس قـوة شـرطية إلـى المنطقة، وجدنا الرواية تقول إن أفراد مـن قبيلـة الميـدوب هجموا على أفراد من قبيلة الزغاوة، وأخذوا منهم عدداً مـن الجمال، وأسفر الاشتباك عن قتل عدد منهم وهرب الجناة عبر الحدود التشادية. كان الموقف متأزماً للغاية والمشـكلة تنـذر بتداعٍ أكبر.

عقدتُ اجتماعاً عاجلاً مع قائد الجيش (القيادة الغربية) الأميرلاي أحمد رضا فريد. ومدنا بقُوات من الجيش، إضـافة لقُوات الشرطة، واتجهنا صوب كُـتُم والطينـة، وهمـا مـن المراكز الرئيسية لزعيم الزغاوة. قُمنـا بتحريـات سـريعة وحصرنا القتلى، فكان العدد أحد عشر، وكان هناك عدد كبير من الجرحى. وعلمنا أن اللصوص أخذوا معهم ما بـين ١٠٠ إلى ١٥٠ جمل. وعلمنا كذلك أن المهاجمين اسـتخدموا فـي الاشتباك، الأسلحة البيضاء بكافة أنواعها، من سيوف وسكاكين وخناجر وحراب. ووجدنا حتى حرس زعيم القبيلـة أصـيبوا بطعنات في مناطق مختلفـة مـن أجسـامهم. واسـتغربنا أن الطعنات غائرة في أجسادهم، ولكن لا توجد نقطة دم واحـدة، فقالوا لنا أنهم "محجبين" ولذلك السكين لا تُؤثر فيهم. والحقيقة، ذُهلنا لهذه الظاهرة، التي نراها لأول مرة. وكانـت مصـدر دهشتنا وما كنا لنُصدقها لو أنها حكيت لنا ولم نُشاهدها بعيوننا.

بعد أن أجرينا اللازم قال لنا زعيم القبيلة، أتركوا لـي موضوع الجِمال التي نهبت وأنا كفيل بحلها. ذلك أن له شقيقاً في تشاد سوف يطلب عونه وسوف يتقصى الشـقيق الجنـاة، ووفقاً للعلاقات القبلية المتداخلة بين تشاد والسـودان، سـوف تُحل القضية. وبالفعل صدقَ الرجل، فبعد نحو سـتة أشـهر تقريباً رجعت الجمال المسروقة، ومعها المتهمون كذلك.



حدثت مشكلة ثانية بين الرزيقـات والـدينكا. قبيلـة الرزيقات زعيمها إبراهيم موسى مادبو، والدينكا دينق ماجوك. والقبيلتان متشاطئتان حول بحر العـرب، كمـا أن القبيلتـين متداخلتان في حياتهما الاجتماعية، لدرجة تحـدث أفرادهمـا باللغتين العربية والدينكاوية. كان مدير مديرية بحر الغزال قد وصل لمكان الحدث أيضاً، وعقدنا جلسة عمل كبيرة شـملت المتهمين والشهود من الجانبين، وبدأنا تقصياً وتحرياً واسـعاً لأكبر عدد من الناس، غير أن الحل جاء بسهولة لم نتوقعهـا، حيث أقرت تعويضات عينية من الأبقار ومادية كذلك. وفـي الواقع، سهولة الحل لعب فيه زعماء القبيلتين دوراً كبيراً تجلت فيها حكمتهما التي عرفوا بها.

بعد نجاح انقلاب نوفمبر ١٩٥٨، كما سردتُ تفاصيله من قبل، حدث لي حرج شديد مع المدير "علـي أبـو سـن"، باعتبار أنني لم أخبره. وكُنتُ أشعر بأنه أخذ في خاطره مني، فاقتنصتُ فرصة ذات يوم وحكيتُ له مبرراً الأمر، بأنني أنفذُ تعليمات، وشعرتُ أنه لم يقتنع، ولم يرتح تماماً إلا عندما قـال له اللواء رضا فريد إنه منعني من البوح بالسر لكُل الإداريين. وكما هو معروف، فقد أصبحت كُل السلطات في يـد الحـاكم العسكري اللواء رضا فريد.

بعد فترة قصيرة، تم إحالة علي أبو سن للمعاش، وجاء بعده أحمد مكي عبده. كانت شخصيته تختلـف تمامـاً عـن شخصية سلفه أبو سن. من جانبي، وجدتُ صعوبة بالغة فـي التعامل معه. كان قد جاء بأفكار غريبة بعض الشـيء، وقـام بتغيير كل رؤساء الأقسام، وآخرين ممن كان يعمل معهم أبـو سن. في تلك الفترة، شعرتُ بأنني قضيتُ فترة كافية، فكانـت فرصة لأتخلص من الوضع الجديد. كتبتُ خطاباً سرياً للمدير عباس فضل، وشرحتُ له الأوضاع، وذكرتُ لـه أن المنـاخ العام لا يشجعني على الاستمرار في دارفور، خاصة وأننـي

قضيتُ خمسة سنوات. وطلبتُ منه أن ينقلني إلى أي مديرية أخرى.

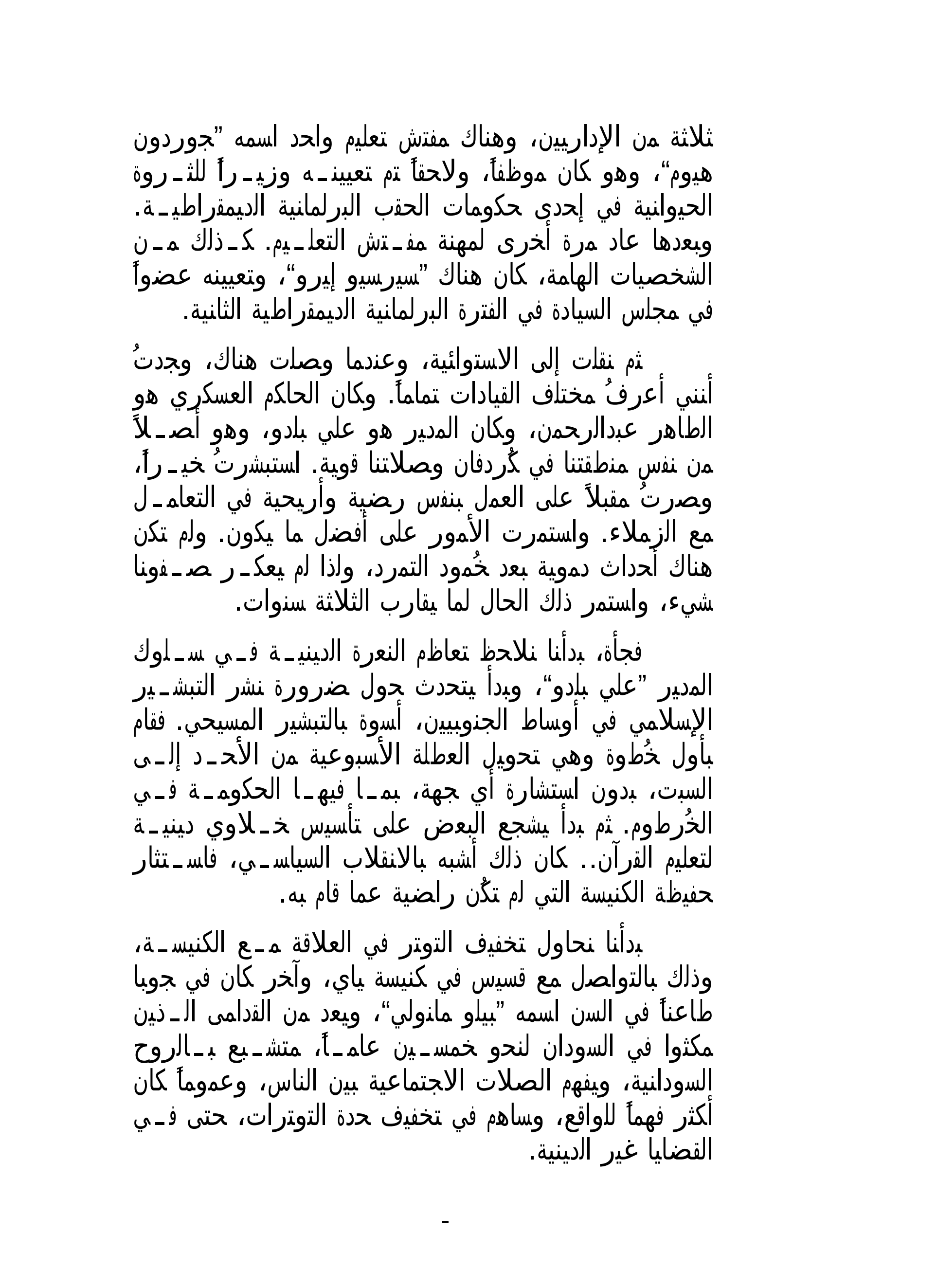
بعد عشر أيام جاءتني الموافقة، وحل محلي قبل أن أغادر دفعتي النور حامد، وقمت بإجراءات التسليم والتسلام المعهودة. ثم تفقدنا كل المراكز معاً، وكان ذلك في أواخر العام ١٩٥٩ وبعد ذلك كان قدري الاتجاه جنوباً.

جوبا ١٩٥٩ـ ١٩٦٤

تتمتع مدينة جوبا بجمال طبيعي أخاذ وساحر. فهي تقع مباشرة على بحر الجبل، القادم من بحيرة فيكتوريا في أوغندا، وأهم معالم المدينة الطبيعية هو "جبل الرجاف"، الذي يبعد نحو عشر كيلومترات منها. وهو جبلٌ بركاني، ويمكن للزائر أن يرى الحجارة الضخمة الناتجة من البركان على أطراف مدينة جوبا. أذكُر أنه حدثت ذات مرة هزة أرضية عنيفة، ولكن لم يكن ثمة خسائر تُذكر، ورغم ذلك جاء خُبراء من الخُرطوم لمعرفة ما حدث، وعلمنا منهم أن زلزالاً واحداً حدث في الجبل قبل مائتي عام أو أكثر. وفي مدينة جوبا، كانت هناك منشآت جميلة، مثل فندق جوبا، الذي يتبع للسكة حديد آنذاك، وهناك أيضاً نادي الأجانب، وكانت المنازل مبنية بشكلٍ هندسي مميز.

إلى جانب الإنجليز، كان هناك عدد آخر من الأجانب.. كاليونانيون والهنود، ويعملون في التجارة.. أذكر منهم واحد اسمه "كوسينا مارس"، جاء إلى جوبا في بداية حقبة الثلاثينيات، تقريباً نحو عام ١٩٣٢، ولم يغادر الجنوب مطلقاً. قال لي إنه زار اليونان مرة واحدة لكي يرى بقية الأسرة. وأضاف أنه أثناء تلك الزيارة حدث زلزال فحمل حقيبته وعاد للجنوب ولم يغادره مطلقاً.

لم يكن عدد الجنوبيين الذين يتقلدون مناصب وظيفية قيادية كبيراً. كان معظمهم ضباطاً في البوليس، ونحو اثنين أو



ثلاثة من الإداريين، وهناك مفتش تعليم واحد اسمه "جوردون هيوم"، وهو كان موظفاً، ولاحقاً تم تعيينـه وزيـراً للثـروة الحيوانية في إحدى حكومات الحقب البرلمانية الديمقراطيـة. وبعدها عاد مرة أخرى لمهنة مفـتش التعلـيم. كـذلك مـن الشخصيات الهامة، كان هناك "سيرسيو إيرو"، وتعيينه عضواً في مجلس السيادة في الفترة البرلمانية الديمقراطية الثانية.

ثم نقلت إلى الاستوائية، وعندما وصلت هناك، وجدتُ أنني أعرفُ مختلف القيادات تماماً. وكان الحاكم العسكري هو الطاهر عبدالرحمن، وكان المدير هو علي بلدو، وهو أصـلاً من نفس منطقتنا في كُردفان وصلاتنا قوية. استبشرتُ خيـراً، وصرتُ مقبلاً على العمل بنفس رضية وأريحية في التعامـل مع الزملاء. واستمرت الأمور على أفضل ما يكون. ولم تكن هناك أحداث دموية بعد خُمود التمرد، ولذا لم يعكـر صـفونا شيء، واستمر ذلك الحال لما يقارب الثلاثة سنوات.

فجأة، بدأنا نلاحظ تعاظم النعرة الدينيـة فـي سـلوك المدير "علي بلدو"، وبدأ يتحدث حول ضرورة نشر التبشـير الإسلامي في أوساط الجنوبيين، أسوة بالتبشير المسيحي. فقام بأول خُطوة وهي تحويل العطلة الأسبوعية من الأحـد إلـى السبت، بدون استشارة أي جهة، بمـا فيهـا الحكومـة فـي الخُرطوم. ثم بدأ يشجع البعض على تأسيس خـلاوي دينيـة لتعليم القرآن.. كان ذلك أشبه بالانقلاب السياسـي، فاسـتثار حفيظة الكنيسة التي لم تكُن راضية عما قام به.

بدأنا نحاول تخفيف التوتر في العلاقة مـع الكنيسـة، وذلك بالتواصل مع قسيس في كنيسة ياي، وآخر كان في جوبا طاعناً في السن اسمه "بيلو مانولي"، ويعد من القدامى الـذين مكثوا في السودان لنحو خمسـين عامـاً، متشـبع بـالروح السودانية، ويفهم الصلات الاجتماعية بين الناس، وعموماً كان أكثر فهماً للواقع، وساهم في تخفيف حدة التوترات، حتى فـي القضايا غير الدينية.

أذكر مثلاً، كان هناك أحد أتباع الكنيسة في جوبا اسمه فـاهر استيرليهو، تحرش ببنت جنوبية في الكنيسة وقام باغتصـابها. واتضح أن لها شقيق ضابط يعمل معنا في الشُرطة. فانـدلعت مشكلة كبيرة وتفاقمت، لأن البنت كانـت تطالـب بمحاكمـة. حاولنا أن نستخدم علاقتنا الطيبة مع القساوسة الذين نعـرفهم، فهرب الجاني ودخل الغابة.

أثناء ذلك، جاءتنا أخبار تؤكد سقوط نقطة بوليس مركز ياي في أيدي المتمردين، الذين عبـروا الحـدود الأوغنديـة فاحتلوا المركز، وعلمنا أنهم قبضوا على استيرليهو الهـارب. لكن حدث سقوط المركز في حد ذاته كـان قـد فـتح البـاب للهروب الكبير نحو الغابة. وبذا دخلنا في مشكلة أعمق. بدأت الأمور تأخذ منحى الفلتان والعشوائية. مثلاً أذكر في مركـز كبويتا، وهو يحاذي الحدود مع كينيا، كان هناك مفتش شمالي يدير شئون المركز، ويساعده جنوبي اسمه وليم دينق (تشـابه في الأسماء)، والذي أصبح المسئول عن المركز أثناء عطلـة المفتش الشمالي. كنا نثق في دينق ثقة عمياء، لأنه في الأساس كان معنا في زالنجي في وظيفة نائب مأمور، وهو من قبيلـة الدينكا. بل من فرط ثقتي فيه، كان عندما يحضـر للفاشـر، استضيفه معي في المنزل عوضاً عن الاستراحة.

جاءني ذات يوم في المكتب، وسألني عن أشياء قال إن الشرطة في المركز تحتاجها. وطلب مني أن أجهزها له، لأنه سوف يغادر في اليوم التالي إلى كبويتـا. وبالفعـل أعطيـتُ تعليمات للمخازن بأن يجهزوا له المطلوب، وحملها وودعنـي وغادر.. المفارقة التي آلمتنا، جاءتنا بعد خمسة أيام في إشارة تسلمناها، وتشير إلى أن المفتش دينق هرب. وكان ذلك يعـد أول تمرد وهروب نحو الغابة من جانبنا، أي الشرطة.

قصص إنسانيَّة

للوالد ذكريات في الجنـوب لا تقـل حميميـة عـن ذكرياتي، وكنتُ قد ذكرتُ إنه كان مأمور شرطة وقد حـذوتُ

خطاه، وأنه عمل في الجنوب لفترة طويلة وفي مناطق متعددة. فقد حدثني عن أنه عمل في مناطق شامبي، يرول ومريـدي. كذلك سبق له العمل في منطقة بحر الغزال في كنديرـ راجـا وواو. ذكرتُ ذلك لأنني كنتُ ذات مرة ذاهباً إلى جوبـا بعـد قضاء إجازة قصيرة مع الأسرة في الأبيض، فقال لي الوالـد، عندما تذهب إلى الاستوائية (سميت في الثلاثينيات باسم مديرية منقلا)، أريدك أن تسأل عن بعض الناس، منهم تاجر، وأصبح رجل شرطة لاحقاً، واسمه "عترة". وقال لي بعد السلام عليه، إذا كان محتاج لأي شيء، ساعده من دون تردد. وأوضح لي الوالد مدى عمق العلاقة بينهما.

عندما وصلتُ وسألتُ عنه، لم أجده في البداية، وقالوا لي إنه موجود في مكان ما، فوجدتُ أحد الأشـخاص دلنـي عليه، وكان برفقتي ضابط البوليس العامل في المركز الـذي جمعنا معاً. وعندما قابلتُه، سألته مباشرة ما إذا كـان يعـرف شخص اسمه زين العابدين كوكو؟ فوجم لفترة كمن حط على رأسه الطير، واستغربتُ، ولكن أدركتُ إنه ارتعب لأن برفقتي رجل شرطة. فقال لي: نعم، أعرفه من سـنين طويلـة، ولا أدري أين هو الآن.. فقلت له: إنه حي يرزق، وأنا ابنه.

تحولت مشاعر الرجل وبدلاً عن الاستغراب الذي كان يطغي على ملامحه، بدأ يتداعى كأنه يهذي من فرط المفاجأة. فوقف منتصباً بعد أن كان جالساً، وبدأ يسلم علي بالأحضـان، ثم بدأ يحكي دون توقف عن ذكرياته مع الوالد، وقال لي إنـه مأمورنا ومبني البوليس الذي أنت فيه الآن كان منزلـه. ثـم أكرمنا، والمنطقة مشهورة بأفضل عسل نحل، وهي تقع فـي مفترق واحد يقودك إلى مريدي، والآخر ناحية رومبيك وواو.

بعد ذلك ذهبتُ إلى أنزارا، وفيها وجدتُ أحد العـاملين مع والدي كان يعمل معه "مراسلة" وأصبح فيما بعد عسكري في الجيش، وأخبرني فيما يشبه التظلم على أنه ظل بـدون أي شريط "رتبة" منذ انضمامه للجيش. فاستعجبتُ، وطلبتُ ملفـه

الشخصي، ولم أجد فيه أي مشكلة، وسألتُه عن سبب عدم ترقيته طيلة هذه الفترة؟ فقال إنه لا يعرف السبب.. فقلت له: بتعرف زين العابدين كوكو، فقال لي: نعم، طبعاً.. فقلت له: أنا ابنه، وهو بقرؤك السلام.. ففغر الرجل فاه وطفرت دمعة من عينيه، وتأثرتُ، فطلبت أن يمنحوه "شريط" ترقية من باب الوفاء.. خرج الرجل، وظل يركض ويصيح بأعلى صوته، ممجداً سيرة الوالد.

كذلك وجدتُ في أنزارا الشخص الذي أنقذ شقيقي حسن زين العابدين أثناء حوادث التمرد، وتلك قصة سبق وحكاها لي حسن.. بحثتُ عن الرجل إلى أن وجدته، وكان ما يزال يعمل في مصنع النسيج حيث كان يعمل حسن كذلك (بدأ المصنع في الأربعينات، ولم يتوقف حتى أثناء حوادث التمرد)، وأُحضر لي في المكتب، ولأنني كُنتُ أميلُ لعنصر المفاجأة، ولا أخبر الشخص المعني بمبتغاي من البداية، لذلك دائماً ما تكون الصور ميلودرامية بالغة التأثر بالمشاعر الإنسانية.

بدأ الرجل من هول الموقف مرتبك جداً وغير متماسك ولا يستطيع أن يتمالك نفسه عند الوقوف، مرة يقف وأخرى يجلس في الأرض، وكان يظن أنه فعل شيئاً نكراً. وبعد أن طمأنته وذكرته بشقيقي حسن زين العابدين، وأخبرتُه أنه موجود.. هنا لم يتمالك الرجل نفسه، فانخرط في بكاء شديد، وأعقبه بهستيريا عفوية، تعبيراً عن المشاعر المضطربة التي كانت تمور في دواخله.

هذا يقودني إلى الإشارة إلى نقطة هامة تقف من وراء الكواليس ولم يتطرق لها أحد بتسليط الضوء عليها، أو تحليلها أو معالجتها حتى.. هذه النقطة، هي الجانب النفسي في الحرب، نحن دائماً ما نتحدث عن الجوانب العسكرية والسياسية، ولكننا نغفل الجانب الاجتماعي، وفي هذا الجانب تحديداً، أذكر العامل النفسي. وأضرب لذلك مثلاً بالخوف

والهلع الذي كان يصيب الجنوبيون من الزي العسكري، سواء كان شرطة أو قوات مسلحة، وهو موضوع طويل أتمنـى أن يهتم به الباحثون. وفي هذه العجالة، وددتُ لفت النظـر إلـى الصورة التي تسبقني عند لقاء أي ممن سألت عـنهم، والتـي يسيطر عليها الرعب والخوف. وفي تقديري، أن مبعث هـذه المشاعر كان يعود إلى الزي الذي يعتبر مخيفاً حد الهلع فـي نفوس الجنوبيين.

كذلك وجدتُ شخصاً آخر، وهو مـن إحـدى الـدول الأفريقية المجاورة، ربما أوغندا أو كينيا، والحقيقة لا تستطيع أن تفرز التداخل القبلي ما لم يقُل لك الشخص المعني مـن أي قبيلة أو منطقة ينحدر، كما أن كثيراً من المواطنين في البلدان المتاخمة لجنوب السودان، كانوا يتحركون بلا أوراق رسمية، ولا يستطيع المرء أن يطلب ذلك، لأنهم ببساطة لا يعرفونهـا، ولا يدرون من أجل ماذا تلك الأوراق؟! فهم يظنون أن المرء حر في التحرك حيثما شاء طلباً للعيش.

عموماً، بهذا المنظور وجدتُ في زيارتي تلـك أحـد الذين كانوا يعملون معي في تلودي واسمه "مانولي اندريوتي" وكُنتُ أحبه جداً لإخلاصه ووفائه. فرح فرحاً طفوليـاً بالغـاً حينما التقيته. وبعد السلام الحميم، سألته عن أحواله وعما يفعل الآن؟ فقال لي اختصاراً، إنه يحلم بعجلة "دراجة" فمنحتها له، ولك أن تتأمل هذه البساطة في الدنيا. أما هو، فقد كاد أن يطير من الفرح حينما حملته هدايا صغيرة لأسرته. لا أظن أن هـذا الرجل نام ليلته تلك. وتلك لمساتٌ إنسانية مهمة للغايـة. فمـا أتعس الحروب وضآلة مطالب المعذبين في الأرض.

كذلك من المصادفات الجميلة، وامتداداً لما ذكرتُ فـي شأن العلاقات الإنسانية، وجدتُ اثنين من الناس الذين عملـوا مع والدي في جوبا، واحد اسمه "كومينجي"، وهو أحد الـذين قدموا لي مساعدات كبيرة أثناء التمرد، عندما كنتُ في جوبا،

وكان يمدني بالأخبار المفيدة. والآخر ضابط كان قد طعن في السن، واسمه "ونجوا"، هللوا لمجيئي. ولن أنسى العشرة التي جمعتنا معاً، فأبديتُ اهتماماً مميزاً بهم واصطفيتهم بقربي.

سجن ناكشوط

عندما وصلتُ المركز في جوبا وجدتُ السـر محمـد أحمد، ولم يكن وحده، فثمة مشكلتان كانتـا فـي انتظـاري: الأولى، كانت خاصة بأحمد بقادي، الذي كـان معـتقلاً فـي ناكشوط، وكنتُ قد ذكرتُ مسألة اعتقاله الأول عندما كُنتُ في الأبيض، وأشرت إلى صلة القربى بيننا، وكُنتُ قـد أرسـلته للخُرطوم، فحكموا عليه بالسجن لمدة عامين وأطلق سراحه مع بعض المعتقلين. لكنه أعاد الكـرة واعتقـل ثانيـة وأُرسـل لناكشوط. لكنها لم تكن مشكلة عميقة بعد حين.. إذ بعد عـدة أيام من وصولي، جاءت إشارة من الخرطوم تقضي بترحيلـه مرة أخرى، فأرسلناه في الطائرة المغادرة للخرطوم.

المشكلة الثانية، وجدتُ عدداً من قضايا الاختلاسـات، وفيها متهمون بينهم أحمد الزين شداد وأحمد مكي فضـل ا ، وهما من أهالي كُردفان، ومن أصـدقائي، والأخيـر تربطنـا علاقة الجيرة في الأبيض، فكان موقفاً حساساً بالنسـبة لـي، لكنني دائماً ما أغلب الجانب الرسمي مهما كانت عواقبه، كما ذكرت. كانت قضيتهم حاضرة للمحاكمة. وتمت تبرئة أحمـد مكي فضل ا ، وإدانة أحمد الزين شداد، الـذي حكـم عليـه بالسجن لعدة سنوات.

كذلك وجدتُ في المعتقل في مدينة جوبا عدداً كبيراً من القادة السياسيين، منهم السادة إسماعيل الأزهري وعبدا خليل وعبدالخالق محجوب. وعندما ذهبتُ لهم للسلام والتحية، كان معي الطاهر والسر محمد أحمد، فاستعجب هؤُلاء عندما رأوا علاقتنا وأننا على معرفة سابقة.. قضى هؤلاء السياسيين فـي

المعتقل نحو شهرين، وكنتُ أتردد عليهم دائماً خلال الأسبوع، أتجاذب معهم أطراف الحديث وأنقُل رسائلهم لأسرهم.

كان عبدالخالق محجوب يميل لروح الفكاهة والدعابة. أذكُر ذات يوم، قال لبقية المعتقلين: يا شوفوا الدنيا دي كيف، يجي عثمان زين ويكون الحارس بتاعنا!! فقال لـه أحـدهم: لماذا؟ فقال: تصوروا عثمان ده هو الزول العمل محاضـرة عن مستقبل الشيوعية في السودان، في المؤتمر الثاني الأدبـي في الأبيض، وكانت محاضرة "مدنكلة" (أي "معتبرة" بحسـب تعبيره)، فكيف زول يعمل محاضرة زي دي ويجي يكون هو الحارسنا أسه والمسئول مننا في السجن؟!

عندئذ أكد محمد أحمد المحجوب علـى وقـائع تلـك المحاضرة، بمثل ما سردتُ من قبل، وأثنى عليها بشكلٍ أخجل تواضعي، وقال إنه كان من حاضريها باعتباره كـان قاضـي المديرية في الأبيض آنذاك، وأضاف أنها تعرضت لسنسرة ولم يدعوني أعرضها كلها. وقال إن المفتش العام سلمها له، بمثل ما ذكرت من قبل، (كانت المحاضرة في العـام ١٩٤٥ فـي مدينة الأبيض في المؤتمر الثاني للخريجين)..

لم تكن مسألة السجن والسجان، أو حكومة ومعارضـة تشغل حيزاً في تفكيرنا جميعاً، فكنتُ كلما أغشـاهم نسـتأنس بالحكي معاً، وكانت تلك من أمتع وأجمل اللحظات بالنسبة لي، حيث قضيتُ وقتاً لطيفاً مع السياسيين وتوطدت صلتي معهـم، وبعضها كان لها انعكاسات في مقتبل حياتي، عندما تم نقلـي للرئاسة في الخُرطوم، وعادوا هم للسلطة. وتلك تحكي سـيرة أهل السودان بما يمكن أن يستعصي فهمه لغير السودانيين.

في جوبا أيضاً، كنتُ قد التقيتُ اثنين من الكبـار سـناً ومقاماً. كانوا على معرفة عميقة بوالدي. وهما عكاشة محمـد عكاشة وعمر أحمد عمر. وقد جاءوا إلى الجنوب فـي حقبـة

العشرينيات، وعملوا كخدم ثم طباخين مع الإنجليز، وعندما غادر الإنجليز، أصبحوا تُجاراً وأصحاب أملاك تركوها لهم. وعكاشة له ابن اسمه "أمين"، وعلمتُ أنه عاد للاستثمار في الجنوب بعد الانفصال.

عكاشة كانت له ذاكرة خُرافية، رغم أنه أمي، ويعلم الكثير عن الجنوب، وحكا لي عن البدايات في ظل الاستعمار والحكم الوطني. وقال لي أنهم كمسلمين نجحوا في بناء مسجد، لأن الصلاة كانت ممنوعة في الشارع العام.

أيضاً من الأشياء المهمة لي في العلاقات الشخصية في جوبا، تذكري الشاب الذي دخل الغابة وجاء راجع بالخطة كلها، وعندما عدتُ منقولاً، قال لي: سعادتك أنا بمشي معاك طوالي لأنه اتعرفَتَ (أي أصبحتُ معروفاً) فوافقتُ ومنحته ترقية استثنائية لضابط بوليس. وهناك آخر عمل معي تحت الأرض Underground اسمه علي، أيضاً أوصيت به وأصبح ضابط بوليس.

عبود وعبدالناصر

من المواقف المهمة أيضاً، التي حدثت أثناء زيارة الرئيس جمال عبدالناصر في العام ١٩٦٣ إلى جوبا، وبرفقته الفريق إبراهيم عبود، كنا قد أعددنا لهم استراحة بالقُرب من المطار للدواعي الأمنية، وتحديداً بالقرب من الناشيونال بارك (حديقة الحيوانات) التي كانت تعج بكُل أنواع الحيوانات، الأليفة منها والمفترسة، حيث قضى الوفد ليلتين. وكانت لدينا أخبار تشير إلى أن إسرائيل سترسل "كوماندوز" لاغتيال عبدالناصر، ولهذا كله لابد من إعداد حراسة مشددة. وكان عبدالناصر قد وصل بصحبة طائرتين.

مضى البرنامج بهدوء ولكننا كنا أكثر قلقاً، فهذا امتحان عصيب لنا وللدولة. زار الرئيسان شلالات الفولة، وأذكُر من الأشياء التي لفتت انتباهنا، اهتمام الرئيس عبدالناصر بمنابع

نهر النيل، وكُنتُ أسمعه يتحدث بصـورة لافتـة عـن هـذا الموضوع، وقال للرئيس عبود وأنا استرق السمع: **«لا بد من استغلال الشلالات في تلك المناطق من أجل توليـد كهربـاء يستفيد منها السودان ومصر»**.

ثم قال للرئيس عبود إنه يرغب في زيارة قناة جونقلي، فأوضحنا للرئيس صعوبة تنفيذ تلك الرغبة، لأنها توجـد فـي أعالي النيل، وهي بعيدة نسبياً. وقُبيل أن يغادر الرئيس جمال ووفده، منحنا الطاهر وأنا نيشان النيل من الدرجة الثانية. كان الرئيس عبود أكثر سعادة منا، تحدث إلينـا معـاً وقـال لنـا بالحرف الواحد: **«رفعتوا رأسي يا أولادي»**.

استقللنا معهم الطائرة وذهبنا إلى ملكال. كان البرنامج مكثفاً مما ألقى على عاتقنا مسئولية أكبر. اضطررنا للبقاء في ملكال، والعودة في اليوم التالي.. توقفت الطائرة مرة أخـرى في جوبا لمدة ساعة، وعندما غادرتُ استسلمتُ لنوم عميق في المطار نفسه، قبل أن أذهب لمنزلي، ولم أشعر بإرهاق نفسـي وبدني مثل الذي شعرت به آنذاك، فلم نكُن قد ذُقنا طعم النـوم لأكثر من ثلاث ليال.

لم تكن تلك الزيارة فحسب، فأذكر زيارة أخرى للرئيس عبود. بلغتُ بها وأنا في توريت لقضاء مأمورية، وتوريت تقـع على حدودنا مع أوغندا، وقبلها كنت في كبويتا التي تقـع علـى حدودنا مع كينيا. وفي ذاك الوقت، كان خط السكة حديـد إلـى مدينة واو قد اكتمل، ولسوف يحضر الرئيس عبـود لافتتاحـه، وعلمتُ أيضاً أن الزيارة ستشمل الاستوائية مركز طمبرة، وهي في الحدود بين الاستوائية وبحر الغزال وهي بعيدة جداً.

علمنا أيضاً أن سبب إصرار الرئيس عبود لزيارتهـا يعود إلى ما ظللنا نسمعه من أن المنطقة تحتوي علـى ثـروة معدنية كبيرة، والرئيس كان يبدو مهتماً بذلك. لم تفلح جهودنا في إقناعه، فأصر على الذهاب وقضينا يومين في عناء وتعب

شديدين، وبعد انتهاء الزيارة أصبتُ ببواسير جـراء الرحلـة وطولها، فرجعتُ إلى جوبا.

هروب البلجيك من الكنغو

أتذكر أحداث الكونغو عندما حدث تمرد فيهـا، جاءتنـا إشارة من مفتش مدينة ياي تفيد بأن عدداً كبيراً من البلجيكيـين هربوا من الكنغو، ومعهم أسرهم من النساء والأطفال، وهم فـي طريقهم إلينا في جوبا. وكان القتال على أشده والموت بالآلاف. عندما وصلوا، فوجئنا بأن عددهم في حدود الألفين، ومعهم ٦٥٠ عربية. قُمنا بخطة عاجلة، فرغنا فيها فنـدق جوبـا، وبعضـهم اخترنا لهم استراحات، وأخلينا بعض المدارس والثكنات.

كانت مشكلتنا في الإعاشة فطلبنا مدداً من الخرطـوم، وجاءت طائرة تحمل بعض المواد العينية، وجاء فـي نفـس الطائرة عدد من الطباخين. ولم يكن عددهم كبيراً، لذلك طلبنا منهم أن يعملوا على مدى الأربعة وعشرين سـاعة. وكانـت مسألة مرهقة لنا جميعاً، وحضر السفير البلجيكـي وبرفقتـه موظفين من السفارة لتفقد أحوال مواطنيهم الهاربين من جحيم الموت. واتفقوا على سرعة ترحيلهم، فجاءت طائرات لـتقلهم إلى بلجيكا. غير أنهم تركوا السيارات في عهدتنا. والحقيقة لم يسألوا عنها بعد ذلك، إلى أن جاءتنا تعليمات مـن الخرطـوم بعرضها في دلالة – مزاد عام – وقد كان.

قصة حجّـار

جاءت برقية من الرئاسة إلى المديرية بالقبض عليـه وإرساله مخفوراً إلى الخُرطوم. كنتُ آنذاك في مأمورية فـي شرق الاستوائية. وكان نائبي حكمدار اسمه سليمان، فقام بتنفيذ الأوامر، وألقى القبض على حجار ووضعه في الحراسة.

على الرغم من الحرب والتمرد، وبالرغم من هشاشـة الحالة الأمنية وعدم الاستقرار، إلا أنه كانت هنـاك تجـارب استثمارية ناجحة في الجنوب، أذكُر منها على سبيل المثـال،

مزارع البن والشاي والتوباكو لصاحبها جورج حجار، وهـو رجلٌ من أصول شامية (سوري)، ولكنه منح الجنسية السودانية بالتجنس، وله مساهماتٌ كبيرة في الاستثمار، وكـان يمتـاز بخلق فريد ويكن محبة شديدة للسودان والسودانيين. كما كـان يتمتع بعلاقات اجتماعية واسعة، ولذلك ظل صامداً ومثـابراً، رغم تقلب الأحوال واختلاف أنظمة الحكم السياسية.

كان حجار – بحسب ما حكا لي – قد جاء للسودان قبل الحرب العالمية الأولى، أي قبل العام ١٩١٤، وجاء مباشـرة للجنوب، وبدأ مصنعه في بداية الأربعينات بتمويله الخاص.

زار جوبا أحد أقرباء اللواء حسن بشير نصر، وكـان يريد الدخول في عمل تجاري مع حجار، وشاءت الظروف أن تفشل الشراكة واختلف مع حجار، فأراد الرجل استغلال قرابته المذكورة، وابتزاز حجار، إلا أن الأخير رفـض الخضـوع للابتزاز رفضاً باتاً. وعندما باءت محاولات الرجل بالفشـل، عاد للخرطوم ورماه بتهم ثقيلة، قال فيها إنه يهرب التوبـاكو والبن لأوغندا وكينيا، وهي اتهامات خطيرة. وطبقـاً لـذلك، أرسلت الخُرطوم لنا تعليمات بالقبض على حجار، ووضعه في الحراسة لحين تسفيره إلى الخُرطوم. ولسوء حظه أنني كُنـتُ في مهمة في أوغندا، وبيني وبينه علاقة طيبة ووطيدة. فما أن بلغ بالقرار، أخذوه مباشرة للمعتقل بصورة مهينة، حيث قضى عدة أيام كاد أن يفقد فيها صوابه.

عند وصولي من كمبالا، أبلغني الحكمـدار بالقضـية وسرد علي تلخيصاً لما حدث. فذهبتُ من المطار إلى المركز مباشرة، فوجدته منهاراً وفي وضع نفسي سيء للغاية. وما أن رآني حتى تهللت أساريره. فسألتُه عما جرى، فنفى لي تمامـاً أن تكون لديه أدنى فكرة، ولم يكُن يعلم حتى بمن يقف خلـف القرار. ولكن عندما أخبرني بقصة قريب اللواء حسن بشـير، أدركتُ أنه بلاغ كيدي. ثم غادرتُه بعد أن طمأنته بأن لا يهتم لهذا الأمر ووعدته بمعالجته فوراً.

كانت لحجار علاقة جيدة أيضاً مع الطاهر، والذي كان بدوره في مهمة في بحر الغزال. وكان قد عاد في نفس اليوم، فاتجهتُ له وأخبرته بما حدث. وقلتُ له بغض النظـر عـن علاقتنا مع حجار. وبغض النظر عن قناعتي بأن هذا الاتهـام محض فرية لا أساس له من الصحة. فهذا الرجل شخصية لها وزنها الاجتماعي والاقتصادي، وعيب علينا أن نضـعه فـي المعتقل، ونحن نعلم أنه لا يمكن أن يفكر في الهروب.

اقترحتُ على الطاهر أن نُطلـق سـراحه بضـمانته الشخصية، ونتركه يذهب لمنزله، ومن ثم نحل القضـية مـع الخُرطوم. بعد موافقة الطاهر، ذهبتُ وأخذتُه معي بسـيارتي إلى منزله. ووجدنا زوجته واسمها "سوني"، لا تقـل تـوتراً وانزعاجاً، وأذكُر أنه من فرحتها لم تستطع أن تتمالك نفسـها من البكاء المرير، وكانت تقول بصوت متهدج: «كيف يحصل لينا ما حصل؟»، إذ لم تكُن تُصدق!

ذهبتُ إلى المكتب، وكتبتُ تقريراً سـريعاً وأرسـلته للخُرطوم، وطلبتُ منهم أن يرسلوا لنا على جناح السرعة، أي معلومات أو أدلة مادية تؤكد ما زعموه وألصقوه بالرجل لكي نباشر معه التحقيقات. وكما توقعنا، لم يكن لدى الخُرطـوم أي شيء من الأدلة أو البراهين، وعندما طال انتظارنـا، رفعـت القضية برمتها إلى مولانا صالح عتيق قاضي المديرية، ولـم تأخذ جهداً يذكر منه، فانتهت لعدم توفر الأدلة الكافيـة.. أمـا حجار فقد قدر الموقف الذي وقفته تقديراً كبيراً، ولكن للأسف كانت تلك القضية سبباً في مغادرته الجنوب إلى الشمال.

الخرطوم وضحاها

عندما نُقلتُ إلى الخُرطوم وذهبتُ للرئاسة، وجدتُ أن تغييرات كثيرة قد حدثت، فقد أصاب وزارة الداخلية ما أصاب الوزارات الأخرى، من ناحية عدم الاستقرار السياسي، الـذي تخلقه انفضاض وائـتلاف الحكومـات أثنـاء فتـرة الحكـم

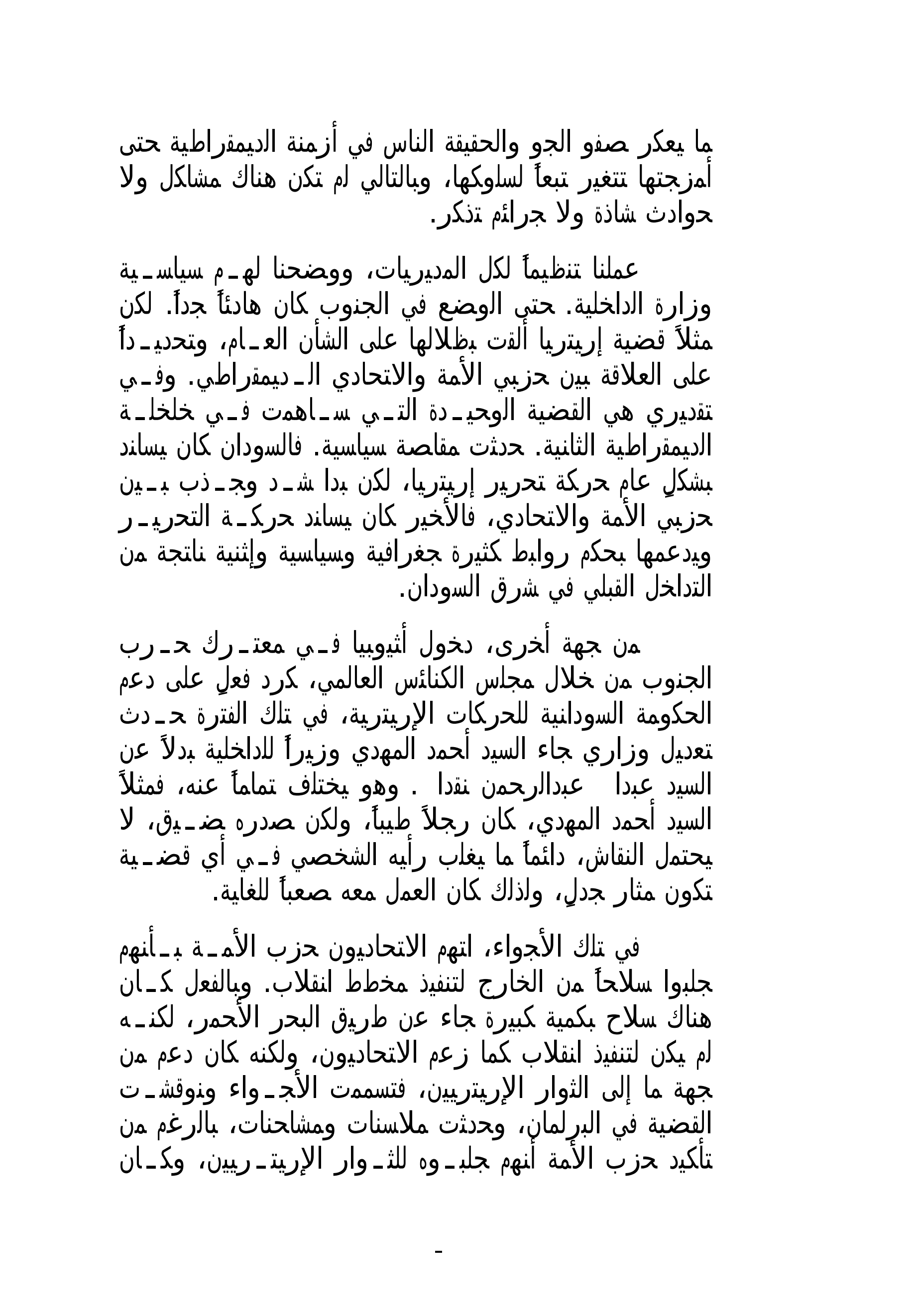
الديمقراطي الثاني. بعد مغادرة كلمنت أمبورو الوزارة، حل محله الأمير عبدا عبدالرحمن نقد ا ، وغادر عباس فضل وجاء بدلاً عنه محمود بخاري، وذهب أبارو (كان نائب المدير) وجاء محله حسين حمو.

كذلك غادر وكيل الوزارة علي حسن عبدا ، وجاء مكانه أمير الصاوي، والذي سبق لي أن عملنا معاً. إلا أنه قد أصبح مناخ العمل رائقاً ومريحاً إلى حد كبير. في واقع الأمر، كانت العلاقات الأخوية تطغي على كل شيء، وكانت روح الزمالة مشبعة بالوطنية، فكان العمل يسير بسلاسة وانضباط. توليتُ قسم الإدارة. كان الهيكل كله في الوزارة من صميم مسئولياتي، لم يكن هناك شخص لأستلم منه، فقط كان هناك أحمد علي الحاج، حكمدار وترقى لكومندان، وكان يعمل معي في دارفور.

وضعتُ هيكلاً للتنظيم الإداري وافقوا عليه بالإجماع، ولحسن الحظ، الأمير نقدا كان رجلاً كبيراً، واسع الصدر، معلوماته كثيرة جداً في مضمار العمل. لم يكُن ينظر للأمور نظرة سياسية ضيقة، وكان يهتم بكل التفاصيل ويشاورنا في كثير من الخُطوات، ويقول: **«يا جماعة، إنتوا الناس الفنيين والإداريين وأنا رجل سياسة لا أعرف حاجة مطلقاً عن العمل الفني بتاعكم ده، ولذلك أنتم الخُبراء بالنسبة لي»**، كان رجلاً مرنا وقائداً فذاً.

في حقيقة الأمر، طبقاً لملاحظتي الشخصية، أن النظرة الحزبية في وزارة الداخلية تكاد تكون منعدمة، إذ يطغي عليها الجانب المهني والمحايد. كما أن نظرة القيادات في الوزارة حيال من هو موجود في سدة السلطة واحدة، رغم الاحتكاكات والمشاكل التي كانت تطرأ من حين لآخر، وتلبد أجواء الديمقراطية الوليدة بالغيوم.

كانت علاقتنا قد تنامت مع السياسيين الذين كانوا في سدة السلطة، مما خلق نوعاً من التعاون الحميد، لم يكن هناك



ما يعكر صفو الجو والحقيقة الناس في أزمنة الديمقراطية حتى أمزجتها تتغير تبعاً لسلوكها، وبالتالي لم تكن هناك مشاكل ولا حوادث شاذة ولا جرائم تذكر.

عملنا تنظيماً لكل المديريات، ووضحنا لهم سياسية وزارة الداخلية. حتى الوضع في الجنوب كان هادئاً جداً. لكن مثلاً قضية إريتريا ألقت بظلالها على الشأن العام، وتحديداً على العلاقة بين حزبي الأمة والاتحادي الديمقراطي. وفي تقديري هي القضية الوحيدة التي ساهمت في خلخلة الديمقراطية الثانية. حدثت مقاصة سياسية. فالسودان كان يساند بشكلٍ عام حركة تحرير إريتريا، لكن بدا شد وجذب بين حزبي الأمة والاتحادي، فالأخير كان يساند حركة التحرير ويدعمها بحكم روابط كثيرة جغرافية وسياسية وإثنية ناتجة من التداخل القبلي في شرق السودان.

من جهة أخرى، دخول أثيوبيا في معترك حرب الجنوب من خلال مجلس الكنائس العالمي، كرد فعلٍ على دعم الحكومة السودانية للحركات الإريترية، في تلك الفترة حدث تعديل وزاري جاء السيد أحمد المهدي وزيراً للداخلية بدلاً عن السيد عبدا عبدالرحمن نقدا . وهو يختلف تماماً عنه، فمثلاً السيد أحمد المهدي، كان رجلاً طيباً، ولكن صدره ضيق، لا يحتمل النقاش، دائماً ما يغلب رأيه الشخصي في أي قضية تكون مثار جدلٍ، ولذلك كان العمل معه صعباً للغاية.

في تلك الأجواء، اتهم الاتحاديون حزب الأمة بأنهم جلبوا سلاحاً من الخارج لتنفيذ مخطط انقلاب. وبالفعل كان هناك سلاح بكمية كبيرة جاء عن طريق البحر الأحمر، لكنه لم يكن لتنفيذ انقلاب كما زعم الاتحاديون، ولكنه كان دعم من جهة ما إلى الثوار الإريتريين، فتسممت الأجواء ونوقشت القضية في البرلمان، وحدثت ملاسنات ومشاحنات، بالرغم من تأكيد حزب الأمة أنهم جلبوه للثوار الإريتريين، وكان

الاتحاديون يردون على ذلك بقولهم إنهم لا يثقوا في الحـزب ونواياه. كانت تلك السجالات في بحر العام ١٩٦٦ (السـلاح كان قادماً من سوريا التي كانت تدعم حركة التحرير الإريترية بحكم التوجهات العروبية – المحرر).

تم الاتفاق على أن يقـوم فريـق برئاسـتي، ويـدخل الأراضي المحررة في إريتريا، ويتفقد وجود السلاح وهويتـه والتحقق من مزاعم حزب الأمة. ووضع شرط للفريق الموفد، وهو أن يكون أمنياً ومحايداً. وشرح لنـا الـوزير ملابسـات المشكلة. وأعطوني قائمة بالسلاح، توضـح نوعـه وأرقامـه ودولة المنشأ، كانت المهمة في منتهى السرية.

تحركنا الساعة الرابعة والنصف صباحاً في ذاك اليوم، على زعم أن نصل مدينة كسلا مبكراً. ولم نخبر أي مسئول، حتى كومندان البوليس. وعندما أصبحنا على مشارف كسـلا، طلبنا من "عثمان صالح سبي" وبعـض القـادة الإريتـريين المرافقين لنا، النُزول من سيارتنا حتى لا يراهم أحـد معنـا. على أن نلتقي في العاشرة ليلا في مكانٍ معين، ولكن عنـدما ظهرنا في المساء، كُنتُ الشخص الوحيد الذي يعرفه كل الناس في كسلا، وذلك بحكم عملي السابق في المدينة. فلم يكُن ثمـة مفر من أن يعرف المسئولون الكبار، وأخبرتُهم بطبيعة المهمة السرية وشددتُ في التوصية بضرورة الحفاظ على طابعهـا. واستدعيت كومندان البوليس ونائب المدير علي عبدا .

بالفعل جاءنا "عثمان سبي" ورفاقه في التوقيت المحدد، وكان معهم محمد صالح (كان لديه مقهى يرتاده الإريتريـون، وكان يتعاون معنا في التعرف على المهربين، حيـث كانـت مشكلة التهريب عبر الحدود تشكل هماً كبيراً آنذاك). شـرحتُ لكومندان البوليس ونائب المدير، طبيعة المهمة وخطتنا التـي ستعتمد على عنصر المفاجأة، وذلـك بمداهمـة معسـكرات اللاجئين الإريتريين، ولكن عثمان سبي ومحمد صالح، قالوا لنا

يجب أن نبقى يومين حتى يؤمنوا الطريق نحو المعسكرات التي يوجد فيها السلاح.

ظللنا لمدة يومين في الاستراحة، لا نبارحها حتى لا يرانا أحد. وجاءوا بعد يومين وطلبوا أن نتحرك.. وصلنا الحدود الساعة السابعة ونصف مساء، وتحركنا بعربتين وكنا مسلحين. وحرصنا على إتباع كل الخطوات التأمينية، وسرنا بحذر وسط الجبال والمرتفعات. كنا قد ضللنا الطريق، إلى أن أنقذنا مقاتلون إريتريون، فقالوا لنا إننا كنا قاب قوسين أو أدنى من الوقوع في كمين نصبته القوات الإثيوبية، وقفلنا راجعين إلى أن وجدنا الطريق الصحيح.

دخلنا في أحد المعسكرات الإريترية، وكانت الساعة حوالي الثالثة صباحاً، ومكثنا حتى الساعة الخامسة مساء، وكنا خلالها نبحث عن ضالتنا. فوجدنا أرقاماً كثيرة من الأسلحة مطابقة للقائمة التي معنا. ولم يكُن ثمة شيء يمكن أن نعمله سوى العودة للاستراحة، ونمنا نوماً عميقاً. في حين أن الرئاسة في كسلا، لم تكُن تعرف إننا عدنا. أثناء وجودنا في كسلا، وردتنا أخبار تؤكد أن القوات الإثيوبية ضربت أحد المعسكرات الإريترية، والمفارقة أنه نفس المعسكر الذي تفقدناه.

وفي اليوم التالي لمغادرتنا، تصيدنا الأخبار، فعلمنا أن وزير الداخلية السيد أحمد المهدي، أخطأ خطأ كبيراً، ذلك أنه صرح لصحيفة بقوله: **«إن المشكلة بين قُطبي الائتلاف انتحلت، والأزمة في البرلمان انتهت، لأن وزارة الداخلية أرسلت فريقاً لتفقد تلك الأسلحة»**. وبالطبع ليس معروفاً لدينا ما إذا كان القصف الأثيوبي تم بناء على ما قاله الوزير، أم لديهم معلومة مسبقة، أم أن الأمر كله محض صدفة. لكن الذي نعلمه أننا لو تأخرنا يوماً واحداً كان يمكن أن نكون ضمن ضحايا ذاك المعسكر.

عندما عدنا إلى الخرطوم، قابلنا وزير الداخلية السيد أحمد المهدي، وأطلعناه على نتائج الزيارة ومطابقة السلاح للأرقام التي كانت بحوزتنا في القائمة، كما شرحنا له كل شيء تعلق بطبيعة المهمة. كانت أسارير السيد أحمد المهدي قد بدأت في الانفراج، ويبدو أنه أزاح هماً كبيراً كان جاثماً على صدره. اقتنصتُ تلك الفرصة، وأفضيتُ له بمكنون صدري في التصريحات التي أدلى بها للصحيفة، من حيث إنها لم تكن موفقة، وقلت له: **«سعادتك تصريحك للصحف كان حيودينا في ستين داهية»**.. فقال لي: **«متأسف جداً، كانت غلطة، لكن الحمد جاءت سليمة»**. والحقيقة أنها لم تكن سليمة، لأن هناك ضحايا بالفعل.

ثم أعلمنا الوزير أن الأزمة في البرلمان انتهت بعد عرض تقريرنا. لكن ثمة أزمة أخرى بطلها السيد أحمد المهدي أيضاً، وذلك بعد دخول البوليس في إضرابٍ كان من المفروض أن يكون في كُل أنحاء السودان. لكنه أصبح محصوراً في العاصمة وقليل من المدن، وإن كانت العاصمة هي الأخطر. وكان الإضراب متعلقاً بأوضاعهم المهنية وكذا مرتباتهم.

عندما تأزمت الأمور، كان هناك اجتماع قيادي ضم محمود بخاري وأمير الصاوي وشخصي مع الوزير، الذي احتد، وقال لنا: **«خلوهم مضربين، وأنا أجهز ليكم ألفين من شباب حزب الأمة، لكي يسدوا الثغرات ويستلموا بدلاً من البوليس المضربين»**، فاعترضنا وقلنا له سيادتك البلد كده سوف تدخل في حرب أهلية. واستمر الاجتماع حتى الساعة العاشرة مساء، فقلنا للوزير أدينا فرصة نتشاور.

خرجنا واجتمعنا لوحدنا واتفقنا على أن نضع استقالاتنا كلنا أمام الوزير، لأنه لا يمكن تحمل ذلك الوضع وحلول الوزير الكارثية. طبقنا ما عزمنا عليه، فوضعنا استقالاتنا الجماعية أمامه، وقلنا له نحن لا نستطيع تحمل المسؤولية طالما نحن مسئولين من أمن البلاد.

اتصل السيد أحمد المهدي بالسيد الصادق المهدي هاتفياً، وطلب منه الحضور على وجه السرعة، وجاء بدوره تلبية للدعوة، وقُلنا له إننا اختلفنا في تقديراتنا مع السيد أحمد المهدي، في معالجة أمر الإضراب، فقاطعني السيد أحمد، وقال له: **«الجماعة ديل قدموا استقالات جماعية»**، فقال السيد الصادق وعلامات الانزعاج ارتسمت على وجهه: **«كيف؟»**.. فشرح السيد أحمد الوضع في العاصمة والأقاليم ووجهتي النظر، أي هو ونحن.. فقال له السيد الصادق: **«لا أنا ولا أنت نعرف الأمن، هؤلاء الأخوة خُبراء البلاد في الأمن، وهم المسئولون عن الأمن»**، ثم التفت نحونا، وقال: **«يا جماعة، اعتبروا الموضوع ده منتهي»**، ووضح أنه انحاز لوجهة نظرنا.

بعد ذلك، انحصر همنا في ضرورة وقف خبر الإضراب من أن يصل للصحف. كان السيد أحمد المهدي قد أبدى ضيقاً وتبرماً، وقال: **«نوقف أي صحيفة تنشر الخبر»**. فقلنا بالطبع هذا حل غير معقول، ومردوده سلبي، وسيكون وبالاً على الحكم. وقلنا له: كيف نمنع الصحف من النشر والساعة أصبحت منتصف الليل تماماً؟! واقترح بعضنا أن نتصل بالصحف بشكلٍ ودي ونطلب عدم النشر، أو تخفيف حدة الخبر. فقام أمير الصاوي واتصل بالسيدين إسماعيل العتباني وبشير محمد سعيد، وطلب منهما معالجة الأمر لحساسية الظروف التي تمر بها البلاد، وفعلنا نحن نفس الشيء مع رؤساء تحرير آخرين، كُلٌ بمعرفته، وقد وافق أغلبهم، والذي لم يتمكن من منع النشر صدر بمساحة بيضاء في الصحيفة.

في اليوم التالي، أحصينا الذين أضربوا على العمل ووجدناهم نحو ١٥٠ من جملة ألفين، هم القوة المتواجدة في الخرطوم من كوادر الشُرطة. ووجدنا في عطبرة نحو ١٥ شخص، ومدني ١٥ كذلك، فمرت الأزمة بسلام، ولكن تم فصل الذين أضربوا عن العمل.

علاقات السياسيين

السيد الصادق المهدي رجلٌ دمث الخُلق، وكثيـراً مـا جالسته في رحلاته، خاصة في الأوقات المتأخرة بعد أن يكون قد قضى كل مهام رحلته الرسمية والمقابلات الشخصية، كنتُ أبدي له آراء صريحة في قضايا كثيرة ويتقبلها منـي بصـدر رحب. وكثيراً ما كان يطلب مني أن أدون الرأي الذي قلته في مذكرة، ويقول لي: **«الكتابة أفضل، حتى لا ننسى»**. أذكُر ذلك لأدلل على أنه كان يهتم جداً بآراء الناس، ويمتـاز بإصـغاء السمع لمحدثه، وذلك ما قربني منه كثيراً. والحقيقـة، كُنـتُ أحاول أن أتعامل دائماً مع طرفي الائتلاف الحاكم، بقدرٍ سواء، حتى لا أفقد مهنيتي التي أعتز بها كثيراً وأُخلـص لهـا، ولا أخلطها بالأمور السياسية.

السيد الصادق المهدي رجلٌ نشيط، وعنده طاقة رهيبة جداً في العمل. ذات مرة قرر أن يسافر في جولـة خارجيـة تشمل بعض الدول المجاورة. وفي العادة، كان دائمـاً يـذهب وفي معيته طاقم من الحكومات المحلية ووزارة الداخلية، ومن الأخيرة يفترض أن يذهب مدير عام الشرطة، لكن صدر قرار باختياري، وكان بحق مفاجأة لي ولمن حولي مـن الـزملاء، وشعرتُ بالحرج مع زملائي، لكنها التعليمات التي لا بد مـن أن تنفذ. فذهبتُ في معية السيد رئيس الوزراء، وأصبح ذلـك شبه تقليد في معظم رحلاته الخارجية.

كذلك رافقتُه في زيارة الأقاليم الثلاثة في الجنـوب، إذ توجد أعداد كبيرة من الشماليين، ومعظمهم يعمل في التجارة. كانت الحكومة تريد التركيز في تنمية ولايتي بحـر الغـزال وأعالي النيل، لكنني شخصياً كُنتُ أفضلُ العكس. وأنا بدوري، رغم رداءة الطقس، زرتُ معظم المراكز، بدء بأعالي النيـل.

ونسبة لعملي السابق في كُل مناطق الجنوب، كان مما يسعدني أن كثيراً من المواطنين يتسابقون في تقديم الخدمات لنا، فما إن نصل لمنطقة معينة، حتى يتوافد علينا الذين يعرفوننا للتبـرع بالمعلومات.

من الرحلات التي لا أنساها برفقـة السـيد الصـادق المهدي، كانت إلى بحر الغزال. استقلينا القطار من واو إلـى أويل. ومن المواقف المحرجة، عندما وصلنا أويل، عقدنا لقاء شعبياً طويلاً، من الصباح حتى المساء. وتبارى الأهالي بكرم الضيافة. وفي وقت متأخر من الليل، شعر كل أعضاء الوفـد بآلام في البطن، وإسهالات، بما في ذلك رئيس الوزراء. وكان واضحاً حدوث تسمم في الأكل، فتمـت إسـعافات جماعيـة للمصابين وعولج الأمر طبياً، لكن اضطر القطار أن يتحـرك الساعة الثانية عشر ظهراً، بدلاً عن الساعة السادسة صباحاً.

الشريف حسين الهندي

يحضرني هنا أن أتذكر شخصية فذة، وهـو الشـريف حسين الهندي. والمفارقة، أنني التقيته في القاهرة من قبـل أن يصبح شخصية ذات شأن. بالرغم مـن أنـه خـريج كليـة فيكتوريا، إلا أنه بدأ كتاجر مواشي. لم يكُن سياسـياً آنـذاك، وكان يسكن فندق قصر النيل. وهو ذات الفندق الذي اعتـدتُ السكن فيه أيضاً كلما زرتُ القاهرة. كان ذلـك فـي أواخـر الخمسينيات من القرن الماضي. تقابلنا ذات مـرة فـي بهـو الفندق، وكان معه الفنان حسن عطية، إذ كانا صديقين، ولعـل الأخير جاء بغرض إجراء تسجيلات فنية، وهي المهمة التـي يتوافد الفنانون لها ويحضروا للقاهرة من وقت لآخر لأجلها.

كانت تلك أول معرفتي بالاثنين معاً، وتوطدت علاقتنا مع بعض وأصبحنا أصدقاء. بالنسبة لحسن عطية، كما ذكرت من قبل، كان بيننا أصدقاء مشتركين، وأيضاً مـع الشـريف التقينا كثيراً حتى بعد أن أصبح الشريف حسين رقماً كبيراً في

الحزب الوطني الاتحادي. كان ما يلفت النظر في أسلوب حياة الشريف تلك الطريقة البوهيمية في كُل شيء.. ملبسه، مشربه، مأكله.. كان يحب البساطة ويشتغل بقضايا الفكـر والسياسـة أكثر من أي اهتمام آخر.. عندما كنا نقضي الأمسـيات فـي منزل حسن عطية، كان يحضر إلينـا دائمـاً بعربـة أجـرة "تاكسي"، وبعد أن ينفض سامرنا، كان يطلب مني أن أوصله للوزارة في ذاك الوقت، وغالباً ما تكون الساعة فـي حـدود الثالثة صباحاً.. لقد كان يعمل كثيراً..

حكا لي المصباح مكي، وكان وكيل وزارة المالية، قال لي: **«أحياناً تتراكم الملفات لعدة أيام بسبب سفر الشريف، أو أي أسبابٍ أخرى، وعندما يأتي إلى المكتب، يغلقه عليـه ولا يغادره حتى يأتي عليها كلها»**. وقال لي، إن طريقتـه كانـت عجيبة، فعندما يغادر الوزارة لا يقول إلى أين هـو ذاهـب.. كانت لديه عدة أماكن يذهب إليها، حتى لا يعرف أحد مكـان وجوده. وكان يرهق معاونوه، سواء في الوزارة أو الحـزب بالبحث عنه عندما تكون هناك أشياء ضرورية تستدعي ذلك. كُل أصدقائه كانوا يعلمون أن حياته قلقة، فهو ليست لديه أسرة بمعنى زوجة وأطفال ومنزل مستقر، وحتى ملابسه الشخصية، فأحياناً كثيرة تجده يرتدي ملابس من المكان الموجـود فيـه. كانت حياته غريبة في أطوارها. على عكس المحجوب، الذي كان مرتباً ومهندماً ومنظماً جداً.. وكذا صديقنا حسن عطية.

الهادي والصادق

من المشاكل التي انعكست على الحكم والسلطة، هـي المشكلة التي شبت نيرانها بين السيدين الصادق المهدي وعمه الهادي المهدي، وثالثهما عمه الآخر أحمد المهدي، الذي دخل في الخط أيضاً. كان الاختلاف أسرياً حول من يكون رئـيس حزب الأمة، ومن يكون إمام الطائفة، كان كُلٌ منهم يرى أنـه الأحق بالحسنيين معاً، أي إمامة الطائفة ورئاسة حزب الأمة. المفارقة، أن الصادق كان ينادي بضرورة فصل الإمامة مـن

رئاسة الحزب، وانتهى به المطاف الآن لأن يعود بالخلاف لسيرته الأولى، وهو دمج الإمامة والرئاسة معاً، وتلك من تناقُضات السيد الصادق التي لن تجد لها تفسيراً.

انشق البيت المهدوي يومذاك. وعلى الرغم من أن الخلاف هو خلافٌ أسري في مظهره وجوهره، إلا أنه انعكس على الائتلاف مع الحزب الآخر، الوطني الاتحادي، وانعكس على مسيرة السلطة والحكم بصورة عامة. كانت الائتلافات تلتئم وتنفض، وفي مرة عاشت البلاد أكثر من عشر أيام دون تشكيل حكومة، لدرجة أصبحت فيها إضرابات النقابات والهيئات لهواً. ثم دخلت مسألة طرد نواب الحزب الشيوعي من البرلمان في العام ١٩٦٥، وهي القضية التي تفاعلت وأدت إلى تداعيات لاحقاً، أهمها انقلاب مايو في العام ١٩٦٩.. أسوأ ما في تلك المشاكل، ضياع هيبة الحكم، وذلك ما يورثنا من أمرنا عسراً في النواحي الأمنية في البلاد.

في تلك الأجواء، جاءني ذات يوم حوالي الساعة الثانية صباحاً، اثنين من ضباط الجيش، الذين يعرفونني وأعرفهم، ولكن ليست بيننا علاقة شخصية، وقالوا لي: **«هل لديك مصحف؟»**.. قلت: **«نعم»**.. قالوا: **«نريد أن نُطلعك على سر، ولكن في البداية لا بد من أن تُقسم بأن يظل ما نقوله لك سراً بيننا»**.. فوافقت.. فقالوا لي: **«إنت عارف الحاصل في البلد»**، وسردوا الأحوال التي أعرفها جيداً، وقالوا: **«نريد تغيير الأوضاع، ولكن نريد أن نضمن قُوات الشُرطة معنا من خلالك»**..

الحقيقة انزعجتُ، ولكني أجبتهم بهدوء، وقلتُ لهم: **«أنا أختلف معكم من حيث المبدأ، ونفس القسم الذي أقسمته الآن، أقسمته من قبل لحماية النظام الديمقراطي. ومن ناحية أخرى، تعلمون أن البلد يادوب خرجت من محنة حكم عسكري، فلماذا نعود بها لنظام عسكري لن يحل قضية؟»**.. وقلتُ لهم: **«لعلمكم، الناس لن تقبل ذلك، الشارع لن يتجاوب**

مع أي انقلاب».. قالوا لي: «هل إنت عاجبك الحاصل ده؟».. قلت لهم: «بالطبع لا يعجبني، ولكن ما تطرحونه أيضاً لا يعجبني، وما ممكن العلاج يكون حكم انقلابي عسكري، هذه القضايا علاجها يكون بمزيد من الديمقراطية، تتعالج بالحوار الداخلي بطريقة سلمية، ولندع الأحزاب تتخاصم وتتصالح في إطار الديمقراطية التي ارتضيناها. يكفي ما حدث في الماضي.. عموماً، أنا لن أقبل هذا الكلام وأنصح بألا يحدث».

ثم سألتهم: **«هل إنتو شرعتوا فعلاً؟».. قالوا: «لا، لسه ولكن المسألة محصورة، ووجدنا قُبول من البعض»..** قلت لهم ختاماً: **«أنا أؤكد عدم موافقتي، ولكن سألتزم بالقسم الذي أقسمتُه أمامكم بألا أفشي سركم، ولكن أتمنى أن تعودوا إلى رشدكم وتنسوا هذا الموضوع، وبالتالي أنا سوف أنسى أنكم عرضتم علي ذلك»..** وهو ما قد كان.

رحيل علي الميرغني

أذكُر ذات مرة جاءني اتصالٌ تلفوني من استقبال الوزارة، وأفاد بأن هناك شخصاً يريد مقابلتي، فسمحتُ له لأنني أميلُ أصلاً إلى مقابلة الناس. جاء الشخص المعني وعرفني بنفسه، وقال إنه أحد خلفاء الطائفة الختمية، وجاءني برسالة شفهية من السيد أحمد الميرغني، ويطلب مني الحضور لمقابلته في منزله الساعة الخامسة مساء.

في الساعة المحددة، ذهبتُ له في منزله بمدينة الخُرطوم بحري، ووجدتُ معه شقيقه السيد محمد عثمان الميرغني، وهو أصغر سناً منه. فقال لي: **«ادينا توصية من السيد الوالد، للاتصال بك، وكذلك توصية أخرى من السيد الحسن الميرغني في كسلا، ونحن هنا للتعرف عليك أكثر، ونشكُرك على الخدمات التي تُقدمها لأفراد الطائفة»** (كانت تلك الخدمات عبارة عن تأشيرات الخُروج، أو استخراج جوازات السفر وأشياء من هذا القبيل). كانت تلك المقابلة

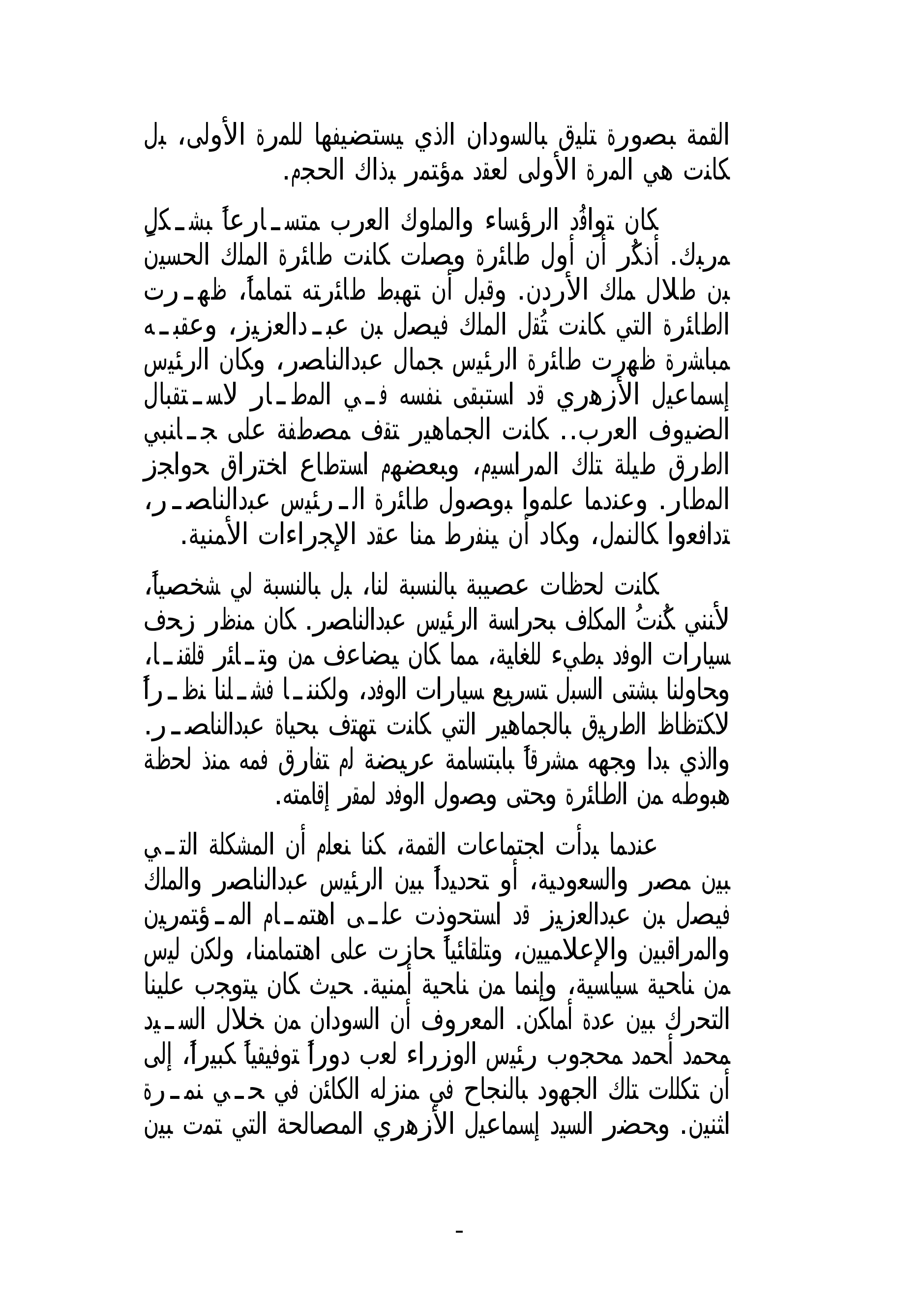
مدخلاً لعلاقة بيني والسيد أحمد الميرغني، واستمرت لسنين، دون أن يعكر صفوها شيء.

توفي السيد علي الميرغني في العام ١٩٦٨، فقُمنا بعمل احتياطات أمنية كبيرة قُبيل تشييع الجنازة، فلم نعتمد على عددنا فقط، بل أرسلنا إلى مدينة ود مدني لاستقدام قُوة إضافية، كانت نحو ٢٠٠ جندي، لنعزز بها السيطرة الأمنية. وطلبنا كذلك من قيادة الجيش أن تكون في حالة استعداد قُصوى. ثم تم تكليفي وزميلٌ آخر للذهاب إلى سرايا القصر الجمهوري، منتدبين من قبل الشرطة، وذلك لمتابعة تحضيرات الجنازة.

اتفقنا أن تتحرك الجنازة في الساعة الرابعة بعد الظهر، وحددنا لها خط سير معين، بحيث تعبر فيه كُبري أم درمان، ومن ثم إلى مدينة بحري. كان التشييع رهيباً ومهيباً.. جاءت وفود من معظم أقاليم السودان.. الجزيرة، كسلا، بورتسودان، الأبيض ومدن الشمالية.. اضطررنا لإغلاق الشوارع ومنع العربات، لكي يستغلها الراجلون وحدهم. ومع كثرة الحشد، فقدنا السيطرة على الوضع، ووصلنا الخرطوم بحري نحو الساعة السابعة مساء. وحتى بعد قبر الجثمان، استمرت الأوضاع متوترة لنحو عشرة أيام، لم نرفع خلالها درجة الاستعداد.

مؤتمر القمّة العربي

أيضاً من المناسبات التاريخية التي واجهت فيها الشرطة امتحاناً صعباً نظراً لخبرتنا التي لم تتعد الإطار الداخلي. كان ذلك في مؤتمر القمة العربي التاريخي والاستثنائي الذي عقد في الخرطوم في العام ١٩٦٧. اجتمعنا طويلاً مع وفود مقدمة جاءتنا من كل الدول العربية المشاركة للتأكد من الإجراءات الأمنية. وبالطبع تطلب الأمر أن نستعين بكوادر شرطية إضافية من كل الأقاليم. كانت الترتيبات مضنية بحق، وقفنا على كل صغيرة وكبيرة في التفاصيل حتى ننجز



القمة بصورة تليق بالسودان الذي يستضيفها للمرة الأولى، بل كانت هي المرة الأولى لعقد مؤتمر بذاك الحجم.

كان توافُد الرؤساء والملوك العرب متسارعاً بشكلٍ مربك. أذكُر أن أول طائرة وصلت كانت طائرة الملك الحسين بن طلال ملك الأردن. وقبل أن تهبط طائرته تماماً، ظهرت الطائرة التي كانت تُقل الملك فيصل بن عبدالعزيز، وعقبه مباشرة ظهرت طائرة الرئيس جمال عبدالناصر، وكان الرئيس إسماعيل الأزهري قد استبقى نفسه في المطار لاستقبال الضيوف العرب.. كانت الجماهير تقف مصطفة على جانبي الطرق طيلة تلك المراسيم، وبعضهم استطاع اختراق حواجز المطار. وعندما علموا بوصول طائرة الرئيس عبدالناصر، تدافعوا كالنمل، وكاد أن ينفرط منا عقد الإجراءات الأمنية.

كانت لحظات عصيبة بالنسبة لنا، بل بالنسبة لي شخصياً، لأنني كُنتُ المكاف بحراسة الرئيس عبدالناصر. كان منظر زحف سيارات الوفد بطيء للغاية، مما كان يضاعف من وتائر قلقنا، وحاولنا بشتى السبل تسريع سيارات الوفد، ولكننا فشلنا نظراً لاكتظاظ الطريق بالجماهير التي كانت تهتف بحياة عبدالناصر. والذي بدا وجهه مشرقاً بابتسامة عريضة لم تفارق فمه منذ لحظة هبوطه من الطائرة وحتى وصول الوفد لمقر إقامته.

عندما بدأت اجتماعات القمة، كنا نعلم أن المشكلة التي بين مصر والسعودية، أو تحديداً بين الرئيس عبدالناصر والملك فيصل بن عبدالعزيز قد استحوذت على اهتمام المؤتمرين والمراقبين والإعلاميين، وتلقائياً حازت على اهتمامنا، ولكن ليس من ناحية سياسية، وإنما من ناحية أمنية. حيث كان يتوجب علينا التحرك بين عدة أماكن. المعروف أن السودان من خلال السيد محمد أحمد محجوب رئيس الوزراء لعب دوراً توفيقياً كبيراً، إلى أن تكللت تلك الجهود بالنجاح في منزله الكائن في حي نمرة اثنين. وحضر السيد إسماعيل الأزهري المصالحة التي تمت بين

الطرفين. وكان ذلك حدثاً تاريخياً، كلل المؤتمر بالنجاح، وعزز المكانة التي كان يمتاز بها السودان آنذاك.

على المستوى الشخصي، كانت مسئوليتي في توفير الحماية والأمن للرئيس عبدالناصر، قد منحتني فرصة أن أكون قريباً منه في أحيان كثيرة. أذكُر منها عندما كان متجهاً نحو قاعة الجلسات في فندق السودان، ومعه الملك حسين، فسمعتُه يتحدث معه بصورة أقرب للهمس، ويناديه باسمه مجرداً، وبابتسامة عريضة، وقال له: **«اسمع يا حسين، اليهود أولاد الكلب دول لو أدوك شبر من الأرض خُده، وطالب بغيره، ما ترفُضشي حاجة»**. يبدو أن الكلام كان مواصلة لما جرى في الجلسة قبل فضها.

هكذا مضت أيام المؤتمر الثلاثة، وغمرتنا السعادة عندما أشاد الجميع، مسئولين وضيوف، بنجاح الإجراءات الأمنية التي مرت بسلام ولم يعكر صفوها شيئاً.

معهد الموسيقى

في فترة الحكم الديمقراطي الثاني، إضافة لما ذكرتُ عن صفات عبدالماجد أبوحسبو، فقد كان يمتاز بحس فني عالي، وحاسة موسيقية هائلة، ولعل الناس لا يعرفون جمال صوته. وفي تقديري، أن أجمل زمن مر على الإذاعة والتلفزيون والفن عموماً، كان في فترة "أبوحسبو". بل حتى من النواحي المادية، تحسنت أوضاع الفنانين والعازفين، الشيء الذي كان له مردود ايجابي على الإنتاج الفني بصورة عامة والغناء بصورة خاصة.

قرر الوزير عبدالماجد أبوحسبو قيام معهد الموسيقى، وأسر لي بذلك، فقلتُ له: **«أوصيك بالماحي إسماعيل، فهو خير من يستشار في هذا الأمر»** (كانت تلك هي المرة الثانية التي أرشحه فيها، أما الأولى فقد رشحتُه للواء طلعت فريد حينما كان وزيراً للاستعلامات)، وبالفعل، تم اختيار الماحي

إسماعيل ليكون رئيساً للمعهد الجديد. وكُلف بوضع أسس عمله وكيفية تشغيل أنشطته، وكُل ما يختص بإدارته. وفـي واقـع الأمر، يعد الماحي من أكفأ الموسيقيين السودانيين، وكان يعمل موظفاً في وزارة الإعلام. ولذلك تم الاتفاق على انتداب خبير من مصر، الدكتور يوسف شوقي، وهو موسيقار عالمي وعلى قدر كبير من الكفاءة والمقدرة الفنية، وطلب منه المساهمة في تأسيس المعهد. مضت كل الترتيبات بسلاسة، واتفق علـى أن يفتتح المعهد في العام ١٩٦٧.

بعد افتتاح المعهد، حدث أن زار الرئيس اليوغسـلافي جوزيف تيتو السودان، وأقيمت له حفلة تشريفية على المسرح القومي، وبعد انتهاء الزيارة كان من ضمن الأشياء التي أهداها للسودان، خبير أصوات اسمه "ماسترلي"، على أساس أن يعمل على تحسين أداء الفنانين السودانيين صوتياً، والمساهمة فـي ترقية الغناء وفقاً لطبقات الصـوت، وكانـت مسـاهماته قـد ساعدت كثيراً في هذا الصدد.

من الأشياء الطريفة، كانت هنـاك فنانـة مختلطـة، مصرية سودانية، اسمها "درية مدني"، عملت محاولات كثيرة من أجل إجازة صوتها وأدائها وفشلت. جاءتنا مرة ثانية وقـد رفضناها في المرة الأولى، وحاولت الاتصال بي كثيـراً بـلا جدوى. إلى أن اتصل بي الفنان حسن عطية، وكانت قد لجأت له بعد أن عرفت أنه صديقي، ومع ذلك لـم يسـتطيع حسـن التأثير علي، ولكن أرضيتها بقولي لها: **«سوف أمنحك تصريح لـ"ماسترلي" اليوغسلافي مـن أجـل التـدريب وتحسـين صوتك»**، فقضت معه نحو ستة أشهر، وبالرغم من أن صوتها لا بأس به، لكن عندها مشكلة في الطبقـات، إلـى أن نجـح "ماسترلي" أخيراً من وضعها في الطبقة المناسـبة، وبعـدها جاءت واختبرناها في لجنة النُصوص، ونجحت، لكنها مع ذلك اختفت سريعاً ولم تصمد في الساحة الفنية طويلاً.

أذكر ذات يوم، وبينما كنا نتجاذب أطراف الحديث في منزل الفنان حسن عطية، كما اعتدنا، طرح أحد الحضور من الأصدقاء فكرة زيارة سيدة الغناء العربي السيدة "أم كلثـوم".. ولما كان الحضور سياسياً وفنياً كما أسلفت، توسعنا في نقاش الفكرة، ورأى فيها السياسيون أنها فرصة يمكن للسـودان أن يساهم من خلالها في تضميد جراح النكسة العربيـة، بحيـث يكون مردود الزيارة لعملٍ يصب في ذلـك الهـدف. صـار الحماس طاغياً للفكرة، ووجدت ترحيباً وتشجيعاً مـن وزيـر الثقافة والإعلام عبدالماجد أبوحسبو لإنجازها. وبعد أيام قلائل، بشرنا بقُبول السيدة "أم كلثوم" الدعوة.

كانت زيارة تاريخية، وكان دوري مزدوجاً بين المهنة والفن، فأوليتُ اهتمامي للجانب المهني، ووفرنا لهـا حراسـة أمنية مثلما كنا نفعل للشخصيات الرسمية. رغم قناعتي، بـل القناعة السائدة آنذاك، أن الأحوال العامة في ذاك الوقت لـيس فيها ما يقلق من الناحية الأمنيـة، فالنـاس كـانوا بسـطاء، وهمومهم محدودة، لم يكُن هناك تطرف مثلما هو الحال الآن، وبالتالي كنا نعلم أن غاية هم الناس الاستمتاع بتلك الزيارة.

كانت الحفلات ناجحة، بالرغم من تخوفنا من تكـاليف ترحيلها بمصاحبة فرقة كبيرة، الأمر الذي يتطلب مالاً كثيراً. ومن المفارقات المؤلمة أنه عندما حدث انقلاب نميـري فـي العام ١٩٦٩، كانت هذه الزيارة ضمن الاتهامات التي وجهت للوزير "أبوحسبو"، بدعوى تبديد موارد الدولة!

زيارة إلى الصومال

كان بيني وبين السفير الصـومالي فـي الخرطـوم، عبدالرحمن أحمد، علاقة صداقة، وتوطدت علـى المسـتوى الأسري. حدث أن قَدم السفير عبـدالرحمن دعـوة لشـرطة السودان للقيام بزيارة الشُرطة الصومالية، وتم اختيـاري أنـا وبكري عبيد، ونحن أصلاً دفعة واحدة. اسـتقبلونا اسـتقبالاً

حافلاً، وهم بطبعهم يحبون السودانيين حباً لدرجة المبالغة، كما لمسنا. وينظرون للسودان كبلد مميز تماماً. وفي واقع الأمـر، إن ما يلفت انتباه الزائر، وجه الشبه الكبير، ليس على مستوى الشكل الذي يصعب على الواحد التفريق فيه بين الصـومالي والسوداني، ولكن على مستوى كثير من العادات والتقاليد.

كان مدير البوليس الجنرال أتير رجلاً مهابـاً وحـاد القسمات، وشأنه شأن معظم الصوماليين، كـان لـه صـوتاً جهورياً، تخرج الكلمات من فمه كأنها رصاص. شـرفنا فـي بداية زيارتنا بحفلٍ في منزله، دعا له كبـار قـادة الشـرطة، وبعض ضباط الجيش، وللمفارقة كان بينهم "سياد بري"، الذي أصبح رئيساً فيما بعد بانقلابٍ عسكري في العام ١٩٦٩، وكنا قد تعرفنا عليه في تلك الدعوة. ثم أحيوا لنا حفلة غنائية فـي مسرح خاص اسمه "مسرح أحمد ناجي"، وهو فنان صومالي يتمتع بشعبية كبيرة، واستقبلونا بالتصـفيق والأهـازيج التـي أخجلت تواضعنا.

في ذاك الحفل، تحدث الفنان "ناجي" عـن السـودان، وسرد وقائع زيارة فنية قاموا بها للسـودان، وكـان يتحـدث بعواطف جياشة، فيها الكثير من الإعجاب بالشعب السـوداني. ثم غنى لنا نشيد الفنان محمد وردي الشهير "أصبح الصـبح" واهتزت الصالة وكُل من بداخلها يرددون اللحن وراء الفنـان "ناجي". كان بحق استقبالاً كرنفالياً رائعاً.

بعد ذلك كان برنامج الزيارة مكثفاً، طفنا خلاله على معالم كثيرة في العاصمة مقديشو، أكثرها لفتاً للنظر في مسـألة تشـابه العادات والتقاليد، شهدنا زفة يحمل فيها الناس رايات وطبول ونوبة مثلما يحدث في السودان في زفات المولد النبوي. ثم ذهبنـا إلـى هارجيسا في شمال الصومال، وكانت بمثابة العاصمة الثانية للبلاد (تعتبر حالياً هي عاصمة جمهورية أرض الصومال التي أعلنـت استقلالها بدولة منفصلة منذ ما يناهز الثلاثة عقود زمنيـة، ولـم يعترف بها أحد من المجتمع الدولي – المحرر)، وهارجيسا هي بلد

السفير عبدالرحمن أحمد، والذي كان أول رئيس للجزء الشـمالي قُبيلَ انضمامه للجنوب في العام ١٩٦١.

يبدو أن العلاقات الحميمة مصممة على متابعتي حتـى وأنا خارج السودان، فمن الصدف الجميلة، غمرتني السـعادة عندما التقيتُ فجأة صديقٌ بريطاني الجنسية اسـمه "غُـردون سميث"، وكان زميل في كلية غُـردون (الجـدير بالـذكر أن النصف الشمالي من الصومال كان مستعمراً من قبل بريطانيا – المحرر).. اجتررنا الذكريات المختزنة، وتلاحقت الصدف، حيث عاد لاحقاً إلى السودان وعين ملحقاً ثقافياً فـي السـفارة البريطانية بالخرطوم.

قضينا وقتاً طيباً في هارجيسا، ونظموا لنا رحلة إلـى بلدة زميلنا "محمد هلع"، ذاك الذي قضى معنا سنوات في كلية الشرطة في الخُرطوم، كما سبق وذكرت. فوجئ "هلع"، الذي كان يعانقنا بدموع غزيرة، بل رأينا حتـى أهلـه، الـذين لا نعرفهم ولا يعرفوننا يذرفون دموعاً. وتجلي الكرم الصومالي بصورة بزت كرمنا السوداني الذي نتباهى به.

عدنا إلى مقديشو، وبعد قضاء نحو ١٦ يوماً في أنحاء الصومال، قررنا العودة، وكان يفترض أن تكون عن طريـق عدن، الذي حلمنا فيها بتسوق ما نحتاجه، ولكن فوجئنا بطقس حار جداً، لا يطيق المرء فيه حتى الملابس التي يرتديها، ولم يكن غريباً بالنسبة لنا أن نرى اليمنيين يسيرون في الشـوارع شبه عراة. ونظراً لحرارة الجو تلك، قررنا عدم البقـاء فـي اليمن ومغادرتها. استقللنا طائرة صغيرة اتجهت بنا إلى أسمرا أولاً، ثم أديس أبابا ثانياً، فظهرت لنا المفارقـة فـي الطقـس الخُرافي للمدينتين.. أسمرا وأديس أبابا، مقارنة بصنعاء اليمن، فاستمتعنا ببقية الرحلة قبل أن نتوجه للخرطوم.

جون وايت

أذكر أن مستر جون وايت، الذي سبق وزارنـا فـي مدينة جوبا بصحبة أسرته، وبلغتُ من الرئاسة في الخُرطـوم

بضرورة الاهتمام به، وقد فعلتُ من باب الواجب، لا أرجـو جزاء ولا شكورا. عندما نُقلت للوزارة فـي الخُرطـوم، لـم أتذكره، وفي واقع الأمر كانت علاقاتنا مع السـفارات كلهـا جيدة، ليست السفارة البريطانية، أو السفارة الأمريكية وحدهما، ولا يشكل الأمر أدنى حساسية بالنسبة لنا.

اتصل بي جون وايت ذات يوم، وطلب أن نلتقي فـي منزله ونشرب معاً كوباً من القهوة. فشكرتُه ووافقتُ، فاتفقنـا على موعد في اليوم التالي. وقبل ذهابي له، كُنتُ قد أطلعـتُ على معلوماته الشخصية من الملفات السرية لوزارة الداخلية، والتي أشارت لي على أنه الملحق الثقافي في السفارة، ولكـن نحن بحسنا الأمني، كنا نعلم أنه مسـئول وكالـة المخـابرات الأمريكية الـ 'سي آي إيه'.. على كلٍ، عندما زرتُه في منزله، وجدتُ معه ابنته التي سبق وجاءت معه إلى جوبا. فقال لـي: **«أود أن أشكرك على الحفاوة التي استقبلتنا بها في الجنوب، وأود أن أرد لك هذا الجميل»**. وأضاف ضـاحكاً: **«لا تعتقـد أنني أود أن استغل منصبك وأطلب منك خدمة، أنا فقط أود أن أرد لك الجميل»**. فقلت له: **«أشكرك، ولكنني لم أفعـل شـيئاً يستحق رد الديْن»**. ثم أضفت له: **«يجب أن تعلم أن السودان، بلدي هذا، ليس فيه أسرار ولا يحتاج لبذل جهد كبيـر لكـي يبحث الناس فيه عن أسرار»**. وكُنـت أومـئ فـي كلامـي لوظيفته.

قُلتُ له أيضاً: **«إذا احتجتم لأي شيء، فلا تتـردد أن تطلب منا مباشرة دون حرج، وستجد منا كل ترحيب وتعاون لما فيه صالح بلادينا»**. وجلستُ معه قليلاً ثم غادرت. الحقيقة سردتُ هذه القصة لأبين أن العلاقة مع السفارات مـا كانـت تُرعبنا.. المهم، أن تعرف مع من تتعامل.

وأسرد نموذجاً ثانياً.. كان لدينا علاقات أيضاً مع أحد العاملين في سفارة ألمانيا الشرقية، وكنا نتبادل الزيارات دون توجس ونحن نعلم وظيفته المخفية. في مرة قال لي، إنهم على

استعداد لتقديم أي خدمات تريدونها، لأن بـلاده ترغـب فـي مساعدتنا في قطاع الشُرطة. رحبتُ جداً بالفكرة وناقشتها على المستوى القيادي في الوزارة، وأعلمتُ بها الوزير، ومضـيتُ معه بالموافقة. فكان أن منحونا ثلاثـة بعثـات لضـباط لأداء كورسات شرطية، وكذلك أهدوا لجهاز الشرطة عربة مجهزة، وأكثر من ذلك، ربط كُـل مراكـز الشـرطة فـي عواصـم المديريات في كافة السودان مع الرئاسة بواسطة أجهزة تلكس، فأصبح لدينا غرفة عمليات متصلة مع أي نقطة بوليس، وكنـا نستخدم التلفون.

بعد أن تركت العمل في الشُرطة، أذكُر في يوم الأيـام جاءني صديق اسمه "إمام"، وكان يعمل في السفارة الأمريكية في القاهرة، ونقلوه إلى السفارة في الخُرطوم، وهو موضع ثقة العاملين في السفارة. جاءني وقـال لـي، إن أحـد العـاملين الأمريكيين في السفارة، وتحديداً السكرتير، يريـد أن يقـابلني لوحدي، في مكان وزمان أحددهما أنا. وحاولتُ أن استفسر من "إمام" أكثر عما يريده مني، فقال لي أنه ليست لديه معلومات أكثر مما قاله لي.

استحضرتُ عمل الشرطة الذي تركته، وعزمتُ علـى مقابلة الرجل، في مكان وزمان حددتهما، ووصلت له بعربـة أجرة "تاكسي"، ووجدته في انتظاري. وبعد السلام والتحيـة، قال لي: **«عندي لك رسالة من مستر "وايت"»**، وبالطبع لـم اجتهد كثيراً في تذكره. وقال لي السكرتير إن "وايت" أصـبح مسئولاً كبيراً في وزارة الخارجية الأمريكية، وقال لـي أنـه يتابع أخباري من حين لآخر، وسألني إن كُنـتُ احتـاج لأي شيء، وتحديداً ما إذا كُنتُ أرغب في العمل في أي بلد اختاره في أي مكان في العالم..

لا أخفي على القارئ، رغم خبرتي الأمنية والشـرطية الطويلة، إلا أنني شعرتُ بالدوار من حديثه. وتوجستُ خيفـة لهذا العرض الغامض والسخي، مع أن علاقتي بـ"وايت" نفسه

لم تتجاوز ما ذكرتُ من إكرامي له وزوجته وابنتـه عنـدما زاروني في جوبا، ومن ثم عندما التقيته في الخُرطوم بعد نقلي لها. وكما ذكرتُ من قبل، أن مستر "وايت" كانـت وظيفتـه المعلنة هي السكرتير الثقافي في السفارة، ولكننا في تصـنيفنا الذي وضعناه في أرشيفنا، كنا نعلم أن وظيفته تلـك تغطيـة لعمله في المخابرات الأمريكية الـ 'سي آي إيه'.

لذلك لم يكن العرض مريحاً بالنسبة لي، وأدركتُ أن ما وراء الأكمة ما وراءها. فقلتُ لنفسي، ذلك عرض يخفي فـي طياته العمالة إن قبلته، فقررتُ في تلك اللحظة إعلان الرفض للمساعدة المطروحة بهدوء شديد، وشكرتُ السكرتير، وطلبتُ منه أن يبلغ مستر "وايت" تحياتي، وقلت له: **«قل لـه إننـي بخير، وإذا احتجتُ لمساعدة في المستقبل سوف أعلمك»**.

عودة خاطفة للجنوب

بعد المعاش، دفعني الحنين لزيارة الجنوب في العـام ١٩٧٧، فقمتُ بزيارة خاطفة لبعض المدن التي عملـتُ فيهـا لكي أرى الأوضاع عن كثب بعد اتفاقية أديس أبابا ١٩٧٢ لا سيما، ما ظللنا نسمعه حول استتباب الأمن والشروع في تنمية شاملة في الأقاليم الجنوبية الثلاثة. كان ذلك ما كنا نتـوق لـه طيلة سنوات وجودنا هناك، بل لأجل ذلك عملنـا كثيـراً وإن استعصى الحل. كنتُ كلما وصلتُ لمدينة، أشعر بأنني غريب فيها، كأنما تلك البقاع ليست هي التي خبرتها وأحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب.

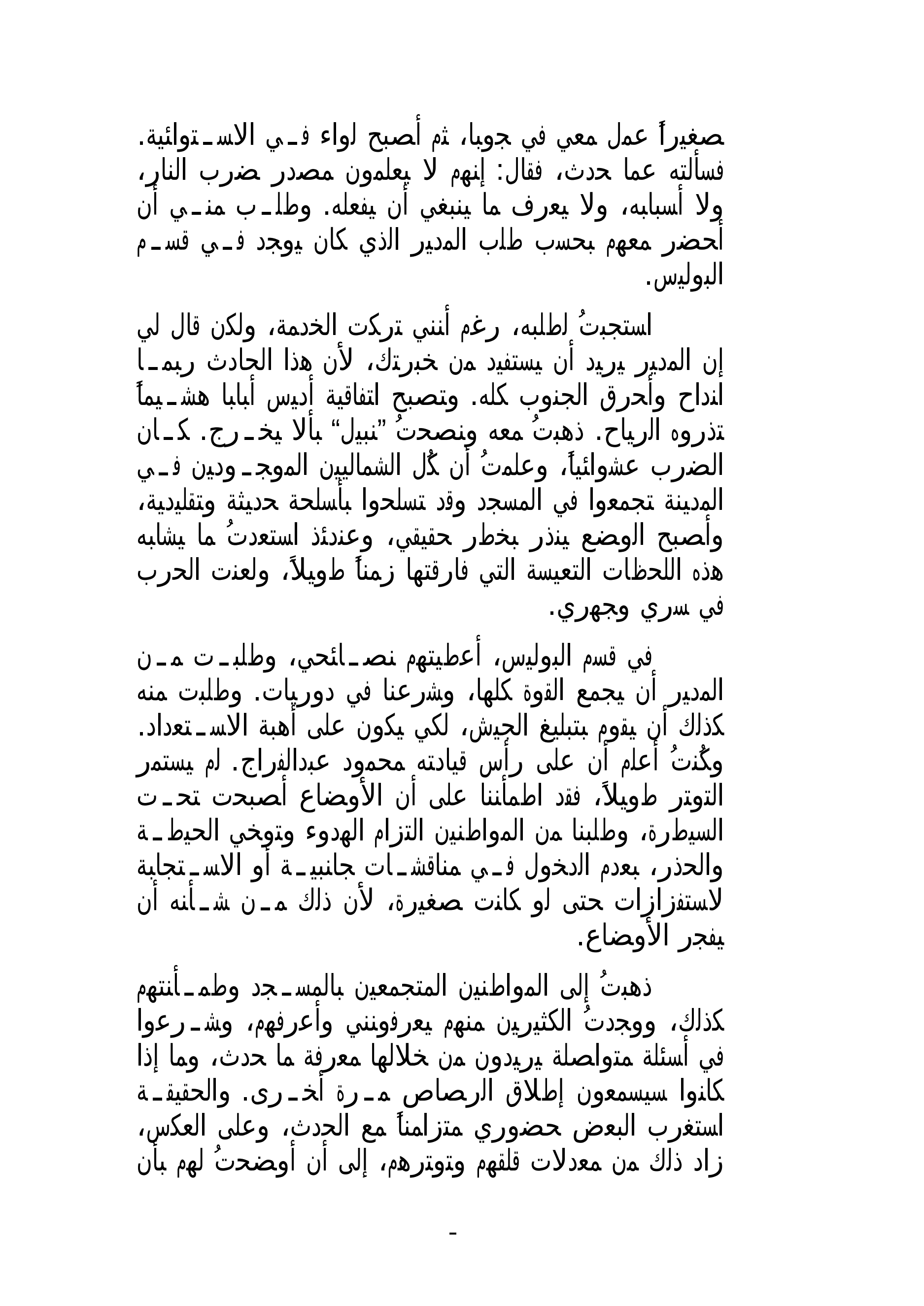
في جوبا، بدا لي أن كُل شيء تغير. وجـدتُ ضـابط بوليس جنوبي في القسم، لم أعرفه ولم يكن يعرفني، وسألته ما إذا كان هناك أفراد شرطة معه في المركز من الشماليين، فقال لي: «هناك واحد فقط اسمه عطا». وأثناء طوافي في المدينـة وجدتُ رجلاً كبيراً في السن، عرفته بعد التدقيق في ملامحـه التي لم تغب عن ذاكرتي. وعندما ناديتُه باسـمه، لـم يكـن

يعرفني ولكنه كان يعرف والدي، فتعانقنـا وأجهـش الرجـل بالبكاء بصوت عالٍ، لدرجة لفتت أنظار الناس. ثم بدأ يحكـي لي عن ذكرياته مع الوالد، وأشار إلى بقايا منزل متهدم، وقال لي: «كان هذا هو منزل والدك. وبدأنا في اسـتذكار التـاريخ الذي يشير إلى تلك الفترة والتي كانت نحو عام ١٩٢٤».

أيضاً من المواقف التي استذكرها فـي تلـك الزيـارة الخاطفة، عندما ذهبتُ إلى الاستوائية، وتحديـداً فـي مدينـة أنزارا، حيث كان يعمل شقيقي حسن زين العابدين، الذي عمل في الجنوب إبان فترة التمرد الأول. وأذكر أنه حكا لي بعد أن عاد من الجنوب عن عامل جنوبي كان يعمل معه، أنقذ حياته من موت محقق. وعندما جئتُ تذكرتُ الرجل واسمه، وسألتُ عنه وعرفتُ أنه ما يزال حياً يرزق. وهناك من جاء به إلي.

عندما رآني الرجل وكان برفقتي كومندان القسم، وهو يرتدي الزي الرسمي، فزع فزعاً شديداً، وكاد أن يسقط مغشياً عليه. إذ حسب نفسه أنه ارتكب جريمة كبرى. وفـي واقـع الأمر، كان الجنوبيون يخشون الأزيـاء الرسـمية للشـرطة والجيش، وأعتقد أن ذلك من الآثار النفسية السـيئة للحـرب العبثية. هدأتُ من روع الرجل، وقلت له: «هل تعرف حسـن زين العابدين؟»، وعندما أجابني وقلتُ له أنني شقيقه، وأريـد أن أشكرك على ما فعلته معه، تنفس الصعداء.

ذهبت إلى مدينة واو لزيارة بعض الزملاء. كنـا فـي استراحة، ومعي أخٌ يدعى "نبيل"، وأثناء تبادلنا الحديث، سمعنا فجأة صوت رصاص عنيف، وكان يبدو علـى مقربـة منـا، فاستعجبنا لأن الحرب توقفت، والدنيا يعمها السلام. ولم يـدر بخلد أي أحد أن يسمع صوتاً فارقته أذنيه منذ سنوات. كانـت تلك هي المرة الأولى لـ"نبيل" في جنوب البلاد، كما قال لي. كما أنها المرة الأولى التي يسمع فيها صوت رصاص حـي، كما قال أيضاً.. انتابه هلع شديد.. فطلبـتُ منـه أن يحتـاط بـ"ساتر"، وبعد ساعة جاءنا كومندان البوليس، وكان ضابطاً



صغيراً عمل معي في جوبا، ثم أصبح لواء في الاستوائية. فسألته عما حدث، فقال: إنهم لا يعلمون مصدر ضرب النار، ولا أسبابه، ولا يعرف ما ينبغي أن يفعله. وطلب مني أن أحضر معهم بحسب طلب المدير الذي كان يوجد في قسم البوليس.

استجبتُ لطلبه، رغم أنني تركت الخدمة، ولكن قال لي إن المدير يريد أن يستفيد من خبرتك، لأن هذا الحادث ربما اندلع وأحرق الجنوب كله. وتصبح اتفاقية أديس أبابا هشيماً تذروه الرياح. ذهبتُ معه ونصحتُ "نبيل" بألا يخرج. كان الضرب عشوائياً، وعلمتُ أن كُل الشماليين الموجودين في المدينة تجمعوا في المسجد وقد تسلحوا بأسلحة حديثة وتقليدية، وأصبح الوضع ينذر بخطر حقيقي، وعندئذ استعدتُ ما يشابه هذه اللحظات التعيسة التي فارقتها زمناً طويلاً، ولعنت الحرب في سري وجهري.

في قسم البوليس، أعطيتهم نصائحي، وطلبت من المدير أن يجمع القوة كلها، وشرعنا في دوريات. وطلبت منه كذلك أن يقوم بتبليغ الجيش، لكي يكون على أهبة الاستعداد. وكُنتُ أعلم أن على رأس قيادته محمود عبدالفراج. لم يستمر التوتر طويلاً، فقد اطمأننا على أن الأوضاع أصبحت تحت السيطرة، وطلبنا من المواطنين التزام الهدوء وتوخي الحيطة والحذر، بعدم الدخول في مناقشات جانبية أو الاستجابة لاستفزازات حتى لو كانت صغيرة، لأن ذلك من شأنه أن يفجر الأوضاع.

ذهبتُ إلى المواطنين المتجمعين بالمسجد وطمأنتهم كذلك، ووجدتُ الكثيرين منهم يعرفونني وأعرفهم، وشرعوا في أسئلة متواصلة يريدون من خلالها معرفة ما حدث، وما إذا كانوا سيسمعون إطلاق الرصاص مرة أخرى. والحقيقة استغرب البعض حضوري متزامناً مع الحدث، وعلى العكس، زاد ذلك من معدلات قلقهم وتوترهم، إلى أن أوضحتُ لهم بأن

زيارتي هذه عادية وما حدث هو محض صدفة. ومكثتُ معهم حتى منتصف الليل. في حين تابعتُ عمل الدوريات حتى فجر اليوم التالي. فأمنا الموقف تماماً، وعندما عدتُ لـ"نبيل" فـي الاستراحة، وجدته في حالة يرثى لها.

كان قائد الجيش قد أرسل إشارة للخرطوم يعلمهم فيها بتفاصيل ما حدث. ففوجئنا في اليوم التالي بوصـول اللـواء الباقر أحمد وكان وزيراً للداخلية، وبرفقته مكي حسـن أبـو، مدير البوليس. حضروا جميعاً إلى الاستراحة، وقالوا لـي إن اللواء الباقر يريدني في أمر هام. عندما ذهبتُ لمقابلته، قال لي علمتُ بدورك فيما حدث، وأريد منك الاستمرار مع زملائـك هؤلاء.

فقلت له: **«لكن يا سعادتك أنا خارج الخدمة، وحالياً أنا مدني ما عندي صفة تبقيني وسطهم»**. قال لي: **«أعلم ذلـك، ولكن يا عثمان نحن الآن في حالة طوارئ، ولا نسـأل عـن الصفة، وإنما نسأل عن كيفية عودة الأمن والاستقرار للبلد. والآن ستستلم خطاب تعيينك مستشاراً لقائد المنطقة»**، ولـم يكن ثمة مفر من الموافقة. لكن الأمر لم يطل، حيـث عـادت المياه إلى مجاريها في فترة وجيزة، وقد أثبتـت تحرياتنـا أن اثنين من الجنود استحوذوا على أشياء تخص مواطنين بالقوة، ودخلوا الغابة، وهي الوسيلة المتاحة عند نشوب أي تمرد.

بعد عودتي للخُرطوم، انخرطتُ فـي أجـواء العمـل المدني، وفي أواخر السبعينات عندما بدأت الأحـوال العامـة تسوء، أثناء فترة حكم الرئيس الأسبق جعفر نميـري، باتـت تراودني أفكار الهجرة خارج البلاد، فقد ضقتُ نفسياً ولم أعد احتمل تدهور الأوضاع العامة. كانت لي علاقة صـداقة مـع صلاح عبدالعال مبروك، وكان وزيراً بالقصر الجمهوري. قال لي ذات يوم، أن الرئيس نميري طلب ملفي الشخصـي مـن الداخلية، وأظنه يفكر في تعيينك حاكماً على كُردفان. لم يكـن

ذلك خبراً مفرحاً، بل فكرتُ منذ تلك اللحظة أن أغادر قبل أن أتعرض لامتحان قاسٍ وأُطلب للعمل معه.

هجرة خارج البلاد

لم يكن موضوع الهجرة خارج السودان يروقُ لي، ولكن مع ضغط الظروف، قررتُ أن أخوض تلك التجربة بعد لقاء بالصدفة مع صديق قديم في الخُرطوم بحري، هو تاج الدين عبدالرحمن الخزين، وهو ابن أخت محمود عتباني. بعد حديث قصير بيننا، استعرض كُلٌّ منا ظروفه الشخصية، قال لي على الفور: **«عندي لك وظيفة مناسبة»**.. وأردف: **«رأيك شنو تشتغل في السعودية في وظيفة ضابط أمن في شركة دلاكو؟!»**.. وقال لي إنه كان يعمل في ذات الشركة، وترك السعودية لدخوله مجال الاستثمار الخاص. فقلتُ له: **«مبدئياً موافق، ولكن أمنحني فرصة لأفكر في الأمر»**.

بعد عودتي للمنزل، شاورتُ زوجتي، فوافقت. ذلك ما شجعني على الاتصال بتاج الدين، وأعلنتُ له موافقتي النهائية، وذهبتُ له ووقعتُ العقد بكافة تفاصيله، وجاءت الموافقة بعد نحو ثلاثة أشهر، وأكملتُ باقي إجراءات السفر في زمن قياسي. والحقيقة، كان قراري أشبه بالهروب من أن أطلب للعمل مع نظام نميري، وفق ما ذكره لي صديقي صلاح عبدالعال. وغادرتُ السودان في سنة ١٩٨١ إلى المملكة العربية السعودية، وعندما وصلتُ في البداية، أديتُ عمرة، ومن ثم ذهبتُ لعملي الجديد.

حدثت مفارقة غريبة، أثناء مقابلتي لمدير الشركة عبدالفتاح ناظر في مكتبه الضخم، وكان يجلس معه أجنبي، قال لي حدسي إنه بريطاني الجنسية، وكان طاعناً في السن، واكتسى شعره كله بالبياض. كان المدير يتحدث معي عن سيرتي الذاتية، وهو مستغرقٌ في صمت عميق، وينظر لأرضية المكتب. وعندما فرغنا من ذلك، واستأذنتُ بالانصراف، إذ بالرجل يقطع الصمت الذي استغرقه طيلة فترة

حديثي مع عبدالفتاح ناظر، ليناديني باسمي، ويقول لي بلغة انجليزية: Do you remember somebody named Miller؟!
أي: هل تعرف شخصاً يسمى ميللر؟! فتداعت الصور أمام عيوني، وتذكرته، وقد بدأت الدهشة تكبر في رأسي. لقد كان هو الشخص الذي طلب مقابلتي بواسطة السوداني الذي كان يعمل في السفارة الأمريكية في الخُرطوم، وقابلتُه، وقال إنه قادم من طرف مستر "وايت". وبعد السلام، أدركتُ أنه كان السبب في تأخير رد الشركة لأكثر من ثلاثة شهور. وعرفتُ فيما بعد، أنه ليس مسئولاً في الشركة فقط، بل هو مسئولٌ عن المنطقة كلها، وله وضعية تكاد تكون معروفة لمن عمل في الأمن مثلنا.

نعم، قضيتُ ما يناهز العقد من الزمن في المملكة العربية السعودية، وعدتُ إلى السودان في العام ١٩٨٩، ولم تكُن في تجربتي في المملكة شيء ذي أهمية يستحق التوثيق والتدوين. فالذي يستحق التوثيق والتدوين سلف ذكره ولم يبق في الكأس باق!

وعلى ا قصد السبيل،،،

عثمان زين العابدين

الفهرس..